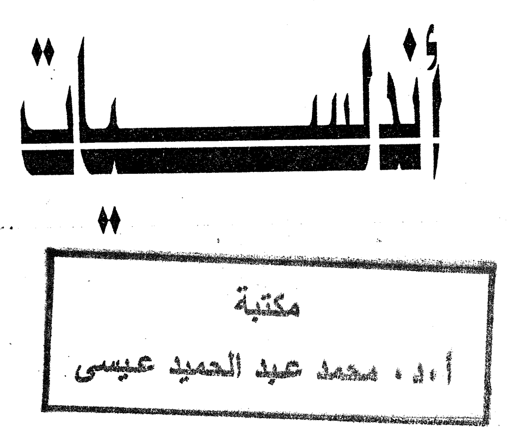
الى ابنى هيثم واسرته

جامعة عين شمس
كلية التربية
قسم التاريخ



أندلسيات

د./ محمد عبد الحميد عيسى
استاذ التاريخ الاسلامى
والحضارة الاسلامية

١٩٩٩


بسم الله الرحمن الرحيم

أندلسيات

المقدمة :

لم أجد إسماً أعنون به هذه المقالات سوى أندلسيات. تلك الكلمة التي لها صدى فى حنايا صدور الناس حنيناً إلى ذلك الماضى الجميل الذى ارتقى فيه الشعب الأندلسى مدارج عالية من الرقى والتقدم حتى أصبح نموذجاً يتطلع إليه العالم أجمع فى شرقه وغربه كمثل أعلى لقيم كثيرة نسأل الله أن تسود فى أيامنا المعاصرة.

فى مجال الحياة التعليمية افتقدنا قيماً جميلة كحرص الأستاذ على طلابه حرصه على أبنائه، وحب الطلاب لأستاذهم واحترامهم له، محبة واحتراماً يفوقان ما يمكن أن تصيغه الكلمات من عبارات، محبة واحتراماً ضاعتا هذه الأيام فى ظل معايير وقيم جديدة لايمكن لهما أن تتفقا وقيم ومعايير الأديان.

وفى مجال الذات حرص الأندلسيون على نظافة البدن وعلى طهارة وأناقة الثوب حتي يقضى الأندلسى الليل طاوياً ولايرى فى حالة تنبو على العين.

،فى مجال العلم يرتقى الأندلسى بنفسه حتى أنه يقيد نفسه بقيد من حديد ولايوضع فى موضع الجاهل الناسى الذى لايستطيع أن يجيب عما يسأل عنه وكذلك الحرص على اقتناء الكتاب ومطالعته، ووجود المكتبات فى البيوت حتى كان سوق الكتب في قرطبة من أكثر الأسواق رواجاً وانتشاراً.

بدأ عبد الرحمن رحلته من جنوب الأندلس، وتجمع حوله مؤيدوه واتخذ طريقه إلى بلاد غرب الأندلس حيث انضمت إليه العرب اليمانية فى إشبيلية وما حولها، ومن ثم اتجه إلى قرطبة العاصمة الأندلسية وهناك واجه يوسف بن عبد الرحمن الفهرى والي الأندلس فى معركة حامية عرفت باسم معركة المسارة وذلك فى يوم عيد الأضحى من عام ١٣٨هـ ٧٤٩م. ثم دخل مدينة قرطبة ظافراً معلناً منذ ذلك الحين قيام دولة أموية فى الأندلس مستقلة تماماً عن الخلافة العباسية.

الأمير عبد الرحمن الداخل ١٣٨ هـ / ١٧٢ م : ٧٤٩ / ٧٨٧م :

كان الأمير عبد الرحمن الداخل من الشخصيات النادرة التي تركت بصماتها علي وجه التاريخ، ويعده كثير من المؤرخين من أعظم شخصيات الحرب والسياسة، تمتع بعبقرية ممتازة وخلال نادرة. وكان قرين جده العظيم معاوية بن أبى سفيان ينشئ مثله دولة، ولكن في ظروف أسوأ من ظروفه ، ويهزم الخطوب والحوادث، ويسحق خصومه فى كل ميدان كما وصفه ابن حيان مؤرخ الأندلس العظيم بالصفات التالية:

«كان عبد الرحمن راجح الحلم، فاسح العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئا من العجز، سريع النهضة فى طلب الخارجين عليه متصل الحركة، لايخلو إلى الراحة، ولايسكن إلى دعة، ولايكل الأمور إلى غيره، ثم لاينفرد فى ابرامها برأيه، شجاعاً مقداماً، بعيد الغوى شديد الحذر، قليل الطمأنينة، بليغاً مفوهاً، شاعراً، محسناً، سمى، سخياً، طلق اللسان...».

الصعوبات التى واجهت عبد الرحمن الداخل :

لم يكن الأمر سهلاً بالنسبة للأمير عبد الرحمن الداخل على الرغم من انتسابه إلى الخلفاء الأمويين بل واجهته مجموعة ضخمة من الصعاب والمشاكل يمكن أن نوجزها فيما يلى:

أولاً : معارضة أصحاب النفوذ القديم فى الأندلس وخاصة الأمير يوسف الفهرى الوالي السابق والصميل بن حاتم صاحب النفود الحقيقى فى هذه البلاد ولقد سبق أن استسلم هذان الرجلان بعد معارك شديدة فى البيرة، وعلى الرغم من اكرام عبد الرحمن لهما فى قرطبة إلا أن الأمير يوسف الفهرى قد نازعته نفسه إلى الإمارة مرة أخرى فهرب إلى ماردة وحشد أنصاره من البربر والعرب واجتمع له منهما خلق كثير سار بهم إلى أشبيليه حيث هزم هناك سنة ١٤١ هـ / ٧٥٨ م وفر إلى طليطلة وأختبأ فى أحوازها حتى قتل هناك عام ١٤٢ هـ / ٧٥٩ م ، وواصل أبناؤه من بعده حركات التمرد والثورة عدة مرات وفي أقاليم متباينة من الأندلس إلى أن تمكن الأمير عبد الرحمن الداخل من القضاء عليهم واحداً بعد الآخر أما الصميل فقد قبض عليه عبد الرحمن عقب هرب يوسف الفهري وسجنه واتهمه بممالأة يوسف الفهري ثم دس عليه من قتله في سجنه، وبذلك تخلص عبد الرحمن من شخصيتين قويتين حكمتا الأندلس قبله زهاء عشرة أعوام.

ثانياً : معارضة العرب اليمنية لعبد الرحمن، ومرجعها شعور هذه القبائل وزعمائهم بأن لهم فضلاً كبيراً فى مساندة عبد الرحمن الداخل حتى أصبح زعيماً وأميراً على الأندلس، وبأنهم لم يلقوا منه الاعتراف

المكافئ لجهودهم فانقلبوا عليه انقلاباً شديداً وكثرت ثوراتهم فى كل الأقاليم التى يسكنونها ، وأشهر هذه الثورات تلك التى نشبت فى إشبيلية بقيادة عبد الغفار اليماني ثم حيوة من ملامس الحضرمي وتمكن عبد الرحمن من القضاء على هذه الثورة عام ١٤٤هـ / ٧٦١م وإن لم يكن ذلك بصورة نهائية.

ثالثاً : ثورات موالية للعباسيين : لم يكن من الطبيعي أن يغفل خلفاء بنى العباس عن الأندلس أو أن يسمحوا لأحد أعدائهم بالاستقلال بهذه البلاد بعيداً عن سلطتهم وحال بعد هذه البلاد دون إرسالهم جيوشاً لإعادتها إلى سيادتهم وسلطانهم ومن ثم عمدوا إلى تدبير المؤامرات وتأليب الناس وإشعال الثورات ضد عبد الرحمن الداخل.

وأخطر هذه المحاولات العباسية هي المحاولة التى مثلها أبو العلاء ابن مغيث اليحصبي أو الحضرمي الذى ثار فى منطقة باجة بشرقي الأندلس ودعا إلى الخليفة أبى جعفر المنصور العباسى ورفع العلم الأسود وذلك في عام ١٤٦هـ / ٧٦٢م ، وانتشرت ثورة أبى العلاء حتى أصبحت خطراً جسيماً يهدد سلطة عبد الرحمن الداخل فى الأندلس.

خرج عبد الرحمن الداخل للقاء أبى العلاء فى قواته عند بلدة قرمونة ما بين قرطبة وإشبيلية، وحوصر فى هذه البلدة حصاراً شديداً حتى أصبح قاب قوسين أو أدنى من الهزيمة وكاد اليأس أن يأخذ بألبابه، وحين ركن الأعداء إلى النصر الوشيك إستجمع عبد الرحمن الداخل وأصحابه قوتهم، وجردوا سيوفهم وحرقوا أغمادها ، وخرجوا من حصارهم فى هجمة قوية شرسة تمكنوا خلالها من أخذ عدوهم على غرة وتمزيق صفوفه،

واستمروا فى قتالهم حتى هزم أبو العلاء وتمزق جيشه، وقتل من جنده جمع عظيم على رأسهم صاحب الثورة نفسه وكبار قادته ولقد أسرف عبد الرحمن الداخل فى الانتقام منهم، فحمل رؤوسهم إلى القيروان وإلى غيرها من المدن فارتاع الناس وزاد خوفهم من عبد الرحمن الداخل.

ولم يكتف عبد الرحمن بذلك النصر بل وضع رأس أبى العلاء فى سفط ومعها اللواء الأسود، لواء بنى العباس، وأرسله مع بعض ثقاته إلى مكة حيث كان المنصور، الخليفة العباسى، يؤدى فريضة الحج عام ١٤٧ هـ / ٧٦٣م، فألقيت الرأس فى طريقه وحملت إليه فحزن على ما حدث لواليه وقال الحمد لله الذى جعل بيننا وبين هذا الشيطان بحراً.

كان للعباسيين ضلع فى مشكلة عويصة أخري تعرض لها عبد الرحمن الداخل كثيراً ما يطلق عليها المؤرخون وصف «المؤامرة الثلاثية» نظراً لثلاثية الأضلاع التى قامت عليها، وتتلخص فى اتفاق ضمنى بين العصاة في شمال الأندلس ويمثلهم سليمان بن يقظان الأعرابى حاكم برشلونه وحسين بن يحيى الأنصارى حاكم سرقسطة، وعبد الرحمن بن حبيب الفهرى حاكم تدمير وبين الخليفة العباسى محمد المهدى بن المنصور (١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٧٥ - ٧٨٥) وبين ملك الفرنجة فى فرنسا شارلمان بن بيبين والذى كان على علاقة طيبة مع العباسيين.

بدأت هذه المؤامرة الصعبة فى حدود عام ١٦١ هـ وما يليها، وكانت خطتها الأساسية أن تتقدم جيوش الفرنجة من الشمال إلى مدينة سرقسطة حيث تم الاتفاق على تسليمها لشارلمان، وفى نفس الوقت يعبر عبد الرحمن بن حبيب الفهرى إلى شرق الأندلس وينزل بجيوشه فى مدينة

تدمير، وبهذا يطوقون عبد الرحمن الداخل ويبددون جهوده وإذا تم لهم النجاح فإنهم يعلنون البلاد للخليفة العباسى الحاكم الشرعى وخليفة المسلمين عامة.

كانت المؤامرة محكمة التدبير، ولقد نهض عبد الرحمن الداخل لمواجهتها قبل استكمال حلقاتها، وانفرد بأعدائه قبل أن يتوحدوا عليه، فاتجه بكل قواه إلى ابن حبيب فى شرق الأندلس وتمكن من هزيمته وأحرق أسطوله، واستغاث ابن حبيب بحليفه سليمان الأعرابى الذى تردد فى انجاده بحجة عدم وصول قوات الفرنجة، ومن هنا نجح عبد الرحمن فى القضاء على أحد أضلاع مثلث المؤامرة، وكان عليه أن يتفرغ للقاء الآخرين وذلك فى عام ١٦٢هـ / ٧٧٨م.

أرسل عبد الرحمن جيشاً إلى الشمال الأسبانى للقضاء على ثورة سليمان الأعرابى فى سرقسطة بقيادة ثعلبة بن عبيد الجزامى، لكن الجيش هزم وأسر قائده، الذى حمله سليمان بن يقظان الأعرابى رهينة إلى شارلمان وهو يحثه على غزو الأندلس.

يمكن الإشارة إلى نقطة مهمة ترتبط بعلاقة دولة الإسلام فى الأندلس بجارتها المملكة الفرنجية، ونعنى بذلك حرص مملكة الفرنجة على إضعاف الدولة الإسلامية فى الأندلس يحركها هاجس الفتوحات الإسلامية، والزحف الإسلامى العظيم على بلاد الأندلس وجنوب فرنسا، ومعارك المسلمين الحاسمة فى تلك الديار، ومن ثم عمد الفرنجة باستمرار إلى انتهاز الفرص والعمل بكل الوسائل لبسط سيطرتهم على شمال شبه الجزيرة الأيبيرية كنوع من الحماية لجنوب فرنسا ووسيلة لانتزاع أملاك

الدولة الإسلامية- ومن ثم جاءت دعوة ثوار الأندلس لهم بالهجوم على الشمال الأندلسى مناسبة ووجد الفرنجة فى ذلك مبرراً لفرض سيطرتهم على بعض الأقاليم الشمالية من بلاد الأندلس.

بدأ شارلمان هجومه على الأندلس فى حدود عام ١٦٢هـ / ٧٧٨م حيث عبر جبال البرتات بجيشين كبيرين يقود أحدهما بنفسه مستولياً فى طريقه على مدينة بنبلونة البشكنسية، كما قام الجيش الآخر بالاستيلاء على إقليم جرندة فى الشمال الشرقى، والتقى الجيشان أمام أسوار مدينة سرقسطة غامضة الثغر الأعلى الأندلسى.

خلال تلك التطورات الحاسمة دب الخلاف بين المتمردين الأندلسيين وامتنع يحيى بن الحسين الأنصارى والى سرقسطة عن مجاراة سليمان الأعرابى فرفض تسليم مدينة سرقسطة وأغلق أبوابها واستعد للدفاع عنها.

عجز جيش الفرنجة عن اقتحام المدينة وأوجس شارلمان ريبة فى نوايا سليمان الأعرابى وتبين بوضوح فشل مشروعه، فرفع الحصار عن المدينة وقبض على الأعرابى وارتد آثاره عائداً إلى فرنسا فخرب كل ما وجده فى طريقه من مدن، وبدأ فى عبور جبال البرتات، وهنا حدث تحالف بين أبناء سليمان الأعرابى وقواتهم وبين البشكنس للانتقام من شارلمان وقاموا بمهاجمة مؤخرة جيش الفرنجة بقيادة الأمير رولان ابن أخ شارلمان حتى تمكنوا من القضاء عليها نهائياً وقتل قائد المؤخرة، وأصبح مقتله أساساً صاغ الأدب الفرنسى أنشودته الجميلة المعروفة بأنشودة رولان

والتى تحكي قصة هذه الغزوة الفاشلة وبذلك انتهت هذه المؤامرة الثلاثية وتخلص عبد الرحمن الداخل من خطر حقيقى كبير.

رابعاً : ثورات عائلية : إلى جانب هذه المشاكل الصعبة واجه عبد الرحمن الداخل معارضة من داخل الأسرة الأموية ذاتها حيث دبر أحد أولاد أخيه ويدعى المغيرة بن الوليد بن معاوية مؤامرة لعزل عمه فى سنة ١٦٨هـ / ٧٨٤م اشترك معه فيها بعض أبناد الصميل ولكن الداخل أحيط علماً بالمؤامرة ونجح فى إحباطها.

خامساً : ثورات بربرية : كانت هذه الثورة من الصعوبة بمكان حيث تزعم البربر من إدعى أنه من نسب فاطمة الزهراء إبنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسمى بعبد الله بن محمد، وكان قبل ذلك معلماً للأطفال ويدعى «شقيا بن عبد الواحد المكناسى واستمرت هذه الثورة من عام ١٥١هـ / ٧٦٨م إلى عام ٧٦٨هـ / ٧٧٧م.

جرد عبد الرحمن الداخل عدة جيوش للقضاء على هذه الثورة لكنها فشلت جميعها فى ذلك حتى اضطر عبد الرحمن الداخل إلى اللجوء إلى أسلوب الاغتيال والمؤامرة حتى نجح فى ذلك، ويرى بعض المؤرخين في ذلك أول محاولة لإقامة دولة شيعية فى الأندلس خاصة وفي المغرب الإسلامى عامة.

وكان نجاح عبد الرحمن فى مواجهة هذه الصعاب والمشاكل وتمكنه من القضاء عليها، ونجاحه فى وضع أسس دولة له ولأبنائه من بعده هي التي حدت بأعدائه إلى الاعتراف له بالجرأة والشجاعة حتى أسماه أكبر

أعدائه فى ذلك الوقت الخليفة أبى جعفر المنصور بصقر قريش وهو اللقب الذى عرف به فى التاريخ الأمير عبد الرحمن بن معاوية.

وحصر عبد الرحمن السلطة السياسية فى يده مع اتخاذه مستشارين مخلصين ساعدوه مساعدات قيمة.

جهود الداخل الحضارية :

على الرغم من هذه المشاكل الصعبة والتى قضى الداخل زهرة عمره فى مواجهتها والقضاء عليها إلا أن هناك صفحة أخرى مشرقة تسجل لعبد الرحمن الداخل بمداد من فخار وأقصد بها أعماله الحضارية.

كان نجاح الأمير الأموى فى إصلاح الجانب الإدارى هو الأساس الذى قامت عليه الحضارة الأندلسية، فقد اتبع الأمير سياسة عملية بعدت به عن الزهو والخيلاء فلم يتخذ ألقاباً كبيرة واكتفى بلقب الإمارة فقط وعمل على تكوين جيش أندلسى أصبح هو قائده الأعلى وعين حكاماً للمدن وأوجد منصب قاضى الجماعة فى المدينة ونقل الكثير من النظم الإدارية الأموية فى المشرق إلى الأندلس.

أما النجاح الأكبر لعبد الرحمن الداخل يتمثل فى النهوض بالعاصمة قرطبة وعنى بها أكبر عناية فحصنها وزينها بالمنشآت الفخمة والرياض اليانعة الجميلة، وكان أول ما أنشأ بها مدينة الرصافة تشبهاً برصافة جده هشام فى دمشق. وأنشأ بها قصراً فخماً تحيط به حدائق زاهرة. وجلب إليها مختلف الغروس والبذور من الشام وافريقية وأودعها ما أحضره رسله من هذه البلاد من غرائب الشجر وكرائم الغرس وتعهد ذلك

كله بالرعاية والعناية حتى نمت هذه الأشجار والبذور وأصبحت جنان الرصافة مضرب الأمثال، ومظهر التقليد فى كل أنحاء الأندلس وكان النخيل والرمان أبرز ما تم غرسه فى هذه البلاد مما أوتى به من بلاد المشرق.

وأقام الأمير فى هذه المنية قصراً أبدع فى تشييده، وتأنق فى زخرفته سماه قصر الدمشق وصفه الشاعر الأندلسى ابن عمار بهذه الأبيات

كل قصر بعد الدمشق يذم   فيه طاب الجنى ولذ المشم

منظر رائق وماء نمير   وثرى عاطر وقصر أشم

بت فيه والليل والفجر عندى   عنبر أشهب ومسك أحم

وبجهود الأمير عبد الرحمن الداخل بدأت قرطبة خطواتها الواسعة نحو التقدم والرقى فإزداد عمرانها، وحسنت مبانيها، وكثرت حماماتها وأزهرت رياضها وبساتينها، وأراد الداخل أن يجعل منها صنوا لدمشق جمالاً ورفعة، ومن أجمل ما أقام بهذه المدينة مسجدها الجامع الذى غدا من أشهر مساجد المسلمين عامة والغرب الإسلامى خاصة.

قام المسلمون فى أيام الفتح الأولى بمشاركة نصارى المدينة فى كنيستهم الواقعة فى وسط قرطبة فإقتسموها معهم وتركوا لهم نصف الكنيسة لممارسة شعائرهم الدينية واتخذوا النصف الآخر لهم مسجداً يؤدون فيه صلواتهم، وقام التابعى حنش الصنعانى رضوان الله عليه بتوجيه قبلته، وصلى فيه ومن معه من التابعين وجنود المسلمين، وظل

هذا الوضع قائماً طيلة عصر الولاة وحتى سنوات عديدة من حكم الأمير عبد الرحمن بن معاوية.

ومع هذه التطورات السياسية والحضارية والعمرانية لمدينة قرطبة على عهد الداخل واتساع انتشار الإسلام ضاق المسجد القديم بجموع المصلين، فشرع الأمير عبد الرحمن فى بناء مسجد كبير يتناسب ومكانته ومكانة عاصمته، ومن ثم بدأ فى مفاوضة نصارى قرطبة في شراء نصف الكنيسة الذى بقى فى أيديهم ليضمه إلى مسجد المسلمين، وقبل النصارى ذلك بعد أن أوسع لهم البذل وفاء بالعهد الذى صولحوا عليه وعلى شرط أن يباح لهم بناء كنيستهم التى كانت بخارج سور المدينة، وقام الأمير المسلم بهدم المسجد القديم وشطر الكنيسة وشرع فى بناء المسجد الجامع، وأنفق على البناء أموالاً طائلة حتى جاءت فى أساسها رائعة فى جمالها يقول عنها دحيه بن محمد البلوى من قصيدة طويلة:

وأنفق فى ذات الإله ووجهه ثمانين ألفا من لجين ومسجد

توزعها فى مسجد أسه التقى و منهجه دين النبى محمد

ترى الذهب الناري فوق سموكه يلوح كبرق العارض المتوقد

استغرقت عمارة المسجد سنوات، وجاء عمرانه متأثراً بصورة واضحة بنظام المعمار فى بلاد الشرق سواء فى زخارفه أو في نظام عقوده المزدوجة وسقفه ووضع المئذنة وكذلك فى تصميم مجنباته حول الصحن، كما يبدو التشابه واضحاً فى عقود الجامع المتعاقدة على جدران القبلة

بنظائرها فى المسجد الأقصى، وربما استعان الداخل في عمله هذا بعمال وعرفاء شاميين، ومع ذلك لم يكمل الداخل بناء المسجد وأتمه من بعده ابنه الأمير هشام الرضى.

جانب آخر من جوانب عظمة عبد الرحمن الداخل ساهم في الرقى الحضارى بالأندلس وهو ما تمتع به من موهبة شعرية وحس أدبي فكان أميراً سمحاً كريماً شاعراً جيد النظم، ناثراً فصيح البيان قوي الترسل، عالما بالشريعة، من أعظم أمراء بنى أمية مكانة في البلاغة والأدب، جاءت توقيعاته ورسائله إلى عماله وولاته على درجة عالية من الإيجاز والتعبير كما كان شعره معبراً عن تلك الحاسة الأدبية الرائعة التى تمتع بها. ولقد نقلت لنا كافة المصادر والدراسات الأدبية أبياتا من شعره غاية فى الروعة والجمال ومنها قوله فى نخلة رآها فى الرصافة

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة

تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت شبيهى فى التغرب والنوى

وطول التنائى عن بني وعن أهلي

نشأت بأرض أنت فيها غريبة

فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

سقتك غوادي المزن من صوبها

الذى يسح ويستمري السماكين بالويل

ومن أشعاره الموثرة الباقية على مر الأيام والسنين:

أيهـا الراكـب الميـمّم أرضـى
أقـر من بعضـي السـلام لبعـض

إن جسمـى كما علمـت بـأرض
وفـؤادى ومالكيـه بـأرض

قـدر البـين بيننـا فـافترقنـا
وطـوى البيـن عـن جفوني غمضي

قـد قضـى الله بالفراق علينـا
فعسى باجتماعنا بسوف يقضي

توفى عبد الرحمن الداخل- صقر قريش- سنة ١٧٢هـ/٧٨٧م وهو في الثامنة والخمسين من عمره بعد أن حكم الأندلس ثلاثة وثلاثين عاما تقريباً بعد أن وضع الأساس القوى لدولة عاشت من بعده زهاء ثلاثة قرون.

الأمير هشام بن عبد الرحمن- الرضا- لم يترك الأمير عبد الرحمن الداخل نظاماً معيناً لاختيار الأمير من بعده وكذلك لم يكن الأمير هشام الأكبر فى أولاد الداخل بل كان الأكبر منه أخوه سليمان ولكن المصادر تشير إلى إيثار الداخل لهشام مما كان يرشحه للإمارة من بعده وحين أدركت الوفاة صقر قريش عهد إلى ثالث أبنائه الأمير عبد الله بوصية غريبة وهى أن يسلم مفاتيح القصر وشارات الإمارة لمن يصل

إلى قرطبة أولاً من أخويه سليمان أو هشام وكان سليمان فى طليطلة وهشام فى ماردة ووصل هشام قبل سليمان فسلمه عبد الله الأمر وأدخله القصر وبايعه الناس بالإمارة.

ولد هشام بقرطبة سنة ١٣٩هـ/٧٥٦ن من أم ولد تدعى «حلل» ويجمع المؤرخون على تمتعه بخلال باهرة وأنه رغم ولايته العرش وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره إلا أنه كان عاقلاً حازماً، وافر الشجاعة والعزم كثير العدل والتقوى، جم التواضع والرفق، وكما وصفه ابن عبد ربه، إنه «كان أحسن الناس وجهاً، وأشرقهم نفساً، الكامل للمروءة، الحاكم بالكتاب والسنة، الذى أخذ الزكاة على حلها، ووضعها فى حقها، لم يعرف عنه هفوة فى حداثته، ولا زلة فى أيام صباه... الخ

الصعوبات التى واجهت الأمير هشام:

أول مشكلة واجهت الأمير الجديد هى تمرد أخويه سليمان وعبد الله وكان سليمان أسبق الثائرين لأنه رأى نفسه أولى بالإمارة واتخذ من طليطلة مقر إمارته معقلاً للثورة، وبعد فترة لحق به أخوه عبد الله وحاول الأخوان الإطاحة بأخيهما ولم يتقاعس الأمير هشام فى التصدى لأخويه، وجرت بينهم حروب كثيرة انتهت بهزيمة الأخوين سليمان وعبد الله وإجبارهما على الخروج من الأندلس والإقامة فى افريقية.

تصدى الأمير هشام بعد ذلك لبعض حركات التمرد الداخلية التى قام بها حكام مناطق الشمال الشرقى من شبه الجزيرة وخاصة حكام برشلونه وتمكن من القضاء عليها، وعم السلام كافة أنحاء الدولة، مما أتاح للأمير

القرطبى التفرغ للجهاد ضد نصارى الأندلس وضد ممالك الفرنجة خلف جبال البرتات.

أرسل هشام جيوشاً قوية بقيادة عبيد الله بن عثمان إلى الشمال الغربى من أسبانيا تمكنت من الإيقاع بسكان ألبة والقلاع كما أرسل يوسف من بخت إلى جليقية فلقى الأعداء وهزمهم، وقتل منهم خلقاً كثيراً وأخيراً وادع ملكهم وعاد إلى قرطبة.

وفى سنة ست وسبعين بعد المائة بعث وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث لغزاة العدو فبلغ ألبة والقلاع، فأثخن فى نواحيها، ثم بعثه فى العساكر سنة سبع وسبعين إلى أربونة وجرندة فأثخن فيها، ووطئ أرض برطانية وتوغل عبد الملك فى بلاد الكفر وهزمهم، ثم بعث العساكر مع عبد الكريم بن عبد الواحد إلي ألبة والقلاع سنة ثمان وسبعين، وبعث أخيه عبد الملك بن عبد الواحد إلى بلاد جليقية، فإنتهى إلى أسترقة، فجمع له ملك الجلالقة واستمد بملك البشكنس، ثم خام عن اللقاء، ورجع أدراجه، وتبعه عبد الملك، وكان هشام قد بعث الجيوش من ناحية أخرى، فالتقوا بعبد الملك، فأثخنوا فى البلاد، واعترضتهم عساكر الفرنجة فنالوا منهم بعض الشئ، ثم خرجوا سالمين ظافرين .

وعلى عهد الأمير هشام تجدد صراع المسلمين فى الأندلس مع الفرنجة فى أرض غالة ففى عام ١٧٦هـ/٧٩٢م قام الأمير بالتأهب والاستعداد بجيش كبير تولى قيادته الحاجب عبد الملك بن عبد الواحد الذى قام بعبور جبال البرتات مستولياً على مدينة جرندة ومجموعة من المعاقل

والحصون فى الشمال الشرقى متوجهاً بعد ذلك إلى منطقة سبتمانيا ومنها إلى مدينة أربونة Norbone ، ويصف ابن الأثير هذه الحملات فى أحداث سنة ١٧٧ هـ على النحو التالى :

ومنها سير هشام صاحب الأندلس، جيشاً كثيفاً واستعمل عليهم عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث، فدخلوا بلاد العدو فبلغوا أربونة وجرندة فبدأ بجرندة- وكان بها حامية الفتح- فقتل رجالها، وهدم أوسارها وأبراجها، ثم رحل إلى أربونة ففعل مثل ذلك، وأوغل فى بلادهم، ووطئ أرض شرطانية فاستباح حريمها، وقتل مقاتلتهم، وجاس البلاد شهوراً بخرب الحصون ويحرق ويغنم قد أجفل العدو من بين يديه هارباً، وأوغل فى بلادهم، ورجع سالماً، معه من الغنائم ما لايعلمه إلا الله تعالى، وهى أشهر مغازي المسلمين بالأندلس.

جهود الأمير هشام الحضارية :

قام الأمير هشام بعدة أعمال جليلة منها قيامه بتجديد بناء قنطرة قرطبة الشهيرة والتى سبق أن جدد بناءها السمح بن مالك الخولانى والى الخليفة عمر بن عبد العزيز عن بناء روماني قديم فأحكم هشام بناءها إلى الغاية، وأربي على النهاية، وخشى من أقوال أهل المدينة وإتهامهم إياه بأنه ما بناها إلا ليمضي عليها إلى صيده وقنصه فأقسم ألا يعبر عليها إلا الجهاد أو لقضاء مصلحة ووفى بيمينه .

وكذلك من أعماله الاهتمام بإكمال المسجد الجامع فى مدينة قرطبة، وبنى له مئذنة، وأنشأ عدة مساجد أخرى، وزين قرطبة بكثير من الأبنية والحدائق، واهتم باللغة العربية اهتماماً كبيراً حتى أصبحت لغة التدريس

والحديث بين كافة سكان الأندلس ومنهم النصارى واليهود. وكان ذلك عاملاً مهماً من عوامل نشر الاسلام فى هذه البلاد .

أما أهم الأحداث علي عهد الأمير هشام فتتمثل فى بدء دخول المذهب المالكى إلى الأندلس، وكان عدة من طلاب الأندلس قد رحلوا إلى المشرق ودرسوا على عالم المدينة مالك بن أنس ثم عادوا إلى بلادهم حاملين أفكارهم، وشجعهم الأمير هشام على ذلك حتى غدا مذهب مالك هو الغالب، وقوى نفوذ الفقهاء ورجال الدين، وتربعوا أهم المناصب، وكثر تدخلهم فى شئون الدولة حتى غدوا طبقة متميزة تتمتع بالكثير من السلطة والنفوذ.

توفي الأمير هشام الرضا فى الثالث من صفر سنة ١٨٠ هـ (١٨ ابريل ٧٩٦م) بعد أن حكم نحوا من ثمانية أعوام.

الحكم بن هشام- الربضي - (١٨٠-٢٠٦هـ ٧٩٦/-٨٢٢م) :

ولد الأمير الحكم فى سنة ١٥٤هـ / ٧٧٠م من أم ولد أسبانية تسمى زخرف وهو ثانى أبناء أبيه هشام، ولم ينل الآخ الأكبر عبد الملك الإمارة لسوء العلاقة مع والده هشام، بل كان عبد الملك سجيناً، وتمت بيعة الحكم وسط مظاهر احتفال كبيرة.

اختلف المؤرخون حول شخصية الحكم فكان منهم من يراه شديد الحزم، ماضى العزيمة، عظيم الصولة، حسن التدبير، وأنه كان أفحل أمراء بنى أمية، وأشدهم إقداماً ونجدة وصرامة وألفة وأبهة وعزة...الخ ومنهم من وصفه بأنه كان طاغية مسرفاً في سفك الدماء له آثار سوء قبيحة .

الصعوبات التى واجهت الأمير الحكم :

أول مشكلة واجهت الحكم عقب ولايته الإمارة نجمت عن تحرك عميه عبد الله وسليمان ومحاولتهما الاستيلاء على السلطة فى قرطبة فما أن شعر الأمير عبد الله بن عبد الرحمن الداخل بوفاة أخيه هشام، حتى أسرع بالعودة إلي الأندلس متجهاً أول الأمر إلى مناطق الثغر الأعلى طالبا العون من سكان هذه المناطق، ثم اتج بعد فشله إلى أرض غالة وقابل ملكها، ويقال أنه حثه على مهاجمة الأندلس، ولما لم يحصل على بغيته عاد إلى الأندلس ثم استقر فى مدينة بلنسية طالباً العفو من ابن أخيه الذى صالحه على أن يبقى طوال حياته فى هذه المدينة، واستقدم أبناءه إلى قرطبة حيث خدموا في بلاط ابن عمهم باخلاص، وظل عبد الله ببلنسية حتي مات بها عام ٢٠٨هـ، ولقد عرف بعبد الله البلنسى لطول إقامته بهذه المدينة .

عبر الأمير سليمان بن عبد الرحمن، إلى الأندلس بعد عام من تولي الحكم وحاول حشد كثير من القوات لمقاتلة الحكم، واستغل حالة التذمر بين الناس من الحكم، وواجه قواته عدة مرات دون حظ طيب، وانتهى الأمر بمقتله فى مدينة ماردة، وقام الحكم باكرام جثمانه ودفنه في مدينة قرطبة .

كانت مدينة طليطلة كثيرة التمرد ضد الأمويين لكثرة ما بها من المولدين ولم يكد ينتهى العام الأول من إمارة الحكم حتى تحركت الثورة فى المدينة ولجأ الحكم إلى الحيلة الغادرة للقضاء على هذه الثورة، فاختار لولاية المدينة أحد المولدين المخلصين له، فأنخدع به أهل المدينة، وتظاهر

هذا الوالي بكراهية بنى أمية، وقام ببناء قصبة عظيمة مدعيا أنها ملاذاً لجنده، وانتهز هذا الوالى فرصة مرور الأمير عبد الرحمن، ولى العهد، بطليطلة وأقام فى القصبة حفلاً دعا إليه وجوه أهل طليطلة وزعمائها وكبار رجالاتها، وتمكن من خداعهم بإدخالهم جماعات قليلة لتناول الطعام مبيناً لهم أن طريق الانصراف من باب آخر، ووقف السيافون على شفيرة حفرة داخل القصبة، وأخذوا يتلقون كل من دخل منهم فيقتلونه حتى قتل حوالى خمسة آلاف حتى لانت قناة أهل المدينة وخضعوا لسلطانه مدة طويلة.

أما أخطر الثورات التى واجهت الحكم الربضى فهى المعروفة بثورة الربض الغربي عام ٢٠٢ هـ ٨١٧م.

يرجع السبب فى هذه الثورة إلى ما اتصف به الحكم من حب السيطرة وممارسة شئون الحكم بنفسه مما أغضب فقهاء المدينة الذين فقدوا نفوذهم فتذمروا، وحركوا الناس ضد الحكم، واستخفوا به إلى درجة التعريض به فى المساجد حتى أصبح الجو ملبداً بغيوم كثيفة وينذر بخطر شديد.

وفى رمضان من سنة ٢٠٢ هـ ٨١٨/م احتك أحد فرسان الأمير ببعض العامة فى الربض الغربى فاشتعلت الفتنة، وهج الناس، وهاجموا قصر الإمارة وتطورت الأمور تطوراً خطيراً.

بذل الحكم جهداً فائقاً في مقاومة الثوار، وكان رغم خطورة الأمر ثابت الجنان هادئ النفس، حتى أنه تعطر بأغلى قواريره مما أثار عجب خدمه واهتدى الحكم إلى فكرة جريئة قاسية، فأمر قائده عبيد الله بن

عبد الله البلنسى أن يعبر النهر من مخاضه بعيدة وأن يشعل النار فى مساكن الثوار بالربض، وحين رأى الثوار النيران فى منازلهم أسرعوا لانقاذ أهلهم ومساكنهم، وهنا خرج خلفهم الحكم برجاله فأوقعوا بالثوار وقعة شديدة، وقتل منهم خلقاً عظيماً، وأسرف الحكم في الانتقام حتى أنه صلب أكثر من ثلثمائة رأس فقيه على ضفاف النهر، وأمر بإخراج سكان الربض من الأندلس، وقام بحرث أرض الربض وأبقاها خراباً مدة طويلة.

ونتيجة لكل تلك المشاكل الصعبة فقد قام نصارى الشمال الأندلسي بالإغارة على بلاد المسلمين، فأوغل ألفونسو الثانى، ملك جليقية فى بلاد المسلمين حتى وصل إلى أشبونة ، وأوقع فى تلك النواحى خسائر مادية رهيبة مما اضطر الحكم أن يخرج بنفسه غازياً إلى أراضي ألبة والقلاع، وتوغل فيها، وهزم النصارى في عدة وقائع، وقتل وسبى جموعاً كثيرة. وفي سنة ١٩٥هـ/٨١١م وجه الحكم جيشاً إلى مناطق الشمال الشرقى للأندلس حيث كان الصدام مع بعض حلفاء الفرنجة، وكانت آخر غزوة للحكم فى الشمال فى سنة ٢٠٠هـ/٨١٥م بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد والذى نجح في هزيمة النصارى في موقعة شديدة على ضفاف نهر أرون انتهت بهزيمة النصارى، وقتل عدد كبير منهم، ووقع فى الأسر جماعة من أمرائهم وأكابرهم، وارتد النصارى إلى الداخل، واعتصموا بالوهاد والربى، وعاد الحاجب إلى قرطبة ظافراً .

ولم يضيع الفرنجة من أرض غالة الفرصة فقام ملكهم لويس ابن شارلمان بغزو مناطق الثغر الأعلى، وحاصر مدينة طرطوشة فى سنة

١٩٢هـ، وبعث الحكم جيشاً كثيفاً إلى الشمال بقيادة ولده عبد الرحمن وارتد الفرنجة إلى أراضيهم، ثم عادوا إلى حصار طرطوشة فى العام التالى بقيادة لويس أيضاً، وعاد المسلمون إلى قتالهم بقيادة عبد الرحمن، ومعه قواد الثغر الأوسط والأعلى، ونشبت بين المسلمين والفرنجة عدة وقائع انتهت بهزيمة الفرنجة، وإنقاذ طرطوشة وذلك فى سنة ١٩٣هـ٨٠٩/م.

كان الأمير الحكم أول من أظهر فخامة الملك بالأندلس، وأنشأ بلاطاً أموياً إسلامياً بكل معانى الكلمة حيث رتب نظمه ورسومه، وأقام له بطانة فخمة، واستكثر من الموالى والحشم، واتخذ الحرس الخاص، واهتم بالصقالية وتربيتهم، واتخاذهم فيما بعد حرساً شخصياً للأمير.

كما كان الحكم خطيباً مفوهاً، وشاعراً كبيراً، ورغم قسوته بل وفظاعته فى بعض الأحيان نجد له شعراً رقيقاً جميلاً، ومن هذا الشعر قوله فى جاريات له تأبين عليه:

قضب من البان ماست فوق كثبان
وولين عني وقد أزمعن هجرانى

ناشدتهن بحقى فاعتزمن على
العصيان لما خلا منهن عصيانى

ملكنني ملكاً ذلت عزائمه
للحب ذل أسير موثق عاني

من لي بمغتصبات الروح من بدني
ملكنني فى الهوى عزي وسلطاني

ويرى الأستاذ محمد عبد الله عنان- رحمه الله- أن عصر الحكم، بالرغم مما غشيه من الاضطرابات والفتن، عصراً ازدهرت فيه الآداب والعلوم، وظهر فيه عدد جم من أكابر الكتاب والشعراء والعلماء، وكان في مقدمتهم شاعر الحكم الأثير لديه وقطب الشعر فى عصره، عباس بن ناصح الثقفى الجزيرى، وغيره كثيرون.

ومرض الحكم الربضى فى أواخر أيامه، ومات فى نهاية عام ٢٠٦هـ/ ٨٢١م.

عبد الرحمن بن الحكم- الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ ٨٢١/-٨٥٢م):

ولد الأمير عبد الرحمن فى مدينة طليطلة سنة ١٧٦هـ٧٩٢/ من أم ولد تدعى «حلاوة»، وعنى أبوه بتربيته تربية عالية، وكان الابن عند حسن ظن أبيه فشغف منذ صغره بالأدب والحكمة، ودرس الحديث والفقه، وكان نتاج هذه التربية أن أصبح الأمير وافر الخبرة والكفاية، عالماً بشئون الإدارة، متفهماً لأمور الدولة، وكان وسطاً بين أبيه الحكم وجده هشام فجمع بين الرفق والقوة، والإناة والحزم، وصل إلى سدة الحكم وهو فى الحادية والثلاثين من عمره.

الصعوبات التى واجهت عبد الرحمن الأوسط :

إمتدت ولاية الأمير الأوسط إلى فترة طويلة ومن ثم أتيح لهذه الفترة أن تشهد كثيراً من الصعوبات والانجازات، ومن أهم الصعوبات ما يلى:

ثورة الأمير عبد الله البلنسى بن عبد الرحمن الداخل والذى لم تنسه السنوات حلمه فى الجلوس على عرش الإمارة القرطبية، ورغم أن أبناءه

كانوا يشغلون مراكز مرموقة فى البلاط القرطبى، إلا أن الأمير عبد الله قد تمكن من حشد جيوش كبيرة احتل بها كورة تدمير وأزمع الزحف على قرطبة العاصمة لكنه لم يتمكن من تحقيق انتصارات عسكرية، وتوسط له بنوه عند عبد الرحمن ليعود عبد الله البلنسي إلى بلنسية حيث مالبث أن أسلم روحه هناك عام ٢٠٨هـ/٨٢٣م.

تزعمت طليطلة الثورة كما هي العادة بقيادة أحد أبنائها ويدعى هاشم الضراب وذلك عام ٢١٤هـ/ ٨٢٩م، فأرسل لها الأمير حملة بقيادة محمد بن رستم حيث تمكن بعد صعوبات جمة من هزيمة الثوار وقتل هاشم الضراب.

لم تهدأ طليطلة، وأرسل لها عبد الرحمن جيشاً آخر بقيادة أخيه أمية ابن الحكم- ثم خرج إليهم بنفسه عام ٢٢٠هـ ثم في العام التالي أرسل حملة بقيادة أخيه الوليد بن الحكم الذى ضرب حولها الحصار الصارم، واستمر على هذا الحصار حتي جهد أهلها، وضاقوا ذرعاً بالحصار، وتمكن الوليد من اقتحام الأسوار وإخضاع المدينة الثائرة وذلك فى رجب ٢٢٢هـ / ٨٣٧م .

كانت مدينة ماردة هى الأخرى معقلاً لعدد من الثورات تزعمها محمود بن عبد الجبار الذي تمكن من بسط سلطانه على باجة، ولما فشل فى مواجهة ضغوط الجيوش الأموية هرب محمود وأخته إلى جليقة مستجيراً بملكها ألفونسو الثانى الذى رحب به وأكرمه، ثم حدث خلاف بينهما أدى إلى القتال بين الثائر وحليفه انتهي بمقتل محمود وأسر أهله وأصحابه.

وهناك ثورة داخلية أخرى تزعمها موسي بن موسى بن قسى والى تطيلة من أعمال الثغر الأعلى حيث خرج عن الطاعة وتحالف مع غرسية أمير مملكة نافار وتمكن هؤلاء من الإيقاع بجند الأمير، وعاثا خرابا فى أنحاء الثغر الأعلى وذلك فى سنة ٢٢٦هـ/٨٤١م مما دفع بعبد الرحمن الأوسط إلى مهاجمة بلاد البشكنس، والتوغل فيها، وسبى كثير من أهلها. واستمرت ثورات بنى قسي فى الشمال الشرقى الأندلسى سنوات طوال رغم الهزائم القاسية التى ألحقها بهم عبد الرحمن الأوسط وبحلفائهم النافاريين.

تمرد النصارى فى قرطبة :

واجهت الأندلس على عهد عبد الرحمن الأوسط مشكلة عويصة تتمثل فى تطرف عدد من نصارى قرطبة تطرفاً أعمى ضد الإسلام والمسلمين، وجهروا بكراهيتهم للإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام، وقاموا علناً بسبب رسول الله عليه السلام وشتم الإسلام عمداً وعلناً أمام المسجد الجامع وأمام القاضي ونجم عن ذلك فتنة عمياء فى مدينة قرطبة.

لم يكن أمام القضاة المسلمين من سبيل إلا تطبيق الشرع ضد هؤلاء المتطرفين وحكموا بإعدامهم، مما زاد فى أعداد الناقمين من النصارى وتصوروا أن فى قيامهم بسب الرسول والإسلام شجاعة وأن فى تعرضهم للموت استشهاداً، وشجعهم القساوسة علي ذلك، واشتملت أعدادهم على بعض الفتيات والنساء.

واجه الأمير عبد الرحمن الأوسط بأن دعا زعماء النصارى لمعالجة هذا الموضوع، فعقدوا مؤتمراً سنة ٢٣٨هـ /٨٥٢م قرروا فيه رفض هذه الأعمال، ونصحوا رعاياهم بعدم الرضى عنها والإقلاع عن فعلها ، وظلت هذه المشكلة قائمة إلى أن تلاشت تدريجياً ، وانتهت تماماً على أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن. وكم كانت هذه الحركة غريبة ومتناقضة مع روح التسامح التى سادت العالم الإسلامي وتمتع بها كثيراً كل من النصارى واليهود وغيرهم من أهل الذمة.

جهاد عبد الرحمن ضد الممالك النصرانية شمال الأندلس:

اهتم الأمير مبكراً بالجهاد ضد نصاري الشمال فأرسل حملة فى صيف ٢٠٨هـ / ٨٢٣ م بقيادة الحاجب عبد الكريم إلى ألبة والقلاع لتأديب ألفونسو الثانى ملك جليقية، وتمكنت الجيوش الإسلامية من هزيمة القوات النصرانية فى أكثر من موقعة، وأجبرتهم على دفع الجزية ، وعادت الجيوش الإسلامية إلى قرطبة مظفرة، ومالبث القائد أن أسلم الروح عام ٢٠٩هـ/٨٢٤م وفقد الإسلام والمسلمين قائداً عسكرياً محنكاً.

شغلت الثورات الداخلية عبد الرحمن الأوسط عدة سنوات لكنه عاد إلى مواصلة الجهاد وإرسال الحملات إلى الشمال وإلى أطراف الثغر الأعلى، وقد تولى بنفسه صائفة ٢٢٥هـ / ٨٤٠ م وكذلك فى سنة ٢٢٧هـ / ٨٤٢ م، وفي عام ٢٢٨هـ خرج بنفسه زاحفاً على بلاد البشكنس حيث التقى مع ملكها غرسية فهزمه هزيمة شديدة، وتمكن عبد الرحمن من بلادهم فأثخن فيها وخربها، واضطرهم إلى طلب الصلح

والأمان وظلت غزوات عبد الرحمن وجيوشه إلى جميع مناطق الشمال الأسبانى، طيلة عهده، وتمكنت هذه الحملات من اقرار سلطان المسلمين على هذه الأجزاء.

الصراع مع الفرنجة :

ظل الفرنجة على سياستهم فى التدخل فى شئون الأمة الإسلامية فى الأندلس، وخاصة فى مناطق الشمال الشرقى وحول مدينة برشلونه، ولقد هاجم الفرنجة مناطق البشكنس فى عام ٢٠٩هـ / ٨٢٤ م مما دعا إلى التحالف بين البشكنس والمسلمين حيث تمكنوا من إيقاع هزيمة قاسية بالفرنجة فى أحواز مدينة بنبلونة فى سفح جبل البرنيه عند باب شيزار، وهو نفس المكان الذى نكبت فيه جيوش شارلمان من قبل.

اتخذ الصراع مع الفرنجة بعد ذلك طابعاً بحرياً حيث أصبح للمسلمين أسطولاً يغير على شواطئ فرنسا الجنوبية ويلحق بها الأذى.

الصراع مع النورمان :

تعرضت بلاد الأندلس على عهد عبد الرحمن الأوسط لغارات غير متوقعة اكتسحت شواطئها الغربية وجاءتها فجأة من المحيط الأطلنطى، قامت بها جماعات غير منظمة أطلق عليهم المؤرخون المسلمون اسم «المجوس أو «الأردمانيون»، جاءت إلى شواطئ الأندلس فى مراكب ذات حجم صغير.

وأهم تلك العمليات النورماندية هى التى قاموا بها على شواطئ مدينة أشبونة فى عام ٢٢٩هـ / ٨٤٤ م حيث تصدى لهم عامل المدينة

وهب الله بن حزام والذى كتب بذلك إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط، ثم اتجه الأوردمانيون إلى الجنوب حيث مصب نهر الوادي الكبير فدخلوا فيه بمراكبهم ووصلوا إلى أشبيلية فدمروها تماماً واستولوا عليها، ومن أشبيلية نزلوا إلى البر وبدأوا فى الاستعدادات لغزو العاصمة الأندلسية قرطبة، وذلك فى عام ٢٣٠هـ .

أسرع عبد الرحمن الأوسط بإرسال الجيوش إلى أشبيلية ولكى تتصدى لتلك الغارات المفاجئة على القرى والبلاد الواقعة على ضفاف نهر الوادى الكبير ونجحت الجيوش الإسلامية فى مطاردة الغزاة، وأنزلت بهم هزيمة مروعة عند قرية طلياطة، أدت إلى فرار النورمان بعد أن خلفوا أعداد كبيرة من القتلى والأسرى، ومع ذلك لم ينته خطر هؤلاء على الأندلس ولذلك كان على الأمويين فى الأندلس بذل الجهود المناسبة لحماية الثغور الغربية لمنع تكرار هذه الغارات المدمرة- وتجلت هذه الجهود فى إقامة سلسلة من الحصون والقلاع على مصبات الأنهار، والاهتمام بالأسطول وإيجاد قطع منه فى المناطق الغربية- ويذكر ابن حيان بأن عبد الملك بن حبيب- عالم الأندلس- قد كتب إلى الأمير عبد الرحمن بضرورة تحصين أشبيلية، مطالباً إياه ببناء سور المدينة وأن ذلك أوكد من الاهتمام بزيادة المسجد الجامع في مدينة قرطبة فعمل برأيه فى بناء سور أشبيلية ولم يثن ذلك عزمه عن بنيان الزيادة فى المسجد،فأعطى كلاً منهما بقسطه من ارهاق العزيمة والسخو بالنفقة إلى أن كملا معا كما أراده .

العلاقات الدبلوماسية لعبد الرحمن الأوسط :

كانت الحروب مع تلك الجماعات المتنوعة من الفرنجة ودول الشمال الأندلسى والنورمان حافزاً لعبد الرحمن الأوسط لانتهاج ديبلوماسية تعزز أمن بلاده ووضعها بين القوى العالمية فى ذلك الوقت. وبدأت هذه الإتصالات السياسية بايفاد السفير العربي الفذ الشاعر يحيى بن الحكم الغزال لزيارة مملكة النو رمان وأرسل معه شخصاً يدعى يحيى بن حبيب ورحل الغزال إلى بلاد النورمان فى رحلة أسهبت كتب الأدب فى وصف ما لقبه السفير من ترحيب، والعلاقات التى نشأت بينه وبين ملك النورمان وزوجته والخطاب الذى أرسله ملك النورمان إلى ملوك جليقية توصية بالسفير العربى المسلم يحيى بن الحكم الغزال .

وفى سنة ٢٢٥هـ / ٨٤٠ م وفد على قرطبة سفير من قبل الإمبراطور البيزنطى «توفلوس» ومعه كتاب وهدية فخمة، فاستقبله عبد الرحمن بحفاوة، وقد رد الأمير على السفارة البيزنطية بأن أوفد إليه صديقه وسفيره يحيى بن الحكم الغزال إلى القسطنطينية حاملاً رسالة وهدية إلى الإمبراطور، ولقى الحكم فى هذه العاصمة ترحيباً كبيراً، وأدى الغزال سفارته على أحسن ما يكون ثم عاد إلى قرطبة بعد عدة أشهر .

شهدت بلاد الأندلس خلال هذا العصر تطوراً حضارياً كبيراً ساهمت فيه المؤثرات الحضارية العراقية، فأنشأ الناس القصور الجميلة وأثثوها بفاخر الأثاث والمتاع، ووفدت على الأندلس طرائف الجواهر والحلى والآنية والرياش وكانت بغداد مصدراً مهماً لتزويد الأندلس بأغلى

الأصناف وأعجبها، كما وفدت على الأندلس المغنيات والمعلمات والجوارى الشرقيات، وسادت موجة من الترف، وأخذت قرطبة فى التجمل حتى غدت أجمل مدائن غرب العالم الإسلامى .

اهتم الأمير عبد الرحمن الأوسط بالمنشآت والمبانى، ومن أهم أعماله الزيادة فى المسجد الجامع حيث أضاف إليه سبع بلاطات من ناحية الجنوب، كما نقل محراب المسجد إلى الإضافة التى بناها، كما أنه رفع سقف المسجد إلى ارتفاع مناسب حتى غدا المسجد بعمارته نموذجاً رائعاً فريداً وإلى جانب مسجد قرطبة بنى الأمير عدة مساجد فى أنحاء البلاد ومنها مسجد عدبس فى أشبيلية ويجمع المؤرخون على أن البلاط الأموى فى قرطبة قد وصل إلى درجة لم تسبق من البهاء والروعة، وبدت الطبقة العربية الراقية فى أبدع مظاهرها، وسطعت الفروسية الأندلسية، وتجلت خلالها البهرة حتي غدت مثلاً يحتذى فى مجتمعات العصور الوسطى.

ومن أهم التنظيمات الإدارية التى اهتم بها عبد الرحمن الأوسط خطة الوزارة والوزراء حيث جعل لهم بيتاً ضمن قصر الإمارة يجلسون فيه ويستدعيهم الأمير كلما احتاج لمشورتهم، كما نظم أرزاقهم والتى قدرت بـ ٣٥٠ ديناراً فى الشهر. وكان من وزرائه عدة من أعظم وألمع رجالات عصره مثل الحاجب عبد الكريم وهاشم بن عبد العزيز، وعبد الواحد بن يزيد الاسكندرانى .

وإلى جانب الوزراء والقادة حفل عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط بمجموعة من كبار الفقهاء والعلماء منهم عبد الرحمن بن حبيب، وعبد

الأعلى بن وهب، وعيسى بن دينار وبقي بن مخلد، ومحمد بن وضاح ويحيى بن يحيى الليثى والذى عرف باسم عاقل الأندلس أسماه بذلك الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه.

ومن الأسماء التى لمعت فى عصر عبد الرحمن الأوسط أبو الحسن على بن نافع الملقب بزرياب، وكان مغنياً تربى فى بلاط هارون الرشيد على أيدى اسحق الموصلى ثم خرج إلى الأندلس إبان الفتنة، ولقى هناك إكراماً لا مثيل له، ولقد رد زرياب إلى الأندلسيين جميلهم، وكان له دور فى الرقى بالذوق الفنى والحضارى للأندلسيين.

وبالإضافة إلى يحيى بن الحكم الغزال، وعباس بن فرناس نشير إلى الأسقف قومس بن أنطونيان عامل أهل الذمة، وكان أديباً بارعاً، وكان مقتدراً مما يدل على تمتع أهل الذمة بالرعاية وتضلعهم فى اللغة العربية وآدابها.

واستكثر عبد الرحمن من الجوارى الحسان، وكان كلفاً شديد الشغف بهن، واجتمعت لديه مجموعة منهن، واشتهرت بينهن طروب أم الأمير عبد الله والتى أصبح لها نفوذ شديد فى تسيير الأمور حتي وصل بها الطموح إلى قتل الأمير نفسه وتولية إبنها مكانه، وعهدت إلى الفتى نصر صاحب النفوذ القوى فى البلاط، لكن الله سلم ونجا الأمير ومع ذلك لم يتغير من قبل جاريته، وهو القائل فيها:

إذا ما بدت شمس النهار   طالعة ذكرتنى طروبا

وكان عبد الرحمن أديباً حسن التثقيف، وكاتباً بليغ البيان عالماً بالشريعة والحكمة، مجيداً للنظم، نصيرا للعلوم والآداب، اعتبره

المستشرقون بسجاياه وطباعه، ووصف بعضهم عصره بالسلام الطويل والإزدهار العظيم. وأوردت كتب الأدب الأندلسى نماذج طيبة من شعره .

توفى الأمير عبد الرحمن الأوسط فى ربيع الآخر من سنة ٢٣٨هـ/سبتمبر٨٥٢م وخلفه من بعده ابنه الأمير محمد.

الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ٢٣٨-٢٧٣هـ٨٥٢-٨٨٦م:

تجمع المصادر التاريخية على ماتمتع به الأمير محمد من سجايا طيبة يجملها ابن القوطية بقوله أنه كان من أهل الأناة، وقلة العجلة، والتنزيه عن العقوبة، مكرماً لاعلام الناس من أهل العلم والموالى، والأجناد، متخيراً لعماله...، ولذلك رشحه أبوه للإمارة من بعده رغم أنه لم يكن أكبر أبنائه.

ولقد واجهت الأمير محمد منذ بداية ولايته مشاكل كبيرة على الرغم من الهدوء الذى ساد بلاد الأندلس فى أواخر أيام أبيه، فثار أهل طليطلة كالعادة، وأسروا عامل الأمير عندهم، واستعانوا بالنصارى واستمرت ثورة المدينة سنوات طويلة يتبادلون النصر والهزيمة مع جند الأمير حتى انتهى الأمر بتمكن الأمير منهم وهدم أسوار المدينة وحصونها وأصاب أهلها الكثير من المصائب.

كما تحركت الثورة فى الثغر الأعلى وتزعمها بنو قسى الذين ظلوا ردحاً طويلاً من الزمن يحاربون إمارة قرطبة حينا ويصالحونها حيناً آخر ويستمدون كثيراً من العون من جيرانهم نصارى الممالك الشمالية ولم

يقتصر الأمر على هذين الإقليميين، لكن غرب الأندلس شارك فى الثورة والتمرد، وظهر عبد الرحمن بن مروان الجليقى وسعدون السرنباقى وأعانهما ملك جليقية وكانت هذه البلاد شوكة مؤلمة فشل الأمير محمد في إخماد ثوراتها حتى انتهى به الأمر أن ترك ابن مروان حاكماً مستقلاً عليها.

وأخطر هذه الثورات وحركات التمرد الداخلية هى الثورة التى نشبت فى إقليم رية فى حدود ٢٦٥هـ/٨٧٨م . وتزعمها عمرو بن حفصون واتخذ من حصن بوبشتر شمال شرقى رندة معقلاً، وأرسل إليه الأمير محمد قواته بقيادة وزيره هاشم بن عبد العزيز، وظل الأمر يتراوح بين الصلح حيناً والتمرد حيناً آخر.

وفى أيام الأمير محمد عـد النورمانديون لتهديد شواطئ الأندلس لكن غاراتهم هذه المرة لم تكن مفاجأة مثل الغارة الأولى، لأنهم حينما وصلوا إلى الشواطئ الأندلسية وجدوها محترزة، وبها الأساطيل وقد أخذت أهميتها، فلم يتمكن النورمان من غزو اشبونة أو أشبيلية أو أية مدينة قوية أخرى، فعمدوا على الإغارة على بلاد صغيرة قريبة من الساحل، وتعرضوا عند «باجة» لهزيمة ساحقة ثم انحدروا جنوباً إلى السواحل الجنوبية، وبعض سواحل بلاد المغرب، واتجهوا بعد ذلك إلى السواحل الشرقية المطلة على البحر المتوسط، وحيثما يئسوا من القيام بعمل كبير ضد البلاد الإسلامية رحلوا إلى الشمال وهاجموا بنبلونة عاصمة مملكة نافار، وأسروا ملكها، ولم يردوه إلا بعد دفع فدية كبيرة .

لم يهمل الأمير محمد أمر ممالك نصارى شمال الأندلس الذين بادرهم بالصوائف التى اتجهت إلى بلاد ألبة والقلاع وكذلك إلى مملكة نافار، وقاد جيوش الإمارة الأندلسية أبناء الأمير محمد عبد الرحمن والمنذر، وقواده عبد الملك بن العباس القرشى وهاشم بن عبد العزيز. وكللت الكثير من حملاته فى هذه الأنحاء بالنجاح ولم يمنعه من إيقاف هذه الممالك عند حدها إلا كثرة الثورات الداخلية والتى يرى غالبية المؤرخين أنها قد بدأت تنتشر بشكل مزعج، ويعد النصف الثانى من ولاية الأمير محمد وحتى نهاية حكم ابنه الأمير عبد الله فترة ضعف وانحدار حتى سميت بعصر الطوائف الأول دلالة على شدة الضعف التى إنتابت الإمارة الأموية وكثرة الثورات وحركات التحرر التى عصفت بمعظم أجزاء الأندلس حتى لم يعد لسلطان بنى أمية نفوذ إلا على إقليم قرطبة فقط.

ومع كل تلك الظروف الصعبة فقد تمتع الأمير محمد بخلال باهرة أهلته لأن يكون من خيرة أمراء بنى أمية، وأوفرهم ذكاء وفطنة،قال عنه الرازى بأنه له فى سلطانه الآثار الجميلة، والآيات الجزيلة، والفتوح العظيمة، والعناية بمصالح المسلمين، والتهمم بثغورهم، والضبط لأطرافهم والتوجيه لمصالحهم. أنفق عمره الطويل فى غزوات متعاقبة، وكفاح مستمر محاولاً الحفاظ على سلطان بنى أمية، وحماية سلطان المسلمين فى الأندلس من الانهيار، وكان يعشق الجهاد والكفاح، واهتم بأمر الجيش والأسطول وعني الأمير بتحصين أطراف الثغور، وأقام عدة من المحلات والقلاع الدفاعية، وفى عهده سار على نفس النظم الإدارية التى

كانت على أيام أبيه، واستعان بنفس الرجال الذين عاصروا والده، وأقام علاقات سياسية طيبة مع بلاد المغرب.

وعلى الرغم من أن الأندلس قد ماجت بالثورات والفتن إلا أن الأمير لم يهمل القيام بالكثير من المنشآت العامة وأهمها الزيادة فى المسجد الجامع وأقام به مقصورة جديدة، وأصلح الجناح القديم من المسجد، كما أصلح جامع استجة، وجامع شذونة، ومساجد عديدة أخرى فى مختلف الأنحاء كما أنشأ الأمير محمد زيادات كثيرة بقصر الإمارة وملحقاته إمتازت بالجمال والأناقة، وعنى بتجديد منية الرصافة التى أنشأها الداخل وغير ذلك من الأعمال الكثيرة.

شهد عصر الأمير محمد مجموعة هائلة متميزة من العلماء والفقهاء الذين تمتعوا بعطفه وعنايته، ومن أشهر هؤلاء الذين وجدوا عنده الرعاية والحماية الفعلية بقي بن مخلد الذى تعرض للاضطهاد من قبل فقهاء المدينة، وكادوا يفتكون به لولا رعاية الأمير، وكذلك الفقيه محمد بن عبد السلام الخشنى الذى سجنه صاحب المدينة وأطلقه الأمير.

توفى الأمير محمد فى عام ٢٧٣ وجيوشه محاصرة لابن حفصون بقيادة ابنه الأمير المنذر الذى سارع برفع الحصار والعودة إلى قرطبة.

الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣هـ-٢٧٥/ - ٨٨٦ / ٨٨٨م):

كان المنذر ممن عرف منذ بدايات نضوجه بالحزم والصرامة، وبقوة الإرادة وقف إلى جوار والده، وقاد جيوشه، وساعده في مقارعة المخالفين حتي غدا الرجل الأول بعد والده، ومن ثم آلت إليه الإمارة رغم أنه كان

بعيداً عن العاصمة، ولم ينازعه فى ولاية الأمر أحد من اخوته رغم كثرتهم.

بدأ الأمير المنذر بأن أقر وزراء أبيه على خططهم، واستعمل هاشم بن عبد العزيز حاجباً له، واتخذ مجموعة أخرى من التدابير لإصلاح الوضع السياسى والإدارى للبلاد ولكن الأمور فى الأندلس كانت قد بدأت فى التغير بصورة شديدة، حيث أن موت الأمير محمد أزال ستر الحرمة، وخرقت هيبة الإمارة، وهب الأمير المنذر لمواجهة نيران الفتنة.

كانت فتنة ابن حفصون هى أخطر الثورات التى وجه الأمير المنذر قوته للقضاء عليها، وخاصة أن ابن حفصون استثمر وفاة الأمير محمد ووسع من نفوذه حتي كانت له حامية فى قبره جنوبى قرطبة والبيرة ومدينة باغة وهى كلها مناطق قريبة من العاصمة الأندلسية، وتعنى شدة الخطورة التى يمثلها عمر بن حفصون، ولهذا كله نظم الأمير المنذر الجيوش الأندلسية وخرج لقيادتها بنفسه، ونجح فى تقليم أظافر ابن حفصون فاسترد سيادة الإمارة الأموية على تلك الأقاليم، كما استعاد المراكز الحيوية فى الطريق إلى معقل ابن حفصون، ثم خرج فى عام ٢٧٤هـ ٨٨٧م واتجه بالجيش مباشرة إلى ببشتر وحاصر ابن حفصون، واستولى على مجموعة كبيرة من الحصون مستنزلاً مجموعة من الثائرين الشايعين لابن حفصون حتى اضطر الثائر للتظاهر بالخضوع والإذعان، قابلاً بالاستسلام على شرط أن يسمح له ولأولاده بالعيش فى مدينة قرطبة، وقبل الأمير المنذر منه ذلك، وقدم له مائة بغل لحمله وأهله وأمتعته إلى

قرطبة، وخفف الأمير من حصاره، ولكن الثائر الخائن انتهز الفرصة وهرب بما معه إلى ببشتر نفسها، وغضب الأمير لنكث العهد، وعاد إلى تجديد الحصار، وأصر هذه المرة على ضرورة استنزال الثائر دون أية شروط، لكن الأمير أصيب فى ذلك الحين بمرض عضال وتردت صحته، ثم ما لبث أن أدركته الوفاة فى شهر صفر من عام ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م بعد ما يقرب من عامين فقط من إمارته لم يدرك فيهما لقصر مدته وتقلص أيامه، رتق ما كان قد انفتق من الملك مع عزم منه فى ذلك وحدة .

وكانت وفاة الأمير المفاجئة مثاراً لجدل طويل حول أسباب الوفاة إلى درجة إتهام لأخيه عبد الله بالاشتراك فى مؤامرة هدفت إلى التخلص من الأمير المنذر للوصول إلى الحكم.

الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥-٣٠٠ هـ/٨٨٨-٩١٢م):

كان الأمير عبد الله من أبرز أبناء الأمير محمد إلى جانب أخيه المنذر، وتميز دائماً بحبه للعلم وللعلماء، وكان مجلسه من أحفل المجالس بأهل العلم والمعرفة، وأجمعها لأرباب الأدب، وكان يحرص على مجالسة النابهين، ويحاورهم فى كثير من الفنون، وقرب إليه بعض من اشتهروا بالعلم والأدب. وجعلهم من خاصته. وبالإضافة إلى ذلك شارك الأمير مع والده وأخيه فى بعض الأنشطة الحربية، وقيادة الجيوش وخاصة فى مناطق غرب الأندلس، كما تولى إمارة كورة شذونة لعدة سنوات.

وزادت مكانة الأمير عبد الله فى عهد أخيه المنذر زيادة كبيرة، ورغم أن المنذر كان يحب جميع أخوته، ويدنى مجالسهم، ويكرمهم ويصلهم،

إلا أنه كان يؤثر أخاه عبد الله من بينهم، ويوقره حتى أنه أوكل إليه إدارة الدولة أثناء خروجه لمحاربة حفصون، ولهذه المكانة لم يتردد الجند فى استدعائه من قرطبة إلى حيث يحاصر الجيش ابن حفصون عند وفاة الأمير المنذر.

وبولاية الأمير عبد الله انفتح باب الشقاق فى الأندلس على مصراعيه، وماجت الفتنة فى كل أنحاء البلاد حتى لم يعد للإمارة القرطبية من سيادة إلا على العاصمة وأحوازها تقريباً.

وكان الأمير عبد الله بارعاً فى التعامل مع هذه الثورات، هادئاً ثابتاً حرص باستمرار على تأكيد شرعية وحق قرطبة والأسرة الأمويه فى طاعة حكام الإقاليم المتمردة.

فبالنسبة لابن حفصون لم يتوان الأمير من التصدى له بكل قواه ورغم أنه لم ينجح فى القضاء عليه رغم سنوات حكمه الطوال، إلا أنه نجح فى إيقاع الهزيمة بجنوده أكثر من مرة، واستنزاف قواه وإضعافه.\وأمضي الأمير عبد الله حكمه كله فى حروب متصلة مع الثائرين في كافة نواحي الأندلس، وساعده على ذلك وجود عدد من القادة البارزين، وتجمع المصادر التاريخية على نجاح الأمير عبد الله فى سياسته، وأن الأمور قد بدأت فى الصدور فى أواخر أيامه وعد ذلك تمهيداً للقضاء عليها تماماً فى عهد خلفه الأمير عبد الرحمن الناصر.

وأهم ما تميز به عهد الأمير عبد الله هو اهتمامه بالعلم والعلماء، ووجود جماعة من فحلائهم فى بلاطه وأهمهم الفقيه بقى بن مخلد والأديب ابن عبد ربه .

عصر الخلافة فى الأندلس

الأمير عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله (الناصر) (٣٠٠-٣٥٠هـ/ ٩١٢-٩٦١م):

لم يخل عـهد الأمراء الأمويين فى الأندلس من المتاعب في أى فترة من فتراته ولم تكن السلطة إلا عبئاً ثقيلاً على من يتولاها ويرجع ذلك إلي عاملين أساسيين أولهما تنوع العناصر المشكلة للمجتمع الأندلسى، وهى عناصر أعوزها الإنسجام وسادها التنافر وعدم الوئام، والثاني كثرة الأعداء الخارجين من الناقمين علي بنى أمية دولتهم الأندلسية، وارتبط الهدوء والسكينة في الأندلس بشخص الأمير القائم على الأمر، وكان عبد الرحمن الأوسط آخر هولاء الأمراء العظام، وكان طبيعياً أن تشهد البلاد كثيرا من الثورات منذ عهد الأمير محمد حتي تصل إلى اسوأ فتراتها على عهد الأمير عبد الله بن محمد.

وتركت هذه الأوضاع بصماتها على الأسرة الأموية التى لم تسلم هى الأخرى من أخطار الانقسامات والطموحات الشخصية التى أودت بحياة بعض أفرادها، ومن هؤلاء ابنى الأمير عبد الله نفسه الأمير محمد أكبر أبنائه والذى انتهى الأمر بمقتله بتحريض من أخيه الأمير المطرف والذى ما لبث أن شرب من نفس الكأس وذاق الموت بتدبير من والده.

ترك الأمير محمد بن عبد الله طفلاً رضيعاً هو عبد الرحمن فقام الأمير عبد الله بالعناية به وتربيته وتنشئته حتى غدا فتى الإمارة المرتقب وبالفعل حينما أدركت الوفاة الأمير عبد الله فى سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢م يختلف أحد فى ولاية حفيده عبد الرحمن بن محمد بلاد

الأندلس، وهكذا انتقلت السلطة إلى هذا الشاب وسط ظروف سياسية داخلية وخارجية غير مواتية، وكان أول من بايعه أعماهه من أولاد الأمير عبد الله وهم:أبان، والعاصى، وعبد الرحمن، ومحمد، وأحمد، فقد وصلوا وعليهم الأردية والظهائر البيض بزي الحزن، وتلاهم أخوة عده وهم: العاصى، وسليمان، وسعيد، وأحمد، وناب الأمير أحمد عنهم فى الكلام فبايعه وأثنى عليه وقال: والله لقد اختارك الله على علم للخاص منا والعام. ولقد كنت انتظر هذا من نعمة الله علينا، فأسأل الله إبزاغ الشكر، وتمام النعمة والهام الحمد، وتتابع بعد ذلك رجالات قريش وأهل البيوتات ثم رجال الدولة .

ولد الأمير عبد الرحمن فى حدود عام ٢٧٨هـ/ ٨٨٦م، ولذلك كانت سنه عندما تولى الإمارة فى الثانية والعشرين من عمره، واستبشر الناس به خيراً، وكانوا قد ملوا الشقاق والفقرة، وأنشد ابن عبد ربه قائلاً:

بدا الهلال جديدا ... والملك غض جديد

يا نعمة الله زيدي ... ما كان فيك مزيد

ان كان للصوم فطر ... فأنت للدهر عيد

السياسة الداخلية للأمير عبد الرحمن الناصر:

بدأ عبد الرحمن بالاستعداد لإعادة توحيد البلاد، وإحياء مجد السلطة المركزية فى قرطبة، وعمد إلى سياسة رائعة فى هذا المجال حيث قدم الوعد على الوعيد وبسط يده لكل من ثاب إلى الطاعة وشرع سيفه ضد كل من ركن إلى المعصية وشرع بنفسه فى تنفيذ سياسته فى عزم

وشدة واضحين، فأنفذ الكتب إلى جميع العمال بالأندلس بطلب الطاعة والإذعان، كما أرسل أمناءه إلى البلاد لأخذ البيعة، وجاءته الردود مبشرة من بعض المنتزين ومنهم صاحب سرقسطة وبعض الأطراف الأخرى، ثم جرد الأمير جيشاً قوياً خرج على رأسه فى غزوة عرفت بغزوة المنتلون افتتح فيها سبعين حصناً قوياً، واشتبك مع أنصار ابن حفصون، وعاد إلى قرطبة منتصراً، ويصف الشاعر الكبير ابن عبد ربه هذه الغزوة بقوله:

فى نصف شهر تركت الأرض ساكنة

من بعد ما كان فيها الطير قد ماجا

وفى قصيدة أخرى يقول:

فى غزوة مائتا حصن ظفرت بها

فى كل حصن غزاة للعناجيج

ما كان منك سليمان ليدركه

والمبتني سد يأجوج ومأجوج

اتجه عبد الرحمن إلى أشبيلية- كبرى الحواضر الأندلسية- وكانت متمردة تحت قيادة بنى الحجاج وزعيمهم عبد الرحمن بن إبراهيم بن الحجاج، واستفاد من الشقاق الذى وقع بين أفراد هذه الأسرة وتمكن من إعادة المدينة إلى كنف الدولة الأندلسية مما أعطى للأمير عبد الرحمن دفعة قوية ودعامة ساندته فى مسيرته الصعبة .

مما لاشك فيه أن أصعب العقبات أمام السلطة الأموية تمثلت في ثورة ابن حفصون وقلعة ببشتر الحصينة، ولذلك وجه عبد الرحمن جهوده للفضاء على هذه الثورة قبل أى شئ آخر.

لقد عظم أمر أبن حفصون في عهد الأمير عبد الله، واستفحل أمره واشتد خطره واتسعت رقعة مملكته، ثم أرتد عن الإسلام، واعتنق النصرانية، حتى يجتذب إليه طوائف المستعربين فى أسبانيا الإسلامية، وإن جاء هذا القرار بنتائج وخيمة حيث استقبحه المسلمون ودفعهم إلى الانفضاض من حوله، وبدت نهايته، وضعف أمره حتي قيل إنه أذعن للأمير عبد الرحمن الناصر- وجاءت الرياح الطيبة للأمير بوفاة ابن حفصون عام ٣٠٣هـ / ٩١٥م، وتولى ابنه جعفر مكان أبيه وظل على عناده وتمرده.

وفى سنة ٣٠٦هـ / ٩١٨م أرسل الناصر حملة قوية استولت على بعض الحصون، وقتل أبناء عمر بن حفصون، سليمان، وجعفر ثم حفص- وفي سنة ٣١٥هـ / ٩٢٧م خرج الناصر بنفسه لحصار قلعة ببشتر حيث تمكن من الاستيلاء عليها وهدم أسوارها، وكشف عن جثة عمر بن حفصون وصلبها، وتوجه بعد ذلك إلى بلاد غرب الأندلس فحاضر بطليوس فافتتحها في عام ٣١٨هـ / ٩٣٠- ثم باجة وما حولها من حصون.

وهكذا استطاع عبد الرحمن الناصر أن يسحق حركات التمرد في جميع أنحاء الأندلس وأن يبسط عليها سلطان الدولة الأموية .

السياسة الخارجية لعبد الرحمن الناصر :

كان الأمير عبد الرحمن واسع الأفق، مدركاً للأخطار الخارجية المحيطة بدولة الأمويين الإسلامية فى الأندلس، ولقد تمثلت هذه الأخطار في عدة جبهات هى الممالك النصرانية شمال الأندلس، والغارات النورماندية، وبروز دولة الفاطميين الشيعية فى بلاد المغرب.

لم يتوان الأمير عبد الرحمن الناصر، اعتباراً من الأيام الأولي لتوليه سدة الحكم فى قرطبة، عن التصدى لأعدائه الخارجيين، فعمل على تجهيز جيش قوى، مطيعاً للأمير بصورة مطلقة، اختيرت معظم عناصره من المماليك الصقالية المتفانين في حرس الخليفة.

ومما لاشك فيه أن ممالك الشمال النصرانية كانت قد استفادت من حالة الضعف التى عايشتت بلاد الأندلس إبان النصف الثانى من القرن الثالث الهجري كما أنها استغلت حالة التمزق التى ألمت بالبلاد، وكذلك التناقضات التى ظهرت بين حكام الأقاليم لكى تتوسع هذه الممالك المسيحية على حساب المسلمين وقام الملك الفونسو الثالث الملقب بالكبير بتوسيع حدود مملكة أشتورس جنوباً، حتي استولى على شمال البرتغال الحالية، ونقل عاصمته إلي ليون، وواصل هجومه على بلاد المسلمين حتى استولى على مدينة «قلمرية» فى البرتغال الحالية، كما استولى على اسبرقة، وأماية، وسمورة، واسكن هذه البلاد أعدادا كبيرة من المستعربين المهاجرين من بلاد المسلمين فى الأندلس.

كما استفاد من حالة التمزق فى الأندلس، حكام بنبلونة، وقاموا

بمعاونة بعض حكام الثغر الأعلى بالتوسع نحو الجنوب، وتهديد المعاقل الإسلامية فى تطيلة وغيرها، كما قام حكام إقليم الثغر القوطى بالتوسع أيضاً على حساب المسلمين فى منطقة الشمال الشرقى للأندلس.

وحين تولي عبد الرحمن الثالث الحكم كان على رأس مملكة ليون راميرو الثانى وكان واسع النشاط، كبير الطموح- فهاجم مدينة يابرة، وهزمها، واستولى عليها موقعاً بأهلها مذبحة مروعة وذلك فى حدود عام ٣٠٢هـ / ٩١٤م- ثم هاجم مدينة ماردة ونهب ما حولها، ودخل حصن الحنش وقتل به ألوف المسلمين.

انزعج عبد الرحمن الثالث لهذه التطورات الخطيرة- وسارع بإرسال قوة كبيرة علي رأسها قائد الأندلس الفذ أحمد بن محمد بن أبى عبده لمواجهة أردونيو لكنه هزم وأسر وتعرض جيشه لمأساة كبيرة.

كانت هذه الهزيمة سببا فى جرأة الممالك النصرانية على بلاد المسلمين فى الأندلس فنسقت فيما بينها وهاجمت مدنا أندلسية قوية، كما أنها أزعجت عبد الرحمن الناصر، ونبهته إلى خطورة الوضع وأخذ الأهبة لمواجهته.

أرسل عبد الرحمن الثالث جيشاً قوياً عام ٣٠٦هـ / ٩١٩م بقيادة بدر بن أحمد لملاقاة أردونيو الثانى- وتمكن الجيش الإسلامى من تحقيق انتصار كبير فى معركة بالقرب من بلدة تسمى «موتونيا»، كما أعقبه فى ٣٠٧هـ / ٩٢٠م بجيش آخر بقيادة اسحق بن محمد القرشي فاستعاد قلعة غزماج، ثم خرج بنفسه سنة ٣٠٨هـ / ٩٢٠م على رأس

جيش كبير، واتجه إلى جليقية ونافار- فهدم الكثير من الحصون، وحقق نصراً رائعاً على تحالف ممالك النصارى الشمالية، وواصل الناصر بنفسه وبقواده الحملات المتتالية على تلك الممالك حتى أجبرها على الانكماش واستعاد الكثير من المدن والحصون والأراضي التى سبق ضياعها- ولقد تعرض الناصر في عام ٣٢٧هـ / ٩٣٩ م لهزيمة قاسية فى معركة تسمى معركة الخندق تسبب فيها الخلاف والشقاق بين العناصر المكونة للجيش الأندلسى كان من نتائجها عدم خروج الناصر بنفسه على رأس قواته بعد ذلك.

تجمع المصادر التاريخية على مرارة الهزيمة التى لقيها عبد الرحمن الناصر، لكنها تجمع أيضاً على أن ميزان القوى ظل فى صالح عبد الرحمن الثالث بصورة قوية، وأن الوقائع التالية سجلت للأمير الأموى انتصارات هائلة ومدوية على الممالك النصرانية، وأن قوات المسلمين قد اكتسحت مملكتى ليون ونافار واجبرتهما على الإذعان بالطاعة وطلب المهادنة، ومن ثم توافدت على قرطبة سفارات هاتين المملكتين تقدم الهدايا وتطلب الصلاح- ومن هذه السفارات مقدم الملكة طوطة بنفسها وحفيدها الأمير شانجة طالبة علاجه ومساعدته فى الوصول إلى الحكم فى بلاده. ومن هذا نتبين أنه قد أصبح للأمير عبد الرحمن اليد الطولى فى مسار الأمور فى الممالك الشمالية، وغدت هيبة الأندلس كبيرة فيما جاورها من ممالك.

جبهة أخرى شكلت أرقاً لعبد الرحمن الثالث نشأت فى بلاد المغرب حيث نجح الفاطميون فى الاستيلاء على البلاد وإقامة دولة لهم بدت

قوية وطموحة وحاولت الاستيلاء على الأندلس فأرسلت الدعاة والجواسيس، واستفادت من الأوضاع الداخلية، وتنبه عبد الرحمن الثالث إلى خطورة الفاطميين على بلاده فاهتم بتحصين بلاده الجنوبية، وأعد أسطولاً أندلسياً قوياً لحماية سواحله واستخدم أنصاراً له على الأرض الأندلسية، وتحالف مع بقايا الرستميين والأدراسة.

هاجم الفاطميون المرية قاعدة الأسطول الأندلسى- ورد الأندلسيون بالإغارة على شواطئ المغرب، وإزداد التنافس حدة بين الطرفين مما دفع بالناصر إلى الاستيلاء على سبتة وغيرها من مدن الساحل المغربي، وبذل الناصر جهداً كبيراً لحماية بلاده من الطموحات الفاطمية فى الاستيلاء عليها.

ولقد ساهم الأسطول الأندلسى الكبير فى حماية شواطئ البلاد الغربية ولم تتعرض هذه البلاد لغارات مدمرة للنورمانديين، ولم تقع معارك ذا بال ضدهم فى ذلك الوقت.

العلاقات الدبلوماسية :

ارتقت دولة الإسلام على عهد عبد الرحمن الثالث إلى مكانة عالية أهلتها لصداقة القوى العالمية المعاصرة- فقصد منها رسل وسفارات هذه القوى طالبة صداقتها ومعاونتها، فإذا استثنينا سفارات ممالك الشمال وهى مهمة فإننا نرى أقوى العلاقات قد نشأت مع الامبراطورية البيزنطية وخاصة فى عهد الإمبراطور قسطنطين السابع (٣٣٤ / ٩٤٥م - ٣٤٩ / ٩٥٩م) والذى أرسل رسله إلى قرطبة طالباً صداقته،

واستقبل الناصر هذه السفارة استقبالاً حافلاً أفردت له كتب التاريخ صفحات طويلة.

كذلك وفدت إلى قرطبة سفارة الإمبراطور الألماني أوتو الأول، وذلك فى حدود ٣٤٤هـ / ٩٥٦م والتى كان لها أكثر من هدف، فإلى جانب طلب الصداقة والمودة، كان موضوع الجماعات الإسلامية داخل أوروبا هدفاً أساسياً من مطالب التفاهم مع الأمير الأندلسى، ولقد تبودلت الوفود والرسائل بين العاهلين مما يبرز مكانة الدولة الأندلسية فى ذلك العهد.

الجانب الحضارى لعصر الناصر لدين الله :

ومع النجاح الداخلى والخارجي لجأ عبد الرحمن الثالث إلى اتخاذ لقب الخلافة والتسمى بأمير المؤمنين وذلك فى سنة ٣١٧هـ ٩٢٨م حيث استكمل مرتبة الخلافة بتسميته بأمير المؤمنين، وأخذه رعيته بذلك فى جميع ما يجرى من ذكره، وانقاذ كتبه بها فى أقطار مملكته، وقطعه على استحقاقه لهذا الإسم، الذى هو بالحقيقة له ولغيره بالاستعارة وبذلك صار فى العالم الإسلامي ثلاث خلافات: العباسية فى بغداد، والفاطمية، فى المهدية، والثالثة فى قرطبة.

أضحت قرطبة على عهد الناصر «عروس الغرب» منافسة لبغداد «عروس الشرق» والقسطنطينية مقر الأباطرة البيزنطيين، ولقد تميزت قرطبه بمسجدها الجامع العظيم، وحفلت بالقناطر والقصور والحمامات والحدائق الغناء، والسكان وغير ذلك من مظاهر العظمة والجمال، واهتم الناصر بمسجدها الجامع اهتماماً خاصاً، وأقام له مئذنة شاهقة ولم تكف

قرطبة طموحات عبد الرحمن الناصر فبنى ضاحية الزهراء بالقرب من جبل العروس غربي المدينة، وكان الناصر شغوفاً بالبناء إلى درجة عجيبة، وكان دائماً يتمثل قول الشاعر:

همـــم الملـــــوك أن أرادوا

ذكرهـا فيألســـن البنيـــان

أو مـا تـرى الهرمـين كم بقيـا

وكم ملك محته حوادث النسيان؟

جاءت الزهراء تحفة عصرها، وتفنن المبدعون فى تجميلها حتى غدت أسطورة عصرها، وتقف المصادر التاريخية مبهورة أمام جمالها وروعتها، وعدت من عجائب قرطبة، وامتد اهتمام الناصر بالعمران إلى كافة أنحاء الأندلس.

جانب آخر اهتم به الناصر اهتماماً كبيراً هو الجانب العلمى فأوكل إلى ابنه وولى عهده الحكم المنتصر بالله الاهتمام بالعلم والعلماء، فاستقدم أبا على القالى من بغداد واحتفى به، وانثالت هدايا الناصر على العلماء والفقهاء والأدباء، وذاعت شهرته فى هذا المجال فهاداه الأمراء والسلاطين بالكتب النادرة ومنهم امبراطور بيزنطة، وأصبح المسجد الجامع فى قرطبة جامعة رفيعة المستوى يقصدها للعلم الطلاب والمعلمون من العالمين الإسلامى والمسيحى ووصف الشاعر قرطبة بقوله:

بأربـع فاقـت الأمصار قرطبة

منهـن قنطرة الوادى وجامعها

هاتـان ثنتان والزهراء ثالثـة

والعلم أفضل شئ وهو رابعها

وفى كـتـابى تاريخ التـعليم فى الأندلس وصف شـائق لمدينة قـرطبـة وعلى عصر الخلافة ومدى عمرانها .

يعـتـبر عـصـر عـبـد الرحمن الناصر وخليـفتـه من بعده الحكم وهشام الثانى العصر الذهبى للمسلمين فى الأندلس سواء من الناحية العسكرية أو السياسية أو الحضارية ولايمكن أن بما نضارع بالقرن الرابع الهجرى فى الأندلس فترة تاريخية أخرى.

حكم النـاصر الأندلس خمـسين عـامـاً كـاملة، تسلمـهـا دولة تتمزقـهـا الأهواء والفتن، وأسلمهـا دولة مـوحدة ثرية تناطح بعظمـتـهـا قـمم الأمم السالفة واللاحقة، وكان ذلك حريا بخليفة وجد بخط يده أنه أحصى أيام راحته خلال هذه الخمسين عاماً فوجدت أربعة عشر يوماً فقط.

توفى عبد الرحمن الناصر لدين الله عام ٣٥٠هـ / ٩٦٠م بعد أن عهد بالحكم بعده إلى ابنه الحكم الثانى .

الحكم الثانى : المستنصر بالله (٣٥٠ - ٣٦٦هـ / ٩٦٠ - ٩٧٦م) :

ولد الحـكم فى العـام الثـانى لـولاية أبيـه عـبـد الرحـمن أى فى سنة ٣٠٢هـ / ٩١٤م، وبويع له بولاية العـهـد مذ كـان فى الثـامنة من عـمـره، لكنه لـم يصل إلى الخـلافـة إلا فى الثـامنة والأربعين، وقـد كـان السـاعـد الأيمن لوالده عـبـد الرحـمن الناصـر، وعـمـل مـعـه كـثـيـراً فى المجـالات

العسكرية والحضارية وتولى نيابة عنه تصريف الأمور فى قرطبة عند غيابه.

آلت الخلافة إلى الحكم بعد خبرة مدربة، وطول تمرس، ومن ثم كانت فترة حكمه استثمارا واستفادة من كل جهود الخليفة عبد الرحمن الثالث من الناحية الداخلية لم تكن هناك أحداث تمرد أو عصيان، بل ظلت البلاد هادئة، ولكن مشاكل الخليفة الجديد ظهرت فى الجبهة الخارجية سواء فى العلاقات مع دول اسبانيا النصرانية أو فى العلاقات مع بلاد المغرب.

لقد اعتقدت الممالك الاسبانية خطأ أن الحكم ليس رجل حرب بقدر ما هو رجل أدب وشعر، ورفض شانجة ملك ليون تسليم الحصون والقلاع التي سبق أن وعد بها عبد الرحمن الناصر قبل وفاته، ولذلك نهض الحكم لإثبات هيبته فقام بالغزو ابتداء من سنة ٣٥٢هـ / ٩٦٣م، فأوغل فى أراضى ليون ونافار، واستولى على كثير من القلاع والحصون، وأرغم هاتين المملكتين على الاعتراف له بالطاعة، كذلك أرسل الحكم عامله على سرقسطة يحيى بن محمد التجيبى على رأس القوات الإسلامية لمحاربة غارثيا ملك البشكنس، وافتتحت جيوش المسلمين مدينة قلهرة على يدى القائد غالب، وعاود الحكم بنفسه فى عام ٣٥٤هـ / ٩٦٥ م وهاجم بلدة ألبة، وسادت الفوضى فى مملكة ليون بسبب الخلاف على العرش مما أتاح لقرطبة فرض سيادتها عليها.

أما فى المغرب فإن الخطر الفاطمى قد بدأ يتلاشى، بعد سنوات قليلة من حكم الخليفة الحكم، حيث اتجهت الدولة الفاطمية إلى مصر وبلاد

الشام، ومع ذلك لم يهمل الحكم الوضع فى بلاد المغرب، فتفقد الثغور الجنوبية بنفسه، وزار المرية قاعدة الأسطول الأندلسى، وتحالف مع بقايا الأدارسة ومنهم الزعيم الحسن بن كنون، واعتمد على قبائل زناتة المغربية مكوناً بذلك حلفاً قوياً ضد الفاطيين، وحينما نقض الأدراسة ذلك التحالف، وانقلبوا على الأمويين، لم يتردد الحكم فى انفاذ قواته البحرية بقيادة أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس كما استدعى القائد غالب بن عبد الرحمن، وأنفذه إلى المغرب الأقصى فى سنة ٣٦٢هـ / ١٩٧٢ وتجمعت كل القوى الأندلسية وأنصارهم- وتمكنت هذه القوات بعد معارك ضارية من الانتصار على الأدارسة، وأسر زعيمهم الحسن بن كنون، وحمل إلى قرطبة وظل بها إلى ما بعد وفاة الحكم، فأرسله الحاجب المصحفى إلى مصر حيث رحب به الخليفة الفاطمى العزيز بالله، وعاش فى رحابه عدة سنوات.

جبهة أخرى خارجية تصدى لها الحكم بهمة ونشاط هي السواحل الأندلسية الغربية وتعرضها لغارات النورمانديين، فقد بدأ هؤلاء النورمان فى الإغارة على شواطئ الأندلسية الغربية فى حدود ٣٥٥هـ / ٩٦٦، كما أنهم هاجموا المرية قاعدة الأسطول الأندلسى، وقام الحكم بإنقاذ كتبه ورجاله إلى أهل السواحل بالاحتراز، وعاودت هذه السفن النورماندية الهجوم على الأندلس عام ٣٦٠هـ ٩٧٠ و٣٦١هـ ٩٧١م لكنها ووجهت بمقاومة شديدة، وحقق الأندلسيون المسلمون عليهم انتصارات رائعة، مما أجبر هؤلاء على الابتعاد عن بلاد المسلمين، ومهاجمة شواطئ الدول النصرانية شمال الأندلس.

وبفضل تلك السياسة الباهرة، والقوة الحاسمة التى قصمت الأعداء على الجبهات الثلاث عادت قرطبة مقصداً للسفارات الأجنبية التى تطلب الود والصداقة مع الخليفة الحكم المستنصر بالله، فوفدت سفارة أمير برشلونة فى سنة ٣٦٠هـ / ٩٧م كما وفدت فى نفس السنة الراهبة البيرة عمة ملك ليون، والتى استقبلت استقبالاً رائعاً فى قرطبة، وفى سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٣م وفدت سفارات أمير قشتالة، وأمير شلمنقة، كما سبق أن وردت سفارة أخرى تحمل رسالة من امبراطور القسطنطينية، وكذلك من امبراطور المانيا أوتو الثانى، وبذلك غدت الخلافة الأندلسية فى ذلك العصر فى أوج روعتها، وبسطت سيادتها السلمية على سائر اسبانيا، وكفلت بذلك السكينة العامة .

الإنجازات الحضارية للحكم المستنصر :

لم تشهد الأندلس مثل الحكم أميراً متحضراً عالماً، ثبتاً، حيث تجمع المصادر التاريخية على الإشادة بميوله العلمية، واهتمامه بالعلماء واحترامهم، وتقديرهم، وكذلك محبته الجمة للكتب، ومطالعتها، ويمكن أن نجمل اهتمامات الحكم فى هذا المجال فى النقاط التالية :

أولاً : فتح باب الأندلس على مصراعيه لاستقبال العلماء المشارقة والاغداق عليهم وإعطائهم الفرصة للتدريس فى مساجد قرطبة.

ثانياً : إحضار العلماء الموهوبين من الأقاليم الأندلسية للتدريس فترة فى قرطبة ثم العودة إلى بلادهم.

ثالثاً : الاحترام الكامل للعلماء، وتقديم الجوائز والصلات والتعيين فى الوظائف العامة .

رابعاً : الاهتمام المبالغ بالكتب تأليفاً وشراء، وكان له رجال فى أنحاء العالم الإسلامى يشترون له الكتب الثمينة، ويرسلونها إلى الأندلس ومن أبرز الأمثلة على ذلك ارساله ألف ديناراً ذهباً لأبي الفرح الأصفهانى لكى تصدر النسخة الأولى من كتاب الأغانى فى قرطبة بدلاً من بغداد.

خامساً : تكوين مكتبة عظيمة فى قصر الخلافة في قرطبة، قدرت أعداد كتبها بأربعمائة ألف مجلد وهى بالتالى أعظم مكتبة فى تاريخها.

سادساً : الأهم من ذلك ما تشير إليه كتب التاريخ من مطالعة المستنصر لمعظم محتويات المكتبة، وتعليقه عليها، واعتبار تعليقاته من المصادر الأساسية التى اعتمد فى النقل منها عدد من علماء الأندلس كابن الفرضي والحميدى، ويقول عنه ابن الخطيب بأنه كان- رحمة الله- فقيهاً بالمذاهب، إماماً فى معرفة الأنساب حافظاً للتاريخ، جامعاً للكتب، مميزاً للرحال من كل علم وفن وفى كل مصر وأوان، تجرد لذلك، وتهمم به، فكان فيه حجة وقدوة واصلاً يوقف عنده.

أما فى مجال البناء والعمارة فقد كان الحكم المستنصر فارساً كبيراً أكمل مدينة الزهراء، وأضاف تحسينات رائعة إلى المسجد الجامع مازالت قائمة إلى يومنا هذا تشهد بعظمة الزخرفة، وجمال البناء، وتدل على ما بلغته اسبانيا الإسلامية من ثروة ورخاء كبيرين .

كما لم يخل الحكم من لمحات أدبية، وله نظم رائق يدل على شاعريته وهو القائل:

إلـى الله أشكو من شمائل مسرف

علـى ظلـوم لايدين بمـا دنت

نأت عنه دارى فاستزاد حـدوده

وإنى على وجدى القديم كما كنت

ولو كنت أدرى أن شوقى بالـغ

من الوجد ما بلغته لم أكن بنـت

رغم كل تلك السمـات الباهرة، والخلال الحميدة للخليفة الحكم المستنصر بالله إلا أن التاريخ يسجل له، أنه ورغم انتقاداته المرة لبنى العباس لتولية ابنائهم صغاراً- حينما أضعفه المرض، فإنه بايع لابنه الصغير هشام المؤيد بالله، ولم يكن قد جاوز العاشرة من عمره مما فتح الباب للشخصيات المغامرة لإدارة شئون البلاد، وأعطى لمحمد بن أبي عامر المعروف بالمنصور، الفرصة لكى يصبح الحاكم الحقيقى للأندلس.

توفى الخليفة الحكم فى صفر من عام ٣٦٦هـ / ٩٧٦م بعد أن أوصى لابنه هشام .

سقوط الخلافة والدولة الأموية فى الأندلس.

تمكن محمد بن أبى عامر من أن يصبح الحاكم الفعلى للأندلس، وأن يورث الحجابة فى الأندلس لأولاده على مدي ثلاثة وثلاثين عاماً يضعها المؤرخون دائماً تحت عنوان «الدولة العامرية».

الدولة العامرية

يطلق المؤرخون تعبير « الدولة العامرية » على الفترة التى تولى الخلافة فى الأندلس، هشام الثانى بن الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر، وهى الفترة الممتدة من سنة (٣٦٦ هـ/ ٩٧٢م) سنة وفاة الحكم، وسنة (٣٩٩ هـ/ ١٠٠٨م) عند قيام الثورة القرطبية ضد عبدالرحمن شنجول بن محمد بن أبى عامر ويميل المؤرخون إلى ذلك للسيطرة الكاملة التى فرضها الحاجب محمد بن أبى عامر على شئون الحكم والإدارة على الرغم من وجود الخليفة هشام الثانى .

والحاجب الذى تنسب الدولة إليه هو محمد بن عبد الله بن عامر بن أبى عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافرى، وكان الجد الأكبر، عبد الملك المعافري، ممن دخل الأندلس مع طارق بن زياد ، وأقام بعد ذلك بالجزيرة الخضراء، فى قرية طرش على نهر وادى أروا ، وذاع صيت الرجل هناك، وترك فيها أبناءه وأحفاده وعقبهم .

عاشت أسرة عبد الملك فى هذه المنطقة متمتعة بالوجاهة والسمعة، وشهر بعض أبنائها بالعلم ومنهم عبدالله، والد محمد، كما كانت أمه عربية من قبيلة تميم، ولهذا نشأ الفتى محباً للعلم، مجتهداً، قصد إلى قرطبة لاستكمال تعليمه، ودرس على أكابر المعلمين بها ومنهم أبو على

القالى،ومحمد بن القوطية، ومعاوية القرشى وهم من أعلام المحدثين واللغويين بالمدينة فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى .

ويلخص ابن عذارى فترة الطلب عند محمد بن أبى عامر بقوله: وكان محمد هذا حسن النشأة، ظاهر النجابة، تتفرس فيه السيادة، سلك سبيل القضاة فى أوليته، مقتفياً آثار عمومته وخؤلته، فطلب الحديث في حداثته، وقرأ الأدب، وقيد اللغات على أبى على البغدادى، وعلى أبى بكر من القوطية، ...... وبرع بروعاً أدناه، مع نوازع سعد، وبوادر حظ[١] .

بدأ محمد بن أبى عامر حياته العملية كاتباً بالقرب من قصر الخلافة، واتسعت خطواته نحو المناصب العليا . حين اختارته السيدة صبح، زوجة الخليفة الحكم، مشرفاً على أملاك الأمير عبدالرحمن، ثم الأمير هشام من بعده، وتعلق ابن أبى عامر بهذه السيدة، ذات النفوذ فى بلاط الخليفة الحكم المستنصر بالله، وأكثر من هداياه لها ، والتزلف إليها، وردت له ذلك بتقديمه عند الخليفة، فعهد إليه بالكثير من وظائف الدولة، فتولى الخزانة العامة، وأمانة دار السكة مما أعانه على التقرب إلى كبار رجال الدولة وإكرامهم، ثم عين للنظر في خطة المواريث سنة (٣٥٨هـ/ ٩٦٨م)، ثم تولى القضاء فى منطقة أشبيلية ولكنه عاد إلى قرطبة ليتولى خطة الشرطة الوسطى سنة (٣٦١هـ/ ٩٧١م) وهكذا أسرعت خطى محمد بن أبى عامر نحو المناصب الرفيعة فى الدولة، مع

---

(١) ابن عذارى - البيان المغرب جـ ٢ (ص ٢٥٧) . بيروت .

تقدم الخليفة المستنصر فى العمر، وكان ابن أبى عامر، واسع البذل والجود أكرم كل رجال الدولة، وأغدق عليهم، مما مكنه من اصطناع الرجال، وكسب مودة الناس، وغدا مطمح الراغبين، ومقصد المحتاجين حتى غدا الرجل الثانى تقريباً بعد الحاجب أبى جعفر عثمان المصحفى، كبير وزراء الخليفة الحكم وصاحب الأمر والنهى فى الدولة .

لم يكن للخليفة الحكم، عند وفاته، إلا صبياً فى العاشرة من عمره هو الأمير هشام، ولقد أخذ الخليفة البيعة بالخلافة من بعده لابنه وتولى ذلك الأمر محمد بن أبى عامر، والسيدة صبح، والحاجب المصحفى .

وبوفاة الخليفة الحكم المستنصر بالله (٣٦٦هـ/ ٩٧٦م) تحالف هؤلاء الثلاثة فى السيطرة على الحكم، وتمكنوا من الإفلات من مؤامرة الفتيان الصقالية التى هدفت إلى تعيين المغيرة بن عبد الرحمن الناصر بدلاً من هشام، وقام ابن أبى عامر بقتل المغيرة، وتشتيت الفتيان الصقالية، وأحل محلهم غيرهم ممن يدينون له بالولاء .

ولم يلبث أن اشتد الصراع بين ابن أبى عامر والحاجب المصحفى وتحالف ابن أبى عامر مع كل من السيدة صبح أم الأمير والقائد غالب بن عبد الرحمن، صاحب مدينة سالم، وأعظم فرسان الأندلس، ،وقائد جيوش الثغر الأعلى، وفى نهاية الأمر تمكن ابن عامر من القبض على المصحفى وسجنه، ثم دس له من قتله بعد ذلك ومن هنا أصبح طريق ابن أبى عامر ممهداً ليكون الرجل الأول فى الدولة . ومما زاد فى رفعته، في نظر الناس، فى ذلك الوقت قيامه بقيادة جيوش المسلمين لصد عدوان

النصارى فى الشمال، وتمكن بمعاونة القائد غالب من سحق قوات مملكة قشتالة ، والعودة إلى قرطبة محملاً بالغنائم، مما كان له أثره الكبير فى نفوس الجنود والعامة .

وهكذا سار ابن أبى عامر بخطوات ثابتة، نحو الاستئثار بالسلطة ويلخص ابن خلدون ذلك فى قوله : ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه، فمال عليهم، وحطهم عن مراتبهم، وقتل بعضهم ببعض، كل عن أمر هشام وتوقيعه، حتى استأصل شأفتهم، ومزق جموعهم » [١].

وكانت خطوة المنصور القوية التالية، فى مواجهة القائد غالب ورغم ما كان بينهما من مصاهرة إلا أن القائد غالب، لم يكن راضياً عن سياسة المنصور واستبداده بالأمور، فساءت العلاقات بينهما.خاصة، وأن المنصور قد اهتم بجيش قرطبة اهتماماً كبيراً، وضم إليه أعداداً ضخمة من البربر، وجهزه بالسلاح والمؤن، ومن هنا أصبح للدولة الأندلسية جيشان : جيش الحضرة بقيادة المنصور، وجيش الثغور وعليه القائد غالب .

دبر غالب مؤامرة لقتل المنصور، لكنها فشلت، ونجا المنصور منها بأعجوبة، وكان لابد للعداء المخفى أن يسفر عن وجهه، فتحرك المنصور بجيوش الحضرة عام (٣٧١هـ/ ٩٨١م) لمحاربة غالب وانتهت المعارك بينهما بموت القائد غالب ، وخلص الأمر لابن أبى عامر، بعد أن أعقب ذلك بالتخلص من القائد الأندلسى الكبير، قائد الجند المغاربة، جعفر بن

---

(١) راجع ابن خلدون جـ ٤ (ص ١٤٧) - طبعة بيروت .

على بن حمدون، ولقد أورد ابن الخطيب ملخصاً لذلك كله بقوله : كان المنصور آية من آيات الله فى الدهاء والمكر والسياسة، عدا بالمصاحفة على الصقالبة حتى قتلهم، ثم عدا بغالب على المصاحفة فقتلهم، ثم عدا بجعفر بن على الأندلسى على غالب حتى استراح منه، ثم عدا بنفسه على جعفر حتى أهلكه، ثم انفرد بنفسه ينادى صروف الدهر ! هل من مبارز؟ فلما لم يجد، حمل الدهر على حكمه، فانقاد له وساعده، واستقام له أمره منفرداً بسابقة لا يشاركه فيها غيره[1].

ولم تنج السيدة صبح، أم الأمير، وصاحبة الفضل الأول على ابن أبى عامر، من عدائه وقسوته، فحينما أرادت أن تتخلص من هذا المستبد، أرسلت أموالاً كثيرة، إلى زيرى بن عطية، شيخ زعماء المغرب، ومن القادة الموالين لبنى أمية، لعله يستطيع أن يعبر بقواته إلى الأندلس، ويخلصهم من تسلط المنصور بن أبى عامر على مقاليد الأمور، ولكن أعين المنصور فى قصر الخلافة، كشفت المؤامرة، وتمكن المنصور من الاستيلاء على الأموال - وكان ذلك سبباً ساعده فى نقل خزائن الأموال من قصر الزهراء إلى قصر الزاهرة، مما زاد في عزلة صبح والأمير هشام، وغدا ابن أبى عامر المتصرف الأول فى أموال الدولة كما جد ابن أبى عامر، فى مطاردة كل من يخشى بأنه من بنى أمية، أو من غيرهم من زعماء العرب والبربر، حتى سحق كل من يصلح منهم للولاية أو

(١) ابن الخطيب أعمال الأعلام (ص ٧٧) .

من زعماء العرب والبربر، حتى سحق كل من يصلح منهم للولاية أو الرئاسة، ومزقهم فى البلاد كل ممزق، معتمداً على ما يعلنه للناس من أنه يحمي الخليفة الشرعى، هشام الثانى، الملقب بالمؤيد بالله، وكان كثيرون من الناس كارهين لهذا التسلط، حتى قال أحد الشعراء :

أبنى أمية أين أقمار الدجى منكم وأين نجومها والكوكب ؟
غابت أسود منكم عن غابها فلذاك حاز الملك هذا الثعلب[١]

أضحى محمد بن أبى عامر وحده سيد الميدان، وصاحب السلطة العليا دون منازع ولا مدافع، كما أصبح الخليفة الشرعى مجرد أداة طيعة، لا يملك من أمر نفسه شيئاً، مفوضاً أمر سلطته جميعها إلى ذلك الحاجب، الذى لم يترك له من الأمر شيئاً، وهذا هو السبب الذى حدا بالمؤرخين إلى إهمال ذكر هشام، والإشادة بالحاجب المنصور، حتى أطلقوا على هذه الفترة اسم الدولة العامرية بدلاً من عصر الخليفة هشام أو غير ذلك من الأسماء .

ومع أن المنصور لم يحصل على لقب الخلافة نفسه، ولم يعزل هشاماً، أو أن يتولى الأمر باسمه شخصياً، أو ينقل ولاية العهد إلى نفسه - إلا أنه بدا يتتشح بملابس الملك والخلافة فاتخذ من مظاهر الملك، وهيئة الخلافة، وأبهة الحكم ما جعله فى نظر الناس حاكماً حقاً، وقد كان

---

(١) محمد عبد الله عنان:دولة الإسلام فى الأندلس جـ٢ (ص ٥٣١) الطبعة ٤ القاهرة ١٩٦٩م.

جهاد المنصور ضد دول نصارى الأندلس :

كان الصراع قوياً ومستمراً بين دولة الإسلام فى الأندلس، وممالك نصارى الأندلس، الواقعة إلى الشمال، ومن ثم فإن القتال بين الجانبين أصبح هو المؤشر الحقيقى على مدى قوة أى من القوتين المتحاربتين، كما كان هذا الجهاد هو العامل الحاسم فى مدى شعبية الحاكم، والتفاف الناس من حوله .

ولقد أدرك محمد بن أبى عامر هذه الحقيقة مبكراً ونهض للقيام بأعبائها ، فتولى قيادة جيش المسلمين لحماية الثغور، وخرج على رأس حملة قوية فى سنة (٣٦٦هـ/ ٩٧٧م) - نفس العام الذى توفى فيه الحكم - واخترق أراضى مملكة قشتالة، ثم عرج على بعض أراضى غرب الأندلس، مستولياً على بعض الحصون، ومدمراً البعض الآخر، ثم عاد إلى قرطبة محملاً بالغنائم والأسرى، ثم كرر الغزو مرة أخرى، متحالفاً مع القائد غالب وتمكنا معه فى نهايات عام (٣٦٦هـ/ ٩٧٧م) من اختراق بسائط قشتالة القديمة واستيلائهما على حصن مولة، وعاد ابن أبى عامر إلى قرطبة محملاً بالغنائم والأسرى، وكانت هاتان الغزوتان حاسمتان فى توطيد خطى ابن أبى عامر نحو السلطة .

أما الغزوة الثالثة فكانت فى عام (٣٦٧هـ/ ٩٧٨م) فقد استغرقت (٣٤) يوماً وشاركه فيها صهره القائد غالب ، وتمكنا فيها من افتتاح حصن المال زنبق ودوخا مدينة شلمنقة، وعاد ابن أبى عامر إلى قرطبة

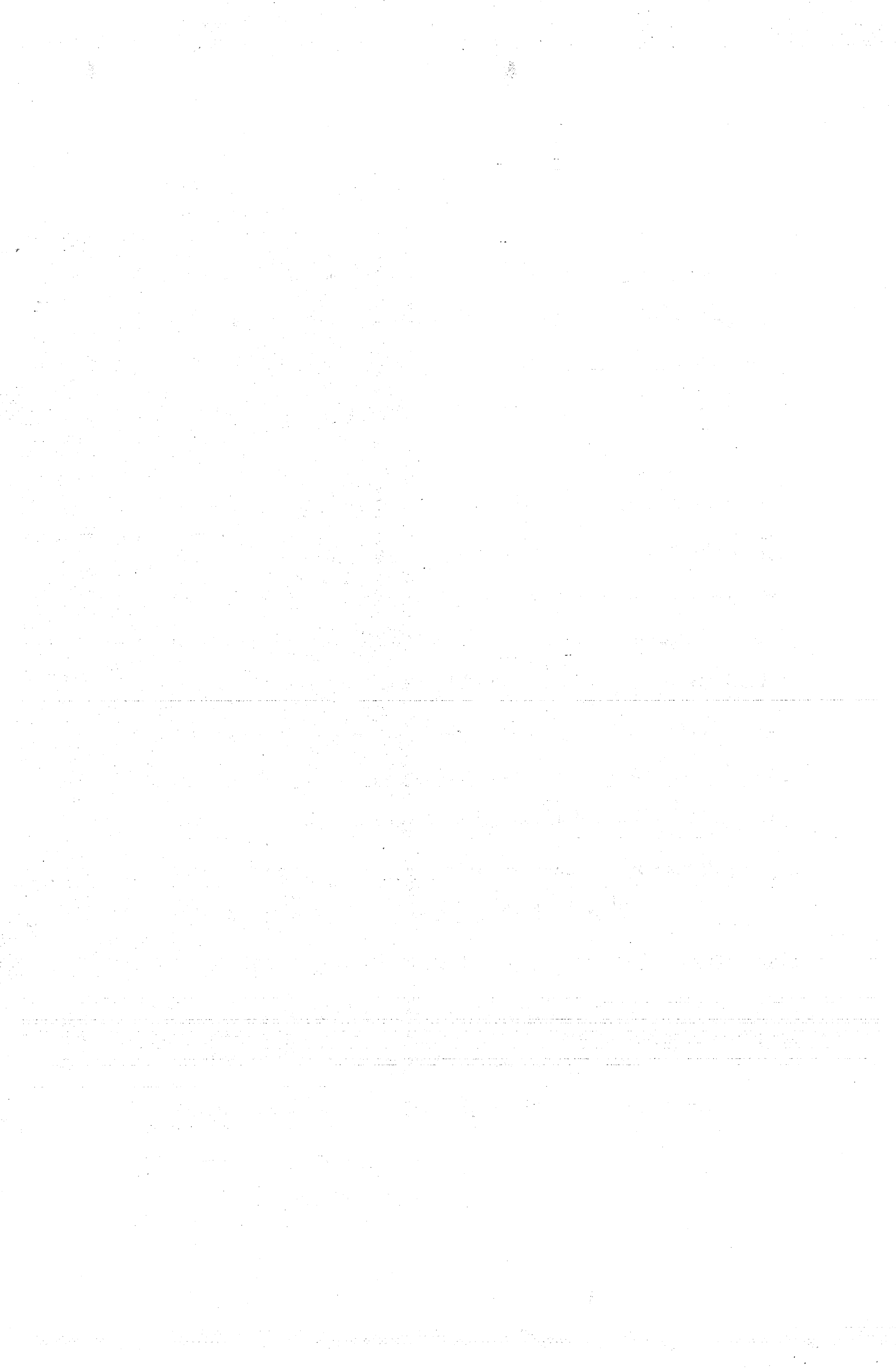
بالكثير من الغنائم والسبى، ورءوس المشركين، ومن ثم رفعه الخليفة هشام إلى خطة الوزارتين ويقول المقرى : ومن أخباره الدالة على إقبال أمره، وخيبة عدوه وإدباره . أنه ما عاد قط من غزوة إلا استعد لأخرى، ولم تهزم له قط راية مع كثرة غزواته شاتية وصائفة، وكفاه بذلك فخراً(١).

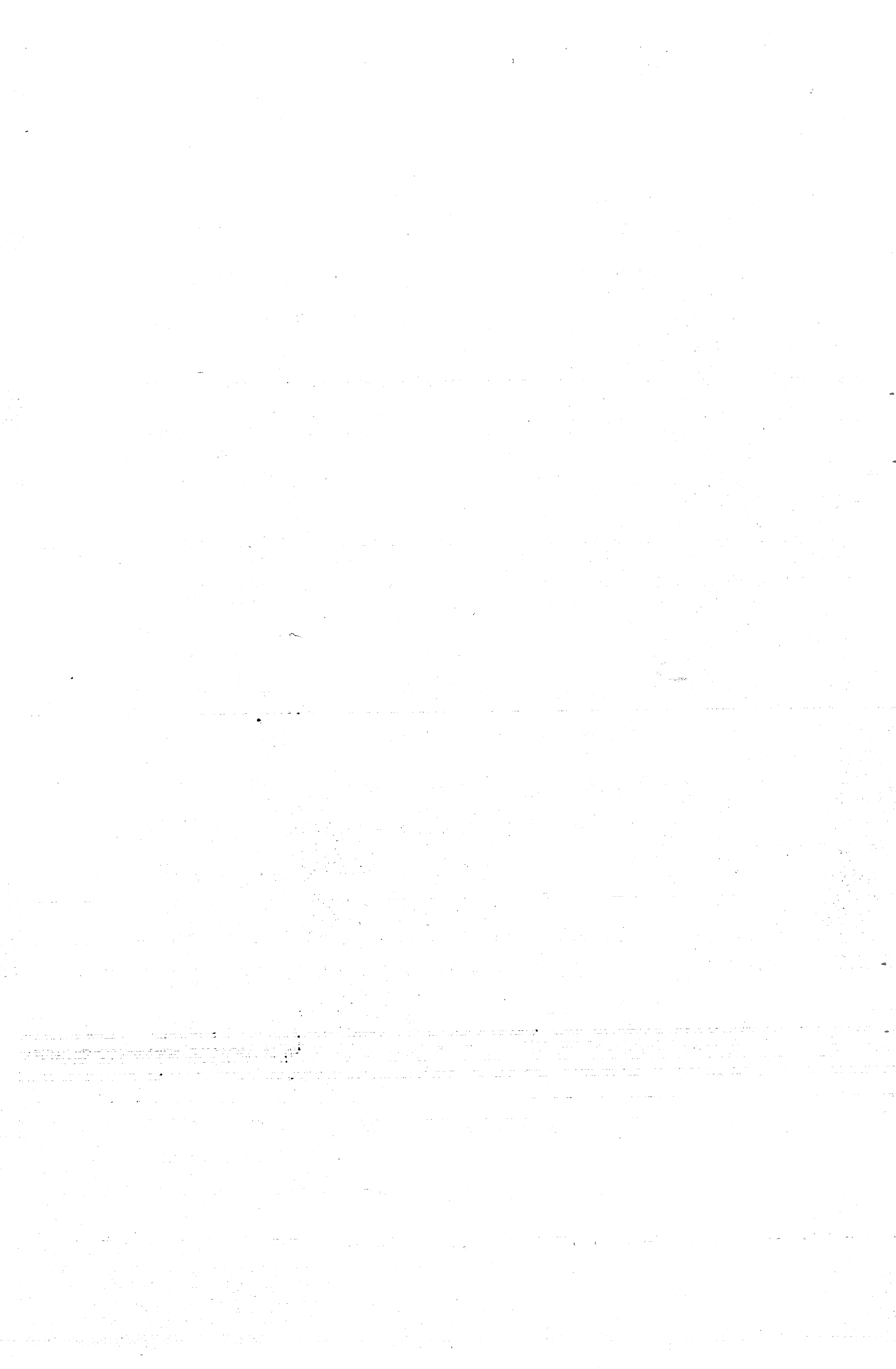
يجمع المؤرخون على أن عدد غزوات المنصور قد بلغت سبعاً وخمسين غزوة طوال فترة تحكمه فى الدولة، وهي خمس وعشرون عاماً، بما يزيد على غزوتين في كل عام، فى الربيع وفى الخريف، كما يجمعون على أنه باشرها جميعها بنفسه، رغم مرضه، وتقدمه فى العمر، كما أنه لم يتعرض للهزيمة فى إحداها على الإطلاق . ولقد كان مسرح هذه الحملات كافة دول نصارى الشمال الأندلسى، فلقد حارب المنصور قشتالة، وليون ونافار وقطالونيا، منفردة ومجتمعة، وأنزل بها جميعاً خسائر فادحة . وحقق عليها من الانتصارات ما لم يسبقه إليه حاكم أندلسى سابق ووصل بجيوش المسلمين إلى أماكن لم يسبق لها الوصول إليها على الإطلاق، وسأكتفى هنا بالإشارة إلى أهم هذه الغزوات .

بعد الانتصار على القائد غالب، أراد ابن أبى عامر معاقبة مملكة ليون بسبب موقفها المؤيد لخصمه . فخرج إليهم غازياً ديار هذه المملكة، وأذاقها مر النكال، وقصد مدينة سمورة الحصيفة الواقعة شمالى شلمنقة وضرب حولها الحصار، ولم يتمكن من الاستيلاء عليها، فقام بتدمير

---

(١) - المقرى - نفح الطيب جـ١ (ص ٥٩٦) .





القرى والحصون المجاورة، ويقدرها دوزى بألف من القرى والدساكر الآهلة بالسكان، كما أن قواته هدمت الأديرة والكنائس فى تلك المنطقة، وهام النصارى على وجوههم فى تلك المناطق الجبلية مما أرغم راميرو الثالث، ملك ليون، على التحالف مع غرسية فرناند، قومس قشتالة، وساتشو ملك نافار، وساد الحلف الثلاثى النصرانى متحداً لمواجهة المنصور عند حصن روطة بالقرب من شلمنقة، وهناك انتصر المنصور انتصاراً رائعاً واستولى على شلمنقة، وأوقع بالنصارى هزائم مروعة (١) .

توجه المنصور بعد ذلك لحصار مدينة ليون نفسها، وهنالك استبسل راميرو والليونيين فى الدفاع عن المدينة، وأصر المسلمون على اقتحامها، ووصلوا بالفعل إلى أبوابها، ولكن الشتاء والبرد والصقيع، وقفوا إلى جانب المسيحيين مما اضطر ابن أبى عامر إلى رفع الحصار والعودة إلى عاصمته (٢).

عاد المنصور إلى قرطبة بعد ذلك النجاح الكبير، وتلقب بالمنصور، وهو لم يكن إلا للخلفاء، ثم عمل على أن يحظى بكل المراسم الخاصة بالخلفاء فسمح بأن يلثم يده كل من يدخل عليه من الأمراء والوزراء، وأمر بالدعاء له على المنابر، ونقش اسمه على السكة، واجتمعت حول

---

(١) دوزى : مع المسلمين فى الأندلس؛ ترجمة حسن حبشى جـ٢ (ص ١١٦) - الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٤م) .

(٢) محمد عبد الله عنان : المنصور السابق (ص ٥٤١) اقتباساً من دوزى (ص ١٦٦) .

شخصه وحول داره، مظاهر السلطنة، ولم يبق للخليفة هشام من الخلافة إلا اسمها.

أما الغزوة الكبرى التالية، وهى الثالثة والعشرون فى ترتيب غزوات المنصور فقد كانت ضد مدينة برشلونة - فى الشمال الشرقى للأندلس، وهى قاعدة الثغر الأعلى، التى سيطر عليها الفرنجة فى أيام الحكم الربضى وأقاموا منها، قاعدة للثغر القوطبى، الذى تحول مع الأيام إلى إدارة قطلونية حشد المنصور لذلك جيشاً ضخماً، وخرج به من قرطبة سنة (٣٧٤هـ/ ٩٨٥م) ومر به ببلاد شرق الأندلس، ومن هناك اتجه شمالاً إلى برشلونة وتمكن من الانتصار على قوات الكونت بوريل - ثم نجح بعد ذلك فى اقتحام المدينة فقلب عاليها سافلها، وأنزل بها وبسكانها خسائر فادحة، وأسر عدداً من نبلائها وعاد بهم بعد ذلك إلى قرطبة .

أما أشهر حملات المنصور، فهى الحملة الثامنة والأربعون، والتى قصد بها مدينة شنت ياقب، أى القديس يعقوب Santiago de Compestela.

والأساطير الأسبانية تؤكد أنه أحد حوارى المسيح، وهو المبشر بالنصرانية فى أسبانيا، وأن جثمانه قد عثر عليه فى أقصى الشمال الغربى لأسبانيا، وأقام النصار ضريحاً وكنيسة كبرى، ما لبثت أن أصبحت أهم المزارات الدينية فى أوربا بعد الفاتيكان، وما زالت على وضعها إلى اليوم . ويعتبره الأسبان « حامى أسبانيا » و « قديسها الأكبر » .

لم يكن الأمر سهلاً على المنصور لبعد المسافة بين مدينة شنت ياقب وقرطبة، ولمكانة هذه المدينة فى نفوس الإسبان خاصة والأوربيين عامة، ومع ذلك لم ينثنى عن عزمه، واستعد استعداداً كبيراً بالجيوش والأساطيل، وأقلع أسطول المسلمين بالسلاح والمشاة من ميناء قصر أبى دانس بالبرتغال حالياً، بينما سار المنصور بنفسه على رأسه فرسانه مخترقاً الأراضى الإسبانية شمالاً حتى بلغ نهر دويره وهناك التقى بأسطوله الذى دخل فى النهر، واستخدم الأسطول كجسر لعبور الجنود، ومن هناك بدأ الزحف بالفرسان والمشاة، مخترقاً بلاد العدو، بما فيها من جبال ووهاد، حتى بلغ مدينة شنت ياقب فوجد سكانها قد فروا منها، فأمر بتدمير المدينة، وتدمير كنيستها العظمى ولكنه حافظ على ضريح القديس يعقوب، وأحاط به من تولى حمايته، وعاد من هناك محملاً بالأسرى والغنائم التى كان من بينها أبواب الكنيسة ونواقيسها، حيث استخدمت فى الزيادة التى أجراها بمسجد قرطبة(١) .

أسبغت هذه الحملات المظفرة على المنصور، هالة من المجد الشعبى الكبير، وأحبه العامة، وذاع صيته، وهابه الكافة، وعمرت بلاد الأندلس بالأسرى والجوارى حتى قال المراكشى أنه « ملأ الأندلس غنائم وسبيا من بنات الروم وأولادهم ونسائهم، وفى أيامه تغالى الناس بالأندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلى والدور، وذلك لرخص أثمان بنات الروم، فكان الناس يرغبون فى بناتهم بما يجهزوهن به، ولولا ذلك لم يتزوج أحد بلغنى أنه نودى على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة، وكانت ذات جمال رائع، فلم تساو أكثر من عشرين ديناراً عامرية (٢) .

---

(١) أحمد مختار حصادى : فى تاريخ المغرب والأندلس (ص ٢٢٢)، طبعة بيروت د . ت .
وانظر كذلك الكثير من التفاصيل عند دوزى : المصدر المشار إليه (ص ١٣٩ - ١٤١) .

(٢) عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ، تحقيق سعيد العريان طبعة بيروت .

موقف المنصور من بلاد المغرب :

كانت سياسة المنصور فى بلاد المغرب امتداداً لسياسة الخلفاء الأمويين قبله وكانت أول ثورة خطرة واجهها المنصور فى بلاد المغرب هى ثورة الأمير بلكين من زيرى الصنهاجي، الذى حاول الاستيلاء على سبتة، لكنه حين قدمها وجد بها استعداداً كبيراً، فانصرف عائدا إلي منطقة المغرب الأدنى وكانت العقبة الكئود الأخرى، التى واجهها المنصور فى بلاد المغرب هى ثورة الأمير الإدريسى، الحسن بن كنون، الذى عاد من مصر، مطالباً بسلطة آبائه الأدارسة فى هذه المنطقة، وأيدته فى ذلك جموع القبائل الزناتية، غير أنه لم يستطع الصمود لهجوم قوات الأندلس، وطلب الأمان، فأعطى له، ثم غدر به وهو فى الطريق إلى قرطبة، حيق قتل بأمر من المنصور .

ومن أخطر العقبات التى واجهها المنصور فى بلاد المغرب هى ثورة الأمير زيرى بن عطية المغراوى، المتوفى (٣٨٦هـ/ ٩٩٦م)، وكان زيرى من أكبر أنصار ابن أبى عامر، لكنه انقلب عليه. وثار ضده، ولعل للسيدة صبح، أم الخليفة هشام، دور فى ذلك، ونجح زيرى من عطية فى الاستيلاء على معظم بلاد المغرب، وطرد عمال المنصور منها .

جهز المنصور حملة كبرى أسند قيادتها إلى واضح، قائد ثغر مدينة سالم، عبرت المضيق سنة (٣٨٧هـ/ ٩٩٧م)، وانضم إلى هذه الحملة كل الموالين للمنصور من أهل المغرب، لكن تمكن زيرى بن عطية ومن معه من هزيمة واضح، وإجباره على التحصن بمدينة طنجة . واضطر

المنصور، أمام هذا الموقف، إلى حشد قوات ضخمة، وأخرج جميع جيوش الأندلس، وأجازها إلى سبتة، وأسند قيادتها إلى ابنه عبد الملك المظفر، وهناك نشبت معارك طاحنة بن عبد الملك وزيرى بن عطية، وخلال تلك المعارك، قام أحد الغلمان باغتيال زيرى بن عطية، وتعرض جيشه للهزيمة والتفكك، ودان المغرب الأقصى جميعه للمنصور بن أبى عامر وقد تمكن المنصور بذلك من فرض السيطرة الأندلسية على معظم أجزاء المغرب، وحقق من النجاح فى هذا الميدان أكثر مما سبقه إليه الخلفاء الأمويون أمثال عبد الرحمن الناصر، والحكم المستنصر بالله .

العلاقات السياسية للمنصور :

واصل المنصور سياسة المصالحة والوفاق مع الإمبراطورية البيزنطية وكذلك العلاقات السلمية مع الامبراطور أوتو الثالث، ملك ألمانيا وإيطاليا، كذلك تخللت حروبه مع ملوك نصارى شمال الأندلس، بعض العلاقات السلمية والمعاهدات، وهى نفس السياسة التى سبقه إليه خلفاء بنى أمية الكبار .

انجازات المنصور الحضارية :

كان المنصور بن أبى عامر كفاءة نادرة فى الزمان والمكان ومن ثم كانت انجازاته الحضارية، داخل الأندلس، عظيمة، كما كانت انتصاراته عظيمة، ويمكن لنا أن نلخص سياسة المنصور الداخلية، وانجازاته الحضارية فى النقاط التالية :

الاهتمام بالعمران : تجلت محبة ابن أبى عامر للعمران فى عدة

مجالات أهمها بناء مدينة الزاهرة التى أوردت المصادر التاريخية قصة بنائها علي النحو التالى : « وابتنى المنصور لنفسه مدينة لنزله سماها الزاهرة، ونقل إليها جزء من الأموال والأسلحة [١]، وقيل أيضاً أنه فى سنة ثمان وستين وثلاثمائة أمر المنصور بن أبى عامر ببناء الزاهرة، وذلك عندما استفحل أمره، واتقد جمره، وظهر استبداده، وكثر حساده وأنداده، وخاف على نفسه فى الدخول إلى قصر السلطان، وخشى أن يقع فى أشطان ... ... وسما إلى ما سمت إليه الملوك من اختراع قصر ينزل فيه، ويحله بأهله وذويه، ويضم إليه رياسته، ويتمم به تدبيره وسياسته، ويجمع فيه فتيانه وغلمانه، فارتاد موضع مدينته المعروفة بالزاهرة، الموصوفة بالقصور الزاهرة الباهرة » .

ويستطرد ابن عذارى فى وصف بناء المدينة والآلات المستخدمة فى هذا البناء واتساع المدينة، وتألقها، وانتقال المنصور وأهله للإقامة بها اعتبارا من عام (٣٧٠هـ/ ٩٨٠م)، وكيف نقل إليها خزائن السلاح وبيت المال، واتخذ بها الدواوين والأعمال، وتسابق الوزراء والقادة، وكبار الناس للبناء حولها حتى وصلت أرباضها إلى أرباض قرطبة، وغدت أكبر من الزهراء التى بناها عبد الرحمن الناصر، وأنه - أى ابن أبى عامر - اشتد ولكن منذ نزل قصر الزاهرة، وتوسع مع الأيام فى تشييد أبنيتها ، حتى كملت أحسن كال، وجاءت فى نهاية الجمال نقاوة بناء، وسعة فناء، واعتدال هواء [٢] .

---

(١) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون جـ٤ (ص ١٤٨) . طبعة بيروت .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٢ الصفحات من (٢٧٥ - ٢٧٧) وانظر المقرى : نفح الطيب جـ٤، الصفحات من (٥٧٨ إلى ٥٨٢)، تحقيق إحسان عباس .

المنصورى والمسجد الجامع فى قرطبة :

يعد مسجد قرطبة الجامع، سجل الفخر لكل حكام الأندلس، منذ بداية إنشائه على يد عبد الرحمن الداخل الذى لم يكمل فى زمانه، وكمله ابن هشام، ثم توالى الخلفاء من بنى أمية على الزيادة فيه، حتى غدا مثلاً يضرب عند الحديث عن الإهتمام بالعمران، وإلى أن كمل على يد نحو الثمانية منهم؛ ولم يرد ابن أبى عامر أن يكون غير سابقيه، بل شاء أن يكون عمله فى الجامع أكبر وأعظم من كل ما أضافه المتقدمون، ولم يكن أمامه من مجال للتوسعة إلا من الجهة الشرقية، الحافلة بدور الناس، فجلس لأرباب هذه الدور واشتراها منهم بالثمن الذى ارتضوه بها وأكثر، حتى أتى بامرأة لها دار بصحن الجامع فيها نخلة فقالت : لا أقبل عوضاً إلا داراً بنخلة، فقال : تبتاع لها دار بنخلة ولو ذهب فيها بيت المال ، فاشتريت لها دار بنخلة .

وكان العمل فى هذه الزيادة لمدة عامين ونصف، وعمل فيها المنصور بنفسه كما استخدم فى العمل فيها أسرى النصارى، ويذكر المقرى، نقلاً عن ابن بشكوال : أنه من أحسن ما عاين الناس فى بنيان هذه الزيادة العامرية، أعلاج النصارى مصفدين فى الحديد من أرض قشتالة وغيرها، وهم كانوا يتصرفون فى البنيان عوضاً عن رجالة المسلمين، إذلالاً للشرك، وعزة للإسلام [١] .

ومن منشآته أيضاً قنطرة قرطبة التى بناها على الوادى الكبير سنة (٣٨٩هـ/ ٩٩٨م)، وقنطرة استجة على نهر شنيل وسط الجبال، حيث تجشم لها أعظم مؤونة، وسهل الطرق الوعرة، والشعاب الصعبة [٢].

---

(١) المقرى : النفح جـ١ (ص ٥٤٦) .

(٢) ابن عذارى : البيان جـ٢ (ص ٢٨٨) .

إلى جانب هذه الأعمال الإنشائية، بذل المنصور مجهوداً رائعاً فى تنظيم الجيش، والأسطول، والاهتمام بهما اهتماماً كبيراً، حتى بلغ الجيش الأندلسى درجة عالية من القوة والتنظيم، كما اهتم المنصور بأمن البلاد الداخلى اهتماماً كبيراً، فضرب بشدة على الخارجين على النظام، وأسرف فى معاقبة المجرمين، وجرت بذلك الأمثال .

المنصور والحياة العلمية فى الأندلس :

استرضى المنصور فقهاء وعامة قرطبة بموقفين رئيسيين هما : إحراق كتب الفلسفة الموجودة بمكتبة الحكم المستنصر بالله، والملاحقة الشديدة لاتباع ابن مسرة الأندلسى، ومع ذلك كان للمنصور اهتماماته العلمية وجهوده فى الوصول بالأندلس من الناحية الثقافية إلى مستوى أرفع مما كانت عليه خلال فترة خلافة سابقيه، فعمل على تشجيع العلم والعلماء، ويلخص ذلك فى النقاط التالية : الحث على تأليف الكتب، والإثابة على ذلك بكرم وسخاء، وجعل له مجلساً علمياً أسبوعياً يلتقى فيه مع العلماء والأدباء مما أثار حماس الحركة الأدبية على عصره، واختم المنصور اهتماماً خاصاً بالشعراء، وأفرد لهم ديواناً منظماً يسجل فيه الشعراء وما يصرف إليهم . ولقد شهد عصر المنصور جملة من الأعلام العظام [١].

وفى سنة (٣٨١هـ/ ٩٩١م) رشح المنصور ولده عبد الملك للولاية،

---

(١) محمد عبد الحميد عيسى تاريخ التعليم فى الأندلس (ص ١٤٧) وما بعدها .

وقدم أخاه عبد الرحمن للوزارة، وفى سنة (٣٩٢هـ/ ١٠٠١م) توفى المنصور بن أبى عامر وهو ابن خمس وستين سنة بعد أن ترك تاريخاً حافلاً، وصفه أحدهم بقوله :

آثاره تنبيك عن أخباره ... حتى كأنك بالعيون نراه
تا الله ما ملك الجزيرة مثله ... حقاً ولا قاد الجيوش سواه (١)

ولقد دفن ابن أبى عامر بمدينة سالم، وظل قبره بها معروفاً لسنوات طويلة، وتولى الحجابة من بعده ابنه عبد الملك الملقب بالمظفر عبد الملك المظفر من المنصور (٣٩٢ - ٣٩٩هـ) .

تولى عبد الملك منصب الحجابة عقب وفاة والده، وتلقب بالمظفر بالله، إذ عمد إلى العودة بالجيش إلى قرطبة، واللقاء مع الخليفة هشام الثانى، وحصل منه على مرسوم الحجابة، وجلس فكان والده يدبر الأمور، ونفذت الكتب بذلك إلى كافة أنحاء الأندلس والمغرب .

ولقد سار عبد الملك على درب سياسة والده تجاه كل من الشمال الأسبانى أو الجنوب المغربى، ففى شمال الأندلس لم يتوقف عبد الملك عن القيام بالغزو والجهاد فى هذه المناطق حتى أجبرها على احترامه، والالتزام بكل العهود التى سبق أن قطعت احتراماً له ولوالده .

وصلت غزوات عبد الملك لهذه البلاد إلى سبعة غزوات، كللت جميعها بالنجاح والانتصار ولم يكن الأمر يختلف عن ذلك فى العدوة المغربية، فبسط نفوذ الأندلس على هذه البلاد .

---

(١) البيان المغرب جـ٢ (ص ٣٠١) .

أما فى معظم نواحي الحياة الأخرى، فقد سارت على نفس المنوال الذى كانت عليه أيام المنصور، وخاصة اهتمام المظفر بالعلم والعلماء، فقد قام بزيارة بعضهم فى أماكن تدريسهم ، ونقل بعضهم للتدريس فى مساجد قرطبة، وبالجملة فقد حكم عبد الملك سبعة أعوام كانت كلها أعياداً، يصفها ابن حيان بقوله : انصب منه الإقبال والتأييد على دولته انصباباً، ما عهد مثله فى دولة، وسكن الناس منه إلى عفاف ونزاهة، ونقى سريرة ووثوق فى بعد همته، اطمأنوا إلى جنبه، فى السر والعلانية فباحوا بالنعم، واستثاروا الكنوز، وتناهوا فى الأحوال، وتناغوا فى المكاسب، وتحاسدوا فى اقتناء الأصول، وابتناء القصور، وغالوا فى الفرش والأمتعة، واستفرهوا المراكب والغلمان، وغالوا فى الجوارى والقيان فسمت أثمان ذلك فى تلك المدة، وبلغت الأندلس فيها الحد الذى فاق الكمال، فمهد تلك الدولة فى احتشاد النعم عندها، وارتفاع حوادث الغير عنها ... فى كنف ملك مقتبل السعد، ميمون الطائر، غافل عن الأيام، مسرور بها تتنافس فيه رعيته من زخرف دنياها، فاجتمع الناس على حبه، ولم يدهنوا فى طاعته، ورضى بالعاقبة منهم، وآتوه إياها فصفى عيشه، وانشرح قلبه، وخلصه الله من الفتنة [١] .

---

(١) البيان المغرب جـ٢ (ص ٣)، عنان : دولة الإسلام جـ٢ (ص ٦٠٨) .

سقوط الدول العامرية :

لم يطل عهد عبد الملك المظفر أكثر من سبع سنوات وشعر بالمرض وهو فى غزوته السابعة والأخيرة عند مدينة سالم وهى المدينة التى دفن بها والده المنصور، وعادوا به محمولاً إلى الزاهرة، وما لبث أن وافته المنية فى صفر من عام (٣٩٩هـ) أكتوبر (١٠٠٨م)، وهو فى حدود الرابعة والثلاثين من العمر .

تولى الحجابة بعد عبد الملك أخوه عبد الرحمن الملقب من العامة بشنجول؛ نسبة إلي جده الملك شانجة، ولم يكن عبد الرحمن محبوباً من العامة للكثير من الصفات السيئة التى تصفه بها المصادر التاريخية . نعم، لم يكن عبد الرحمن فى كفاءة والده أو أخيه عبد الملك، ومع سوء خلقه وقلة خبرته، فإنه طمح إلى ما لم يطمحا إليه، لقد طمح عبد الرحمن فى منصب الخلافة ذاته، متخطياً بذلك القواعد العامة التى سار عليها المسلمون منذ سقيفة بنى ساعدة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

لقد سار المسلمون على قاعدة « الأئمة من قريش » ولم يشذ عن هذه القاعدة حتى هذا التاريخ لكن عبد الرحمن لم يفكر فى ذلك، فأجبر الخليفة هشام الثانى على أن يصدر مرسوماً خلافياً بتعيين عبد الرحمن ابن المنصور ولياً للعهد من بعده، وكان ذلك انقلاباً كبيراً ، ضغنت به قلوب الخاصة والعامة، وإن لم يبد ذلك على وجوههم .

كان حصول عبد الرحمن على ذلك المرسوم، سبباً فى المزيد من خيلائه

وكبريائه من ناحية، كلما كان سبباً فى احتدام عوامل السخط والتمرد والثورة فى نفوس المحيطين به، والبعيدين عنه إلى حد سواء ودون أن يتنبه عبد الرحمن إلى ذلك الخطر المحدق به، أعماه غروره عن الخطر. واستعد للخروج للغزو مقلداً فى ذلك أخاه عبد الملك، لكنه ما أن وصل إلى طليطلة، ويبتعد بجيشه عن العاصمة، حتى ثارت العامة بقيادة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، واستولت على قصر الخلافة بقرطبة، وقبض على الخليفة هشام وأعلن تنازله عن الخلافة، وتلقب محمد بن هشام بألقاب الخلافة وعمدت العامة إلى الاستيلاء على مدينة الزاهرة وما بها من سلاح وأموال، وتم تدمير المدينة تدميراً كاملاً، كما كانت تهجس بذلك خواطر بانيها، المنصور بن أبى عامر .

عاد عبد الرحمن بجيشه، متجهاً إلى قرطبة، وفى الطريق تسرب معظم قادة الجند، وتخلى عنه غالبية الجنود، وحين اقتراب عبد الرحمن من العاصمة الأندلسية لم يكن معه، إلا أحد زعماء النصارى، وقد قبض عليهما، وقتلا قبل الوصول إلى قرطبة وبذلك انهارت الدولة العامرية انهياراً كاملاً، ودخلت الأندلس فى فترة مظلمة من تاريخها، تعرف بفترة الفتنة والتي استمرت ما يقرب من عشرين عاماً، تحطمت خلالها دولة الإسلام فى الأندلس وحلت محلها مجموعة من الدويلات الصغيرة تعرف تاريخياً باسم ممالك الطوائف .

الحضارة الأندلسية : مرحلة التكوين

للدكتور / محمد عبد الحميد عيسى
كلية التربية ـ جامعة عين شمس

الحضارة الأندلسية : مرحلة التكوين

« التاريخ صانع الانسان ، والبشر صناع التاريخ » بهذه العبارة الخالدة استهل المؤرخ الاسبانى ذائع الصيت ، كلاوديو سانشيث البرنوس كتابه القيم « اسبانيا لغز تاريخى » (١) لينطلق منها الى دراسة العوامل المتبادلة بين الانسان والبيئة فى صنع التاريخ ، وليبين لنا ان اسبانيا التى تعيش اليوم ما زالت وستظل لغزا ما لم نعتمد فى دراستها على كل تاريخها ، وخاصة تاريخ تلك القرون الثمانية التى عاشتها فى ظلال الاسلام حينا وفى صراع معه أغلب الاوقت ، لأنها - أى اسبانيا - بعظمتها وجلالها وبما فيها من عيوب ونقائض وليدة ذلك الصراع المستمر خلال الأعوام الثمانمائة »(٢)

وليس ذلك موضوع دراستى ، لكننى أردت ذلك للاشارة الى ذلك اللغز التاريخى أو على وجه التحديد الى اسبانيا الاسلامية ، الاندلس التى أراها وبحق لغزا تاريخيا محيرا ، الهم حملة الاقلام كثيرا ، وسيظل يمدهم دائما بوحيه وأسراره مما يجعل الكتابة فى هذا المجال سحرا لايقاوم رغم تقادم الزمان ومضى الأيام.

لقد ارتفع الاندلس حضاريا ، فى العصور الوسطى الى درجة رفيعة المستوى والى مكانة سامقة اعترف بها الاصدقاء والاعداء على حد سواء . فهى أندلس التاريخ وهى الاندلس المفقود وهى الاندلس الموعود ، وهى كما قال فيها ابن خفاجة :

يا أهل اندلس لله دركم	ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد الا فى دياركم	ولو تخيرت هذا كنت أختار
لا تختشوا بعدها أن تدخلوا سقرا	فليس تدخل بعد الجنة النار

ويقول آخر :

ان للجنة في الأندلس مجتلى حسن وريا نفس
فسنا صبحتها من شنب ودجى ظلمتها من لعس
فاذا ماهبت الريح صبا صحت : واشوقي الى الأندلس (٣)

وهي أيضا في نظر المؤرخين الاسبان : هذا الاندلس ، مركز ومنار أشرق ذات يوم ، وكانت اشراقته مطمح الأطماع ، ومحط الابصار النهمة الجامحة الى العلم ، في أي فرع من فروع المعرفة ، آه كم كانت تلك الفترة زاهية ومقدسة » (٤) .

ولا أهدف الى حصر ما قيل في هذه الحقبة التاريخية ، لأن ذلك ليس سرا بل هو أمر شائع في كافة الكتابات المتعلقة بهذا العصر ، انما السر الحقيقي هو ذلك التنازع والخلاف في تحديد الأسباب والعوامل التي ادت الى قيام هذه الحضارة ، وليس ذلك بالأمر الشاذ ، فالحضارة الاندلسية بما سطرته على جبين التاريخ سواء في مجال الكم أو الكيف جديرة بأن تثير الخلاف بين المؤرخين وان تبعث على الجدل والنقاش الدائمين ، وذلك أيضا أحد أسرار عظمتها الخالدة .

يضاف الى ذلك ان النهاية المأسوية التي أحاطت بهذه الحضارة قد سكبت المزيد من الزيت على نار الآراء المشتعلة ، وفتحت صنابير عدة من الدراسات والأبحاث التي تتناولها .

انصبت جهود الباحثين والدارسين في مجال الحضارة الاندلسية على ابراز أصولها ، ودرجة تطورها وكذلك علاقتها بالثقافة والحضارة القوطية والرومانية ، مدى صلتها بالثقافة الشرقية ، دورها التأثيري على الحضارة الأوربية في العصور الوسطى ومدى التأثير فيما بعد على النهضة الأوربية الحديثة . وفي كل مجال من هذه المجالات تباينت آراء العلماء واختلفت ، وحاول كل منهم تأييد وجهة نظره التي يحبذها ؛ فالمستشرقون عامة ، والاسبان منهم خاصة ، يحاولون اضفاء دور هام للأحوال الثقافية والحضارية

السائدة فى أسبانيا القوطية ، كما يحاولون اسناد دور أساسى فى هـــذه الحضارة الى العوامل البيئية الاسبانية الى حد التطرف الذى يقلل ان لم ينكر دور العرب المسلمين فى صنع هذه الحضارة .

ويزداد الحديث فى اسبانيا يوما بعد الآخر عن أهمية الفترة السابقة أى عصر الرومان والقوط فى بناء الحضارة الاسلامية فى الاندلس ، ويؤكد ذلك - على سبيل المثال - الدكتور سلفادور غوميث نوغاليس - دون الاعتماد على وثائق واضحة - فيقول خلال حديثه عن الفلسفة فى اسبانيا الاسلامية « ليس سهلا على الاطلاق الاشارة الى وثائق تاريخية الدلالة على هذا التأثير بالنسبة للفلسفة الاسبانية الاسلامية ، وذلك لسببين واضحين هما : الاهتمام المتزايد لعدد كبير من المؤرخين العرب باخفاء ما فى أصولهم وكتاباتهم بما يرجع لاسبانيا قبل الاسلام وذلك بغرض عدم اثارة الشك حول معتقداتهم وأفكارهم ومن هنا فان اجتهادهم فى الصمت عن كل ما هو اسبانى أصلا فى كتاباتهم ومعتقداتهم يعتبر شيئا بديهيا » .

أما الصعوبة الثانية فانها تأتى من أن الكثير من المصادر الثقافيـــة الاسلامية تتحدث عن اسبانيا ، لا عن الطريق المباشر للاسبان ، ولكن عن طريق مصادر شرقية استطاعت أن تنقل هذه الافكار فى مضمون ثقافى مختلف عن الاسبانى ، بمعنى انه أصبح من الصعب جدا - على سبيل المثال - التفريق بين ما خلفه الرومان فى الحضارة الاسلامية عن طريق بيزنطة أو عن طريق المستعمرات الرومانية الموجودة فى اسبانيا . (٥)»

ويواصل نوغاليس عرض أفكاره قائلا : اذا كان قد سمح بالقول بأن حضارة اسبانيا الاسلامية تتمتع بصفات خاصة ، وشخصية مستقلة فعلينا أن نحلل الى أى مدى تأثرت هذه الشخصية بالعوامل البيئية المحضة أو بالمناخ الذى ربطها بأناس ذوى سجايا مختلفة » ويذهب فى هذا الى الاستشهاد بما قاله سانشيث البرنوس فى كتابه « اسبانيا قبل الاسلام - اسبانيا الاسلامية » والذى عرض فيه أعداد العرب الذين قدموا الى شبه الجزيرة

الايبيرية فى بداية الأمر حتى يصل الى قول المؤرخ الاسبانى P. Perez بأنه « لم يدخل فى التركيب الاجتماعى للمسلمين الاسبان من العناصر العربية الاصلية الا جرعات متناهية الصغر » (٦) ثم يواصل البروفيسور نوغاليس حديثه الى أن يختتمه بعبارة سانشيث ألبرنوس القائله : نتيجة لهذا كله فمن المفروض أن التأثير العربى فى العادات والثقافة كان سلبيا خلال عشرات وعشرات السنين فى بلد كامبانيا ذات الأصل والحياة والثقافة الغربية » (٧)

والطريق طويل بين المؤرخين الاسبان فى درجة وضع المسلمين الاسبان ضمن اطار الحضارة الاسبانية ، الى ان يصل الأمر الى تبنى علامتهم الكبير خوليان ريبيرا J.R. فكرة الأصل الاسبانى لمسلمى اسبانيا ، فهو يرى : أن العرب الذين دخلوا شبه الجزيرة أيام الفتح ، انما دخلوا ـ كما هو معروف ـ على هيئة جنود ، ولم ينتقلوا اليها كأسر ، وكان لابد لهؤلاء المحاربين من أن يكونوا البيوت وينجبوا النسل ، وكانت الاسبانيات الجانب الآخر فى تكوين تلك الأسر ، وانجاب ذلك النسل ، وقد أقبل على هذا الزواج المختلط أول أمير عربى ولى أمر الاندلس بعد الفتح ، وهو عبد العزيز بن موسى بن نصير ثم أقبل عليه غيره من العرب ، حيث شرع لهم أمراؤهم سنة الزواج بالاسبانيات ، وليس من المبالغة القول بأنه قد ثبت أن جميع أمراء وخلفاء الاسرة الاموية فى الاندلس كانوا أبناء لغير عربيات ، واذا كان الولد ـ فى الحقيقة ـ ابنا لأبيه كما هو ابن لأمه ، واذا كانت خصائص الوراثة يأخذها الوليد عن أسرة أمه ، كما يأخذها عن أسرة أبيه ، اذا كان ذلك ، أمكن القول بأن العرب الداخلين قد ذابوا فى الجنس الاسبانى حتى لم يعد للواحد منهم سوى قطرات قليلة من الدم العربى تمتزج بدمه الاسبانى الذى يكاد يكون خالصا » (٨)

ويتصدى المؤرخون والكتاب العرب للدفاع عن عروبة الاندلس ، وعن نسبة الحضارة الاندلسية الى الحضارة العربية ، وحتى لا تفقد هذه الحضارة درة ثمينة ولؤلؤة نادرة وعقدا فريدا مثلما هى الحضارة الاندلسية فينبرى الدكتور أحمد هيكل للرد على خوليان ريبيرا مفندا نظريته فى معظم أجزائها التى ، وان كانت تعتز بالاندلسيين وتحاول كسبهم الى التراث الاسبانى .

الا أننا لا نستطيع أن نجرد الاندلسيين من عروبتهم ، ولا نستطيع ان نسلم بالتجربة التى أجراها على الاسرة الاموية وحاول من خلالها ان يثبت ذوبان الدم العربى فى الدم الاسبانى ، وذلك لأننا لانتصور أن كل الذين جاءوا الى الاندلس من الرجال قد تركوا نساءهم فى المشرق ولأننا لانتصور ان الوفود الى الاندلس كان من تصيب الرجال دون النساء ، ولأننا أيضا لانتصور ان كل عربى فى الاندلس كان يتجب دائما من اسبانية جديدة ، وان نتاجهم دائما كان من رجال يتزوجون بدورهم من اسبانيات ٠

ثم ينطلق الدكتور هيكل الى اثبات انه اذا كان الاندلسيون من حيث الأصل شعبنا تجرى فيه دماء عربية ، ودماء أسبانية ، وان كانوا مولدين جنسا ،فهم عرب فى قوميتهم ، وأنهم عرب فى عقيدتهم وثقافتهم ولغتهم وكل جوانب حضارتهم ، ويختتم قائلا : وليس لنا الا ان نشكر للمستشرق الاسبانى ومن جاراه اعجابهم بابناء عمنا الاندليسين ومحاولة الصاقهم بهم وضمهم وتراثهم الى ما للاسبان من تراث ٠

أما عن تأثير حضارة ما قبل الاسلام فى اسبانيا الاسلامية فيتصدى لها الدكتور الطاهر مكى بعنف شديد فيقول فى مقالة له عن الحضارة الأندلسية:

لم يجد المسلمون فى البلاد المفتوحة حضارة متكاملة ، وانما بقايـــا حضارة غاربة ، تعيش منعزلة منزوية ، وعناصر متعددة ، كل واحد منها يخشى الآخر ويستعبد القوى منها الضعيف ، ثم يواصل حديثه عن التركيب السكاني البلاد ، ذاكرا العصر القوطى وما يمكن ان تجد فيه من تفاوت بين طبقات الحكام والمحكومين الى أن يصل الى قوله : هذا العصر القوطى بكل أعوامه لم يخلف وراءه حضارة متميزة فى أى جانب ، لا نعرف له ثقافة ولا كتابة ولا أدبا ، والمكتنبات قليلة ، ولدينا عنها اشارات شاحبة ، ويتحدث عنها الباحثون افتراضا ، لم يصلنا منها شىء ويظن أنها كانت ملحقة بالاديرة ٠ (١٠)

ولست فى مجال عرض باقى الآراء التى وصلت الى حد دراسة الأدب الأندلسى كجزء من الأدب العباسى امعانا فى دمج الحضارة الاندلسية ضمن

الحضارة الشرقية ، ولنعد بعد أن أخذنا القول بعيدا الى حضارتنا هذه التى على الرغم من كل ما يقال عن عوامل تأثرها بالمشرق الاسلامى ، أو اعتمادها على الثقافة الرومانية القوطية أو جمعها بين هذين المصدرين ، الا أنهـا قد فرضت نفسها على التاريخ كحضارة أندلسية ليست شرقية ولا غربية ، وأنها اتشحت بثيابها الخاصة ، واكتست ملامحها المستقلة التى تميزها عن الحضارات المعاصرة لها أو التى استمدت أصولها منها •

ولا شك أن هذه الحضارة ترجع الى عناصر انسانية متباينة من ناحية الأصل العرقى ، كما أنها من ابداع ما عات انسانية تختلف فيما بينهـا من الناحية الثقافية والدينية ، وهى بذلك تطرح علينا سؤالا هاما جدا عن المعنى الذى يقصد به القول « الحضارة الاندلسية » •

هل هى الحضارة التى تطورت على أرض الأندلس ـ أرض الاندلس فقط ـ بصرف النظر عن الأصل العرقى أو الوطن الأصلى لمن ابدع أو من ساهم فى بناء هذه الحضارة ؟ وفى هذه الحالة ، هل نستثنى من ذلك ، تلك الجهود التى بذلها الاندلسيون على أرض غير أندلسية أثناء رحلاتهم ، أو فى المناطق التى اتخذوها موطنا لاقامتهم ، ومن ثم نخرج كتابات الحميدى ، وأبى بكر الطرطوشى وأثير الدين بن حيان وغيرهم ممن كتبوا بعيدا عن أرض الأندلس •

ومن ناحية أخرى هل الحضارة الأندلسية ، نتاج ابداع الأندلسيين سواء فى داخل أرض الأندلس أم خارجها ؟ وفى هذه الحالة فأننا نتوقف أمام صعوبة تحديد الأندلسى ، وهل هو المولود على أرض الأندلس ، أم من اتخذها موطنا ودارا ، من دخلها مع الفتح أو بعده ، من هاجر اليها عبر القرون الطويلة من أمثال زرياب وأبى على القالى ، وصاعد البغدادى وغيرهم ، وهم ولا شك من أعلام هذه الحضارة وعمدها ونجومها البارزة •

نقطة أخرى ـ غاية فى الاهمية ـ هل نقصر القول فى الحضارة الاندلسية على نتاج المسلمين هناك أم يمتد التعرف ليشمل جهود أبناء الملتين المسيحية واليهودية والذين أدوا ضمن اطار هذه الحضارة دورا رائعا ومجهودا لا ينكر •

ان ذلك كله هو الذى يعطى الحضارة الاندلسية طعما خاصا ومذاقا متميزا عن ما عاصرها من الحضارات ، كما أنه يعطيها نكهة خاصة عن الحضارة الاسلامية فى المشرق لأنها حضارة ساهمت فى تكوينها أجناس متباينة من البشر ، وأجواء مختلفة من الطبيعة ولذلك فان ظلها يمتد ليشمل كل ما أبدعته قرائح الاندلسيين على أرض الأندلس أو خارج هذه الأرض ، كما أنه يتسع ليضم أفئدة من قدموا الى الأندلس مع الفتح أو بعده أو من هاجروا الى هناك بعد أن حرموا مناخ الابداع فى بلادهم الأصلية ووجدوا فى الاندلس الأرض والمناخ اللذين أطلقا ملكاتهم وخلدا أسماءهم فى تاريخ الحضارة الانسانية ويتسع أيضا ليضم بين جوانحه ما كتبه أبناء الديانات السماوية الثلاث اليهودية والمسيحية والاسلام ٠

اعتاد المؤرخون والكتاب على تقسيم الحضارة الأندلسية الى فترات زمنية تتناسب والفترات التى ينقسم اليها التاريخ السياسى للأندلس وكتبت بعض المؤلفات عن الحضارة الاندلسية فى عصر معين ، أنظر مثلا كتاب الدكتور حسن على حسن « الحضارة الاسلامية فى المغرب والاندلس : عصر المرابطين والموحدين » ٠ (١)

وأميل الى تقسيمها الى ثلاث فترات رئيسية دون أن يعنى ذلك الفصل بين هذه الفترات اللهم الا بغرض الدراسة لا أكثر ٠

١ - فترة التكوين : وهى الممتدة تاريخيا من عام ٩٥ هـ الى ١٨٠ هـ ٧١٤ - ٧٩٦ م ٠

٢ - فترة النمو والتطور : من ١٨٠ هـ الى ٣٠٠ هـ ٧٩٦ - ٩١٢ م ٠

٣ - فترة النضج والازدهار : وهى ما بعد عام ٣٠٠ هـ ٩١٢ م ٠

فترة التكوين : تبدأ بعودة القائدين موسى بن نصير وطارق بن زياد الى بلاد المشرق وتولى عبد العزيز بن موسى أمور الاندلس فى عام ٩٥ هـ / ٧١٤ م ، وتستمر حتى نهاية عصر الأمير هشام بن

عبد الرحمن الداخل ، المتوفى سنة ١٨٠ هـ ٧٩٦ م وهى فترة شغل تاريخها السياسى كثير من الحروب والغزوات سواء لاستكمال فتح الاندلس ، أو فى محاولات فتح جنوب فرنسا، كما أنها حفلت بالثورات الداخلية والصراع بين القبائل العربية والبربرية .

وشهدت هذه الفترة كذلك من الناحية السياسية ، استقلال الاندلس عن جسم الدولة الاسلامية حين تمكن عبد الرحمن الداخل فى عام ١٣٨ هـ ٧٥٦ م من الاستيلاء على قرطبة وقضائه جل فترة حكمه فى صراع مع العناصر المناوئة ، وفى تثبيت عرش بنى أمية فى الاندلس ويمكن تبين ذلك كله بتفصيل واسع فى التاريخ السياسى لهذه الحقبة التاريخية .

ومع ذلك فان هذه الفترة هى التى شهدت وضع البذور الأولى للحضارة الاسلامية فى الاندلس ، حيث أن الجيوش التى دخلت الى الاندلس ، وان كانت فى غالبيتها من البربر - الا أنها كانت مصحوبة بجموع كبيرة من العرب، وخاصة الجيوش التى عبرت مع موسى بن نصير ، ويقدرها المؤرخون بثمانية عشر ألفا من العرب وكان هؤلاء العرب يحملون معهم على الاقل - غير ثقافة البيئة العربية ثقافتهم الدينية من حفظ القران الكريم أو بعض سوره وأجزائه ، وحفظ بعض الاحاديث النبوية ، وكذلك بعض ما كان يجرى فى بلادهم الأصلية من اشعار أو أحاديث أدبية ، وفى هذا المجال فاننى أود الاشارة الى نقطة أساسية بالنسبة لثقافة العرب القادمين الى الاندلس ، وتتمثل هذه النقطة فى أن الجيوش التى وصلت الى هناك ، انما هى من الجيل الاسلامى الرابع ، وأقصد بذلك أن الفتح الاسلامى للاندلس قد تم خلال الأعوام العشرة الأخيرة من القرن الأول الهجرى ، أى ما يزيد على قرن من الزمان منذ ظهور الديانة الاسلامية وما يقرب من حوالى ٧٥ عاما من الاستقرار فى بلاد الشام ومصر وأرض الرافدين. ولا شك أن الأجيال التى دخلت الاندلس هى التى تربت ونمت فى أحضان تلك الأجواء الثقافية النامية فى تلك البلاد . ومن ناحية أخرى ، فأن الفترة السياسية كانت تشهد نوعا من الاستقرار فى عهد الخليفتين

عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك وشهدت تبعا لذلك نوعا من الأزدهار الثقافى فى المشرق ، وقد يساعدنا على تصور الحالة الثقافية التى جاء بها العرب الى اسبانيا مع الفتح مباشرة أو بعده ٠

من ناحية أخرى ، يتفق المؤرخون على أن الجيوش الاسلامية التى توجهت لفتح الشمال الافريقى ، وبعد ذلك الاندلس ، كانت مصحوبة بمجموعة من الصحابة والتابعين ٠ واذا لم يكن مؤكدا وصول بعض الصحابة الى الاندلس الا أنه من المؤكد عبور بعض التابعين اختلف المؤرخون فى اعدادهم وأسمائهم، وينقل الحميدى عن عبد الملك بن حبيب من « ١٧٩ هـ - ٧٩٦/٨٥٣ م » ملاحظة يقول فيها : ودخل الاندلس من التابعين « سوى من لايعرف نحو من عشرين رجلا ، بهؤلاء وغيرهم الى مرسى بن نصير (١٢) وعبارة أبن حبيب « سوى من لايعرف » تبين أن هناك غيرهم قد دخلوا الى الأندلس وربما جاء بعض التابعين بعد الفتح بغرض المشاركة فى الجهاد ٠

ولقد كانت المهمة الأساسية لهؤلاء التابعين هى نشر الدين الاسلامى واللغة العربية بين المسلمين الجدد ، وفى تلك الأراضى التى افتتحها المسلمون ومن هنا فانه من الممكن القول - دون مبالغة - ان الحياة الفكرية فى الاندلس قد بدأت بعد أعوام قليلة من الفتح ، وان « اتسمت بطابع القلة والبساطة وتركزت فى تعلم اللغة العربية والدين الاسلامى » (١٣) ٠ ومع بدايات القرن الثانى الهجرى ، الثامن الميلادى ، شهدت منطقة شمال افريقيا والاندلس ، ثورة البربر ضد العرب مما حدا بالخلفاء الأمويين الى ارسال جيوش عربية كثيفة الى هذه المناطق لاخماد هذه الثورة ، وعبرت منها الى الاندلس قوات كثيرة العدد منها الطلعة المعروفة تاريخيا باسم طلعة بلج القشيرى ، وكان جلها من عرب الشام وتمكنت هذه القوات من اخماد ثورة البربر فى الاندلس وساهمت فى تكثيف الوجود العربى هناك ومن ثم سرعة تعريب هذه المنطقة ٠

كما أن هذه الفترة - من ناحية أخرى قد شهدت فى بلاد المشرق الاسلامى ازدياد ثورات الخوارج والشيعة ، واحتدم الصراع بين الدولة والخارجين

عليها ، وفى ظل هذه الظروف ، ربما كانت البلاد المغرب والاندلس ملجأ أقل خطرا، فلجأ اليها بعض الفارين من وجه الدولة ، يحملون معهم آراءهم وأفكارهم الدينية وانتقلت هذه الافكار ، بطبيعة الحال ، الى الاندلس لتلعب دورها فى الصرع الدائر هناك ، ولتساهم فى نفس الوقت فى توليد الافكار ، وتصارع الآراء الذى يشكل الاساس - دائما - لبناء الحياة الفكرية والتطور الثقافى . (أنظر فجر الاندلس ص ١٤٨ وما بعدها) .

والى جانب هذه العوامل التى نعتقد أنها جذبت الكثيرين من العرب وغيرهم الى اسبانيا ، فاننا نضيف الى ذلك طبيعة وجغرافية الاندلس ، بموقعها ومناخها ، والتى لقيت قبولا كبيرا من العرب حتى انهم شبهوها فى كتاباتهم وأشعارهم ببلادهم الأصلية وأطلقوا على المدن الاندلسية أسماء مدنهم الشامية ويقول عنها أبو عبيد الله البكرى : الاندلس شامية فى طبيعتها وهوائها ، يمانية فى اعتدالها واستوائها هندية فى عطرها وذكائها ، أهوازية فى عظم جباتيها صينية فى جواهر معادنها ، عدنية فى منافع سواحلها . (١٤)

ومن هنا فاننى أتفق مع تصور الاستاذ الدكتور حسين مؤنس فى أن الاندلس قد جذبت اليها أعدادا هائلة غير معروفة من العرب، نستطيع أن نلمسها فى صيحاتهم المدوية فى أرجاء الاندلس ، وثوراتهم التى لا تكاد تنقطع كما نتبين ذلك فى السرعة الكبيرة التى تم بها انتشار الاسلام فى الاندلس ، وتحويل الغالبية العظمى من سكانه الى الدين الجديد .

ويمثل انتشار الاسلام واللغة العربية فى الاندلس خطوة هامة فى مجال قيام حضارة أندلسية ، وتجمع كل المصادر التاريخية على سرعة هذه العملية بصورة لافتة للنظر بحيث نجد أنه حين حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز اخلاء الاندلس من المسلمين خوفا عليهم أو « خشية تغلب العدو عليهم » كما يقول ابن القوطية (١٥) أو « لانقطاعهم من وراء البحر عن المسلمين » على ما يقول صاحب الأخبار المجموعة (١٦) رد عليه السمح بن مالك يعرفه بقوة الاسلام وكثرة مداينهم ، وشرف معاقلهم ، وذلك فى عام مائة من الهجرة ٧١٩ ميلادية أى بعد خمس سنوات فقط من انتهاء عملية الفتح ، وعودة القائدين موسى

وطارق الى المشرق . وتعليل ذلك يرجع فى المقام الأول ـ حسب آراء المؤرخين ـ الى قضاء الاسلام على الأوضاع السيئة التى سادت على العصر القوطى بحيث لم تعد هنالك طبقة متحكمة متمثلة فى الأسر الحاكمة والنبلاء ، وزال سلطان الكنيسة ونفوذ رجالها ، وانتهت عبودية الأرض ، وأسرع العبيد لكى يتحرروا من العبودية الى اعتناق هذه الديانة من جهة أخرى فان بعض الولاة اعتبروا نشر الاسلام مهمتهم الأساسية ، ومثالنا على ذلك الولى عقبة بن الحجاج السلولى الذى كان « صاحب جهاد ورباط وذا نجدة وبأس ورغبة فى نكاية المشركين ، وكان اذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الاسلام حينا ويرغبه فيه ويبصره بفضله ، ويبين له عيوب دينه الذى هو عليه ، فيذكر أنه أسلم على يديه بذلك الفعل ألفا رجل (١٧) ، ولقد كانت السياسة التى اتبعها الولاة مع السكان الأصليين ، والقائمة على تركهم أحرارا فى معتقداتهم ذات أثر كبير فى تأليف قلوبهم ، ودعوتهم بطريقة غير مباشرة الى اعتناق الاسلام ، ويعترف بذلك المؤرخ الاسبانى « التاميرا » Altamera حيث يقول « بأن العرب لم يحترموا فقط ، بصورة مؤكدة العقائد الدينية ، وانما احترموا أيضا الحياة الخاصة للشعوب التى خضعت لهم » .

ثم يواصل قائلا فى نفس الصفحة : « لقد واصلت غالبية الشعب الاسبانى تحت الحكم الاسلامى ، حياتها العادية بما كان لها من كونتات وقضاة وقساسة وحافظوا على كنائسهم ، وباختصار شديد ، حافظوا على كل استقلالهم المدنى ، ولم يأخذ منهم الأمراء والحكام الجدد ، الا الجزية الشرعية المفروضة » . (١٨)

فى المجال التشريعى :

لا شك أن هذه العلوم هى أول ما تردد على أرض اسبانيا . لأن أقوال التابعين وأعمالهم ،وآراءهم فى توزيع الغنائم والاسلاب هى المصادر الأولى للعلوم التشريعية على أرض الاندلس . وبعد مضى فترة الفتح فلا شك فى استمرارية هذه القواعد أو الآراء وسريانها على عصر الولاة أى أن نلتقى بالقضاة الأوائل الذين حفظت المصادر التاريخية أسماءهم من أمثال مهدى ابن مسلم ، وعنترة بن فلاح ، وخالد بن يزيد التجيبى ومعاوية ابن صالح الحضرمى . أما الأول من هؤلاء فقد وضع نصا نثريا فقهيا سنشير اليه عند الحديث عن النثر ـ يقرر فيه مجموعة من القواعد التشريعية الهامة .

والتى يجب أن تسود فى مجال الفقه والتشريع . أما معاوية بن صالح ، فلقد تمتع بشهرة واسعة ، وخاصة فى الشرق فى علم الحديث ، وهو أحد الأوائل الذين نشروا هذا العلم على أرض الأندلس .

تبنت الأندلس فى مجال التشريع المذهب الأوزاعى وهو مذهب عبد الرحمن بن عمرو الاوزاعى المولود عام ٨٨ هـ ٧٠٧ م وقضى معظم حياته فى بلاد الشام وتوفى عام ١٥٧ هـ / ٧٧٧م ودفن فى بيروت .

كان الأوزاعى من أبرز الفقهاء الذين ظهروا بالشام وكان يرى اتباع السلف ، ولا يبدى برأيه الا فى حالة عدم وجود نص ، وكان يعتمد على أقوال السابقين حيث يقول : أصبر نفسك على السنه ، وقف حيث وقف القوم ، وقل بما قالوا وكف عما كفوا ، واسلك سبيل سلفك الصالح فانه يسعك ما يسعهم (١٩) .

وأول من أدخل هذا المذهب الى الأندلس هو صعصعة بن سلام المتوفى عام ١٨٠ هـ وهو فقيه من أصحاب الأوزاعى ، وكانت الفتيا دائرة عليه أيام الامير عبد الرحمن بن معاوية (٢٠) ، لكن الدكتور محمود على مكى يرى أن أول من أدخل المذهب الأوزاعى الى الاندلس هو قاضى البيرة أسعد بن عبد الرحمن السبئى المتوفى حدود سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م (٢١)

عاش هذا المذهب فى الاندلس فترة طويلة ، وعلى الرغم من أنه اعتبارا من عهد الامير هشام الرضى والحكم الأول فان المذهب المالكى كان قد بدأ يأخذ طريقه الى الحياة التشريعية فى الاندلس الا أن المذهب الأوزاعى ظل محتفظا ببعض الاوفياء له من أمثال : زهير بن مالك البلوى ، المتوفى ٢٥٠ هـ / ٨٦٤م والذى « كان فقيها على مذهب الأوزاعى على ما كان عليه أهل الاندلس قبل دخول بنى أمية » (٢٢) .

ومع دخول الأمويين واستقرار الأمور لهم فى الاندلس ازداد انسياب العلوم الشرقية الى الاندلس ، ومنها بطبيعة الحال المزيد من العلوم التشريعية، ورحل الاندلسيين الى الشرق وتتلمذوا على مالك بن انسى بالمدينة ، وعادوا معهم كتابه المشهور « الموطأ » وبدأوا فى نشر مذهبه فى الاندلس ابتداء من عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن ، وأوائل من حملوا هذا العبء ، الغازى بن قيس ، المتوفى ١٩٩ هـ / ٨١٥م ، وزياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون ،

المتوفى ٢٠٤ هـ / ٨١٩ وعيسى بن دينار قاضى طليطلة المتوفى ٢١٠ هـ / ٨٢٥ ، وأخيرا تلك الشخصية البارزة يحيى بن يحيى الليثى المتوفى ٢٣٤ هـ / ٨٤٨م ويقول ابن فرحون عن عيسى بن دينار ويحيى الليثى : وبه وبيحيى انتشر علم مالك بالاندلس ، ورجعت الفتيا الى رأيه » (٢٣) .

فى المجال الأدبى :

تكمن الصعوبة حقيقة فى تحديد بدايات النشاط الأدبى على أرض الاندلس سواء فى مجال الشعر أو فى مجال النثر ، ويرجع ذلك الى اختلاف الآراء فى هوية الاندلس ، كما سبق أن أوضحت ، والى أن القائلين شعرا أو نثرا خلال هذه الحقبة انما طرأوا على الاندلس ، ولهم أصولهم الشرقية الواضحة ، وثم يجد الباحثون فروقا أصولية تميزهم عن الأدب العربى عامة ، ولا يمنع ذلك بطبيعة الحال من دراسة ما وجد فعلا على أرض الاندلس فى تلك الفترة الباكرة ، لأن ذلك (الموجود) أيا كان الرأى فى هويته وأصوله فهو موجود على أرض الاندلس ، وهو الأساسى لما كان بعد ذلك من أدب ، لا يشك اطلاقا فى كونه أدبا اندلسيا .

والحقيقة التى نبدأ بها تناول هذا الموضوع هى ندرة الشواهد الأدبية أو بعبارة أدق عدم وصول شواهد أدبية كافية الى أيامنا هذه ، وقد يرجع ذلك الى عاملين :

أولهما : الحالة السياسية للفترة وما اعتراها من صراعات وحروب متواصلة .

وثانيهما : الايغال فى البعد تاريخيا ، حيث نتناول بالدراسة فترة تبتعد عنا بما يقرب من اثنى عشر قرنا من الزمان .

ولنا أن نتصور أنه كما صاحب جيوش الفتح الاسلامى عدد من علماء الدين ، فانها ولا شك قد ضمت جوانحها بعض الأدباء من الشعراء أو القصاصين أو النسابين ، أو بعض حملة نصيب من الثقافة السائدة حينذاك فى بلاد الحجاز والشام ومصر ، وكأن هذا القدر من الثقافة - ولو كان قليلا - الأساس الذى تطورت عليه فيما بعد ثقافة الاندلس .

وكذلك لا شك فى أنه قد ورد الى الاندلس بعد الفتح واستقرار الامر بعض ممن كانوا يقرضون الشعر ، وحفظت لنا المصادر نتفا قليلة من أشعارهم، ومن هؤلاء الشاعر أبو الخطار حسام بن ضرار ، وجاء الى الاندلس واليا فى سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م على عهد هشام بن عبد الملك . وكان الصراع فى الاندلس محتد ما بين القيسية واليمنية وكان هشام يميل الى القيسية ، فلما اشتدت عليه الأزمات شاور العباس بن الوليد فنصحه بالعودة الى تأييد اليمنية وقال له « يا أمير المؤمنين ليس يصلح آخر هذا الأمر الا بما صلح به أوله فاصرف نظرك وحسن رأيك الى هذه القحطانية » (٢٤) يشير بذلك الى نصر اليمنية للأمويين فى معركة مرج راهط .

وفى نفس الوقت جاءته رسالة أبى الخطار بقصيدة شعرية يقول فيها :

أفأتم بنى مروان قيسا دماءنا
وفى الله ان لم تنصفوا حكم عدل

كأنكم لم تشهدوا مرج راهط
ولم تعلموا من كان ثم له الفضل

رقيناكم حر الوغى بصدورنا
وليست لكم خيل تعد ولا رجل

فلما رأيتم راقد الحرب خبا
وطاب لكم منها المشارب والأكل

تغافلتم عنا كأن لم يكن لنا
بلاء وأنتم ما علمت لها فعل

فلا تجزعوا ان عضت الحرب مرة
وزلت عن المرقاة بالقدم والنعل (٢٥)

ومن اجل ذلك ، ولى هشام حنظلة بن صفوان الكلبى على افريقية ، وأمره أن يولى ابن عمه ابا الخطار على الاندلس ، وقدمها - كما قدمنا - سنة ١٢٥ م ، ومن الطبيعى ان هذا الأمير الشاعر قد قرض الشعر على أرض الاندلس واستشهد به فى ادارته للبلاد أو فى صراعه مع الخارجين عن سلطته .

والدليل على ذلك أن الحميدى قد نسب له ابياتا اخرى يقول فيها :

فليت ابن جـواس يخبر اننى

سعيت سعى امرىء غير غافـل

قتلت به تسعين تحسب أنهـم

جذوع نخل نخيل صرعت بالمسايل

ولو كانت الموتى تبـاع اشتريته

بكفى وما استثنيت منها انامل (٢٦)

وقال الدكتور أحمد هيكل بأنه لقب « بعنترة الأندلس » (٢٧) .

وممن طرا على الاندلس من الشعراء فى هذه الفترة ايضا ابو الأجرب جعونة بن الصمة ، الذى عرف بهجائه للصميل بن حاتم زعيم القيسية وأحد زعماء الاندلس المعروفين ، ثم تحول بعد ذلك الى مدحه ، ولم تحتفظ المصادر التاريخية بالكثير من شعر هذا الرجل ، ويقول عنه الحميدى نقلا عن ابن حزم : واذا ذكرنا ابا الأجرب جعونة بن الصمة لم نبأر به الا جريرا والفرزدق لكونه فى عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد بشعره فهو جار على أوائل مذاهب العرب ، لا على طريق المحدثين ، وينقل الينا من شعره :

ولقد أرانى من هـواى بمـنزل عال ورأسى ذو غـدائر أفــرع

والعيش أغيد ساقط أفنـــانه والماء أطيبه لنـــا والمرتع . (٢٨)

وكان لهذا الشاعر سمعه فى بلاد المشرق حتى يقال ان أبا نواس سأل عنه عباس بن ناصح الاندلسى ، وطلب أن يسمع شيئا من شعر جعونة وذلك حين التقيا معا فى العراق (٢٩) ٠

الى جانب ذلك هناك بعض الأبيات التى قيلت فى الصراع الذى كان يجرى هناك ، ومنها مثلا ما أوردته المصادر حين الحديث عن الصميل بن حاتم وأثناء حصاره فى سرقسطه ، أرسل فى طلب النجدة فقام اليه بعض العرب ومعهم عبد الله بن خالد وعبيد الله ابن عثمان وهما رأس الأموية فى الاندلس ، فلما بلغوا وادى طليطلة بلغهم ان الحصار اشتد وأضر بالصميل ، فقدموا رسولا من قبلهم وقالوا له : ادخل فى جملة المحاربين للسور ، فاذا قربت منه ، ارم بهذه الأحجار ، وفى كل واحد منها بيتان وهما :

الا أبشر بالسلامة يا جدار
أتاك الغوث وانقطع الحصار

أتتك بنات أعوج ملجمات
عليها الأكرمون وهم نزار (٣٠)

اما الصميل نفسه ، فتحتفظ لنا المصادر ببيت من الشعر قاله حين رأى ماله ينتهب على يد الطائبين بعد انتصار عبد الرحمن الداخل وهو :

ألا ان مالى عند طى وديعة
ولا بد يوما أن ترد الودائع (٣١)

وذكر على أدهم البيت مضيفا اليه :

سلوا ٠ عنا عن فعل رمحى ومنصلى

فان سكتوا اثنت على الوقائع (٣٢)

واذا كانت المصادر مجدبة فيما احتفظت به من أخبار شعراء الفترة فليس ذلك مما يدفع الى القول بعدم وجود هؤلاء الشعراء أو خلو الفترة من قرض

الابيات وذلك لان الظروف المضطربة والصراع القبلى ، والتنافس والتنابذ والاثارة عومل مشجعة للناس على الصياغة والنظم ، فاذا أضفنا الى ذلك طبيعة الأرض الجديدة المغايرة لما عرفه العرب ، واثر ذلك فى تفجير ينابيع الشعر لأمكن لنا أن تتصور البداية التى ارتقى عليها بعد ذلك لشعر لأندلسى ٠

وتأتى الفترة التالية ، والتى تتسم بوصول أفواج جديدة من العرب الى الاندلس مع ظروف سقوط لدولة الأموية فى الشرق ووصول عبد الرحمن الداخل الى قرطبة سنة ١٣٨ / ٧٥٥ م ، وتزداد الشواهد الأدبية ، وتكثر الأبيات الوارة فى المصادر ٠

ومن أهم شعراء هذه الفترة ، الأمير عبد الرحمن الداخل نفسه ، والذى كان شاعرا مجيدا ، وناثرا بليغا ، ولم يكن من الغريب أن يأتى شعر الداخل مصورا لجونب حياته المنقلبة والمتباينة ، فنظم فى الغربة والحنين كما انه نظم فى الفخر والحماسة وأر بشعره ولكفاحه الفذ من أجل اقامة دولة أموية فى الاندلس خلفا لتلك التى بادت فى دمشق ٠ واقرأ للداخل هذه الأبيات الرقيقة فى لحنين الى الأهل :

أيهـــا الــراكب الميمم أرضى
أقر من بعضى الســلام لبعضى

أن جسمى كما تـــراه بـــأرض
وفـــؤادى ومالكيـــه بأرض

قدر البين بيننـــا فافترقنـــا
وطوى البين عن جفونى غمضى

قـــد قضـــى لله بالفراق علينـــا
فعسى باجتماعنا سوف يقضى (٣٣)

وهو الذى صاغ تلك العلاقة الفريدة بين نخلة زرعها العرب فى أرض الأندلس فجاءت يتيمة نوعها هناك غريبة ، وبين حالته فأنشد قائلا :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلـــة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخـل

فقلت : شبيهى فى التغرب والنوى
وطول التنائى عن بنى وعن أهلى

نشأت بأرض انت فيهـا غريبـة
فمثلك فى الاقصاء والمنتأى مثلى(٣٤)

ولعبد الرحمن الداخل أشعار أخرى مدونة فى المصادر التاريخية ، منها ماقاله حين كتب اليه بعض من وفد عليه من قريش يستقصره فيما يجربه عليه ، ويسأل الزيادة ، ويستطيل عليه بدالة القرابة . وكتب عبد الرحمن قائلا :

شتان من قـــام ذا امتعـــاض
منتضى الشـــفرتين نصـــلا

فجاب قفرا وشـــق بحـــرا
ســـاميا لجـــة ومحـــلا

فبز ملكـــا وشـــاد عـــزا
ومنبرا للخطاب وفصلا (٣٥)

وهناك من ينسب اليه هذه الأبيات مع اختلاف فى الكلمات حين ذكروا له تفاخرا ما كان من الغمر بن يزيد مع عبد الله بن على بن عبد لله العباسى (٣٦)

وذات يوم كان عبد الرحمن خارجا الى الثغر فى بعض غزواته ، فوقعت غرانيق (طيور مائية بيضاء اللون ، طويلة السيقان ، لها قنازع ذهبية اللون) فى جانب عسكره ، وأتاه بعض من كان يعرفه كلفه بالصيد يعلمه بوقوعها ، ويشهيه بها ، ويحضه على اصطيادها ، فأطرق عنه قليلا ثم جاوبه :

دعنى وصيد وقلع الغرانق
فان همى فى اصطياد المارق
فى نفق كان أو فى حالق
اذا التظت هواجر الطرائق
الخ (٣٧)

وحين قتل صديقه حيوة بن ملامس الحضرمى ، وكان اثيرا لديه قال يرثيه :

فلا خير فى الدنيا ولا فى نعيمها

اذا غاب عنها حيوة بن ملامس

اخو السيف قارى الضيف حقايراهما

عليه ونافى الضيم عن كل بائس (٣٨)

ولم يكن الداخل بالشاعر الأموى الوحيد ، لأننا نرى قريبه عبد الملك بن عمر الروانى ، تنسب اليه أبياتا شبيهة بأبيات الداخل التى قالها فى النخلة سواء من حيث المعنى أو أسلوب البناء ، ومطلع هذه الأبيات :

يانخل انت فريدة مثلى

فى الأرض نائية عن الأهل

تبكى وهل تبكى مكممة

عجما لم تجبل على جبلى

. . .　　. . .

. . .　　. . . . . . (٣٩)

ومن شعراء هذه الفترة أيضا عاصم بن زيد العبادى المعروف باسم « ابو المخشىء » وكان والده ممن وفدوا على الاندلس فى فترة الولاة ، ونزل منطقة البيرة ونشأ أبو المخشى فى المنطقة ، وقرض الشعر حتى أصبح من المع شعراء عصره ، بل وصل الى كونه شاعر الدولة المروانية فى الاندلس •

واشعار هذا الرجل التى وصلت الينا قليلة ، وتروى المصادر ميله لعبد الرحمن الداخل ومدحه له ، وكذلك انحيازه لسليمان بن عبد الرحمن مما عرضه لغضب هشام بن عبد الرحمن ، وكان بين الأخوين بعض المنافسه ، ويقال بأن هشاما تمكن من الشاعر فقطع طرف لسانه وسمل عينيه ، وكانت تجربة قاسية صاغها الشاعر أبياتا حارة مؤثرة ؛ حركت قلب عبد الرحمن الشعر لمواساته وأغضبته على ابنه هشام ، ويقال ان الأمير هشام نفسه قد نـدم على فعله وحاول تفريض الشاعر ما أمكن •

ويرى مؤرخو الأدب أن أبا المخشى يمثل الشعر الاندلسى فى فتـرة التأسيس أصدق تمثيل ، فهو يمثله فى ظهور بعض السمات الأندلسية الخاصة من تجديد فى الموضوعات ، ومحاولة التجويد ، كما أنه يمثله فى مسيرته البدوية المحافظة المقلده لاشعار عرب ما قبل الاسلام • ويستدلون بأبياته التى حاول فيها معالجة تجربته الجديدة فى فقدان البصر ، ومن أجمل ماقاله هذا الرجل :

وهـم ضافنى فى جـوف ليـل

كـلا موجيهمـا عنـدى كبير

فبتنا والقلوب معلقـات

وأجنحة الريـاح بنـا تطـير

وله أبيات أخرى ذكرها وحللها الدكتور احمد هيكل فى كتابه عن « الأدب الأندلسى » (٤٠) . وأورد له الدكتور محمود على مكى ترجمة كاملة ومعظم ما حفظ من أشعاره فى رسالته عن المؤثرات الشرقية فى الثقافية الاندلسية (٤١) ولن استطرد أكثر من ذلك فى ذكر شعراء هذه الحقبة والذين كثر عددهم ليشمل امراء البيت الأموى من أمثال الأمير هشام وابنه الحكم الأول ، وليضم أيضا بعض الشخصيات المعروفة من أمثال عباس بن ناصح الجزيرى ، والشاعر أبو الحسين وابنته حسانة التميمية ، ويكفى ذلك للدلالة على أن أسس الانطلاقة الشعرية قد توطدت وأن راحلة القوافى قد بدأت مسيرتها لتشق للشعر الاندلسى مجاريه ضمن واحات الشعر العربى .

أما النثر فان طبيعة الأمور تحتم وجود ثروة نثرية كبيرة على الرغم من ندرة ماوصل الينا من نصوص نثرية ، ونعتمد فى قولنا بوجود ثروة نثرية ، على اساسين واضحين أولهما الحاجة الملحة الى استخدام الكلمة الحسنة ، والأسلوب الواضح فى مجال الدعوة الى الاسلام ، واقامة الشعائر الدينية وخاصة الصلاة الجامعة أياد الأعياد والجمع ، أما الإساس الثانى ، فهو الحاجة الماسة الى استعمال الكلمه للحث على الحروب الأهلية أو شجبها ، كما أن الكتابة كانت حاجة ملحة فى هذه الفترة تتطلبها ظروف الفتح والحكم والادارة ، كما تتطلبها مناسبات رسمية وأخرى شخصية مثل كتابة العهود ، أو وضع شروط الصلح أو توجيه بعض المكاتبات .

وأول نثر عربى ابتدعه خيال المؤرخين ليرتبط بأرض الأندلس يتمثل فى تلك الخطبة الرائعة التى نسبت الى طارق بن زياد ، والتى القاها لاشعال حماسة جنوده قبل اللقاء الحاسم فى معركة وادى لكة ، وتتلون تلك الخطبة فى صيغتها التى وصلت الينا ، عن عبارات ذات صبغة عربية قحة ، ولكلماتها رنين قوى ، وأفكارها أفكار حربية ، تشجع الجنود على النصر وتحذرهم الهزيمة . لكن هذا النص الأدبى رغم أنه يرتبط ارتباطا وثيقا بأرض الأندلس ،

لا يمكن تضمينه هذه الدراسة وذلك للشك الكبير فى صحته تاريخيا ، وعدم وجود أدلة قوية على نسبته لطارق بن زياد ، وأيضا لأن قائله ، وان كان قد قاد عملية الفتح الا أنه عاد الى المشرق بعد ذلك ، وظل هناك حتى نهاية حياته ، وهناك أيضا بعض النصوص المنسوبة الى موسى بن نصير والى مغيث الرومى ، لكن تلك النصوص مثلهــا مثل نص طارق بن زيادتتعرض لكثير من النقد ويعتقد انها كتبت بعد عصرهم ونسبت اليهم ٠

ومن النصوص النثرية الأولى التى وصلت الينا ، صيغة الكتاب الذى قدمه عبد العزيز بن موسى بن نصير الى تدمير حاكم منطقة مرسية ، وتحدد فيها نوع المعاملة التى يجب أن تسود بين الفريقين ، ويبدأ الكتاب بالصيغة التاليـــة :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد العزيز الى تدمير ، أنه نزل على الصلح وأنه له عهد الله وذمته أن لا ينزع عن ملكه ولا أحد من النصارى عن املاكه ، وأنهم لا يقتلون ، ولا يسبون أولادهم ولا نساؤهم ، ولا يكرهون على دينهم ٠ ٠ ٠ الخ » (٤٢) ٠

أما النص الآخر الذى تتجلى فيه روعة الأسلوب مع وضوح الفكرة فهو المنسوب الى صياغة القاضى مهدى بن مسلم قاضى عقبة بن الحجاج السلولى والذى تولى الاندلس فى سنة ١١٦ هجرية وظل بها حوالى ٥ سنوات ، الى أن استشهد فى جهاده فى أرض خاله ، والرسالة من صياغة القاضى ، والذى طلب منه واليه لحجاج كتابة العهد فكتب رسالة ذات مستوى لغوى سليم ، موضحا بها بعض النقاط الهامه فى « المساواه بين الخصوم بنظره واستفهامه ولطفـــه ولحظة استماعه ، وأن يفهم من كل أحد حجته وما يدلى به ويستأنى كل عيى اللسان ، ناقصى الابيان ، فان استقصاء الحجة ما يكون لحق الله تعالى عليه قاضيا ، وللواجب فيه راغبا ، فقد يكون الحة بحجته وأبلغ فى منطقه ، وأسرع فى بلوغ المطلب ، وألطف حيلة فى المذهب وأذكى ذكاء ، وأحضر جوابا من بعض، وان كان غير الصواب مرماه ، وخلاف الحق منهاه » (٤٣) ٠

وكذلك احتفظت لنا المدونات بجزء من رسالة يوسف الفهرى آخر ولاة الاندلس والتى وجهها الى عبد الرحمن الداخل حين نزل بأرض الاندلس يعرض عليه بعض الشروط لكى يتجنب الحرب ، ولكن فشلت هذه الرسالة فى احلال الصلح بين الطرفين وذلك بسبب غرور كاتبها خالد بن يزيد ، ويروى لنا صاحب كتاب أخبار مجموعة ، أن خالدا حمل كتاب يوسف الى عبد الرحمن وكان « اديبا عاقلا ، الا أنه زنى ، وكان هو مملى الكتاب فأن له العجب والنفخ ، وقديما ما أهلك دين الرجال ودنياهم ، فقال : يا أبا عثمان : لتعرقن ابطك قبل أن تحير فيه جوابا » • فغضب أبو عثمان وسبه ، وفشلت الوساطة واخذ خالد بن يزيد أسيرا (٤٤) •

ومن كتاب هذه الفترة لدينا أسماء خالد بن يزيد ، وأمية بن يزيد وكانا من كتاب يوسف بن دبد الرحمن الفهرى ، ثم انتقلا بعد ذلك الى خدمة عبد الرحمن الداخل •

وتتصف الكتابات الأدبية نثر هذه الفترة الأولى من تاريخ الأدب الاندلسى بأنه كان يحمل الخصائص الفنية للنثر الشرقى ، كما أنه نثر يميل الى الايجاز ، ويعنى بقوة العبارة أكثر من عنايته بتجميلها ، ثم هو لا يعرف تلك المقدمات الطويلة أو الالقاب المتعددة مثلما هو الحال فى العصور التالية •

وكما كان وصول عبد الرحمن الداخل الى الاندلس علامة بارزة فى تطور الشعر فهو كذلك أيضا فى مجال النثر ، لأن الامير كان شاعرا جيدا وناثرا مفلقا مفحما • ومما ينسب اليه قوله حين قتل المغيرة ولد أخيه الوليد :

يا عجبى الا من هؤلاء القوم ، سعينا فيما يضجعهم فى مهاد الأمن والنعمة ، وخاطرنا بحياتنا ، حتى اذا بلغنا منه الى مطلوبنا ، ويسر الله تعالى به حتى أمنوا وردت عليهم أخلاق النعم ، هزوا أعطافهم ، وشمخوا بآنافهم ، وسموا الى العظمى ، فنازعونا فيما منحه الله تعالى ••• ••• (٤٥) •

ولقد احتفظت لنا المصادر بالكثير من النصوص النثرية المتعلقة بعبد

الرحمن الداخل ، ومنها خطبة قالها بعد انتصاره فى معركة المصارة سنة١٣٨هـ ورسالة منه الى سليمان الاعرابى ، حاكم برشلونه الذى أعلن العصيان ، وتحالف مع شارلمان ٠

ولم تقتصر الحياة الفكرية فى الاندلس خلال ذلك التاريخ البعيد على تلك الشواهد الأدبية شعرا أو نثرا ، وانما بدأت العلوم الاسلامية التى كانت قد نضجت فى الشرق فى الانسياب نحو الاندلس ، فبدأت قلية تشق طريقها بثبات الى هناك الى أن حفرت مجرى واسعا انتقلت خلاله معظم هذه العلوم والآداب لتعيش على أرض الأندلس ، ولتصبغ هناك بطبيعة الأرض وسجايا الناس ولتتحول الى جزء لا يتجزأ من الحضارة الاندلسية ٠

ومن أوائل من حملوا العلم الى الاندلس نجد زيادا بن عبد الرحمن المتوفى سنة ١٩٩ هـ « وهو أول من أدخل الاندلس فقه ماك بن أنس ، وكانوا قبل ذلك على المذهب الأوزاعى » (٤٦) وهو « أول من دخل الاندلس بالفقه والحلال والحرام ، وهو أول من أظهر سنة تحويل الأودية فى الاستسقاء » (٤٧) ٠

وفى أيام عبد الرحمن بن معاوية دخل الغازى بن قيس الاندلس بالموطأ عن مالك بن أنس رحمه الله ، وبقراءة نافع بن أبى نعيم ٠ وفى أيامه دخل أبو موسى الهوارى عالم الاندلس ، وكان قد جمع علم العرب الى علم الدين ، وكانت رحتهما من الشرق الى الاندلس بعد دخول عبد الرحمن بن معاوية الاندلس ، ودخل الاندلس قبل دخول الامام عبد الرحمن بن معاوية ، وكان من جلة أهل العلم ، ورواة الحديث ، وكانت له مكانة عظيمة ، لدرجة ان سئل محمد بن وضاح : هل جمع أهل الاندلس علم معاوية بن صالح ؟ فاجاب بالنفى فقيل له : وما متعكم من ذلك ؟ قال : قدم بلدا لم يكن أهله يومئذ أهل علم فقيل له أضعتم والله علما عظيما (٤٩) ٠

وانتهت الى الى الاندلس أمهات الكتب فى النحو منذ أواخر القرن الثانى فأدخل جودى بن عثمان العبسى المتوفى سنة ١٩٨ كتاب الكسائى ، وكان قد رحل الى الشرق ، وأخذ عن الرياشى والفراء والكسائى (٥٠) ٠

كذلك بدأ استخدام علم التنجيم فى هذه الفترة الباكرة من تاريـــخ الأندلس حيث أن هشاما بن عبد الرحمن الداخل حينما تولى بعث فى طلب الضبى المنجم بالجزيرة فقال له لست اشك انك قد عنيت بأمرى اذ بلغك ، فناشدتك الله الا أخبرتنى بما ظهر لك ، فقال له الضبى : ناشدتك الله اعفيتنى من هذا فأعفاه فلما كان بعد أيام كشف عنه ، فقيل له خاطر بعث فبعث فيه وقال له : أن الذى أسألك ، لست الله أصدق به على الحقيقة ولكن أريد أن أسمعه ولئنى أوردت على ما يغمنى لا أعاقبنك ولأكسونك ولأحبونك ، وأكافئك كما كنت أكافئك على أن تور على ما يسرنى ، فقال له الضبى : ما بين الستة والسبعة ، فأطرق عنه ساعة ، ثم رفع رأسه اليه فقال له : ياضبى والله لو أنها سجدة فى سبيل الله لهانت (٥١) .

المجال التربوى والتعليمى :

لا شك أن عملية التطور الثقافى والفكرى التى أشرنا اليها قد مضت فى طريقها معتمدة على انتشار اللغة العربية والاسلام ، وتعمقهما فى نفوس أهل الأندلس ، كما أنها قد صاحبها نشاط تربوى وتعليمى يحسن بنا أن نشير اليه باعتباره مظهرا هاما من الحضارة الاندلسية كما أنه الاساس الراسخ الذى بنيت عليه هذه الحضارة .

بدأت الحياة التعليمية فى الاندلس بعد الفتـح مباشرة ، وتمثلت فى بداية الأمر تعليم اللغة والدين الاسلامى ، وقام بهذه المهمه مجموعة من العلماء الدينيين الذين رافقوا الجيوش الاسلامية فى عبورها الى أرض شبه الجزيرة الايبيرية أو من هاجر الى هناك بعد الفتح .

اتجه التعليم - كما هو طبيعى ومنطقى - فى بداية الأمر الى الكبـــار سواء من سكان الأرض الاسبانية أو من البربر حديثى العهد بالاسلام ، وهو أمر كان يحرص عليه الذين اهتموا بتعلم لغة الفاتحين من أجل مصالحهم الخاصة أو ممن اعتنقوا الاسلام ، وحاولوا معرفة لغة دينهم .

وفى نفس الوقت فانه لم تنقض مدة طويلة حتى بدأت فى الظهور أجيال جديدة من أبناء الفاتحين وزوجاتهم الاسبانيات ، ومع هذه الاجيال تجلت الحاجة الى تعليم الاطفال اللغة العربية والقرآن الكريم ٠

ولدينا من البيانات التاريخية مايثبت وجود الكتب فى الاندلس على عهد الولاة حيث يحكى أن الصحيل بن حاتم قد مر يوما بمعلم يعلم الصبيان وهو يقرأ «وتلك الايام بداولها بين الناس» ودار بينه وبين المعلم جدل غريب ، يمكن أن نفسره بأكثر من معنى ٠ (٥٢) ، كما أن الزبيدى فى كتابه طبقات النحويين، ينقل لنا نصا قيما عن الغازى بن قيس ، المتوفى سنة ١٩٩ هـ ٨١٤م ٠ يمكن لنا ان نستنتج منه أنه فى أيام دخول عبد الرحمن الداخل الى الاندلس كان الغازى يمارس التأديب ، بل ان هذه المهنة كانت شائعة ، ويمارسها عدد كبير من الناس وان هؤلاء كانوا يشعرون بأنهم يمارسون حرفة معينة ، يجب أن يتقاضوا فى مقابلها أتعابا ، ويتجمعون للدفاع عنها (٥٣) ٠

وما من شك فى أن عدد الذين تعلموا خلال هذه الحقبة كان كبيرا وبعض هؤلاء هم الذين اتيح لهم على عهد عبد الرحمن الداخل القيام بالرحلة الى الشرق ، وعادوا ــ كما أشرنا ــ حاملين معهم مزيدا من الثقافة الى الاندلس مما دفع بهذه الحضارة خطوات على طريق التطور والارتقاء ٠

فى مجال العمران :

مما يلفت النظر فى دراسة هذا الجانب من جوانب الحضارة الاندلسية عدم قيام المسلمين هناك بتأسيس مدن خاصة بهم رغم أهمية هذا العمل فى الاستقرار فى البلد الجديد وتحويله الى العربية لغة والاسلام دينا ، وتفسير ذلك تفسيرا علميا يتطلب دراسة مستقلة عن دور المدينة الاسلامية فى تعريب الاوطان الجديدة ونشر الاسلام بها ، وخاصة أن الامثلة السابقة لا تحدد لنا بالضبط لماذا تم بناء هذه المدن ، ففى العراق ، وهو بلد كثيف السكان تم بناء البصرة والكوفة ، أما بلاد الشام فلم تبن بها مدن جديدة ، ومصر حظيت ببناء الفسطاط ، وافريقية بالقيروان أولا ثم تونس بعد ذلك ٠

وجاء بناء المدن فى الاندلس فيما بعد فى فترة الازدهار الحضارى وتمثل فى اقامة اماكن خاصة للخلفاء مثل الزهراء والزاهرة ، أو اقامة مدن بحرية مثل مدينة المرية .

أما اول مظاهر العمران التى قام بها المسلمون هناك فتتمثل فى انشاء المساجد حيث تجمع المصادر التاريخية على أن أول شىء أقامه موسى بن نصير هو مسجد الرايات فى الجزيرة الخضراء التى يقول عنها الادريسى : انها أول مدينة افتتحت فى ذلك الوقت وبها على باب البحر مسجد « مسجد الرايات » ويقال انه هناك اجتمعت رايات القوم للرأى » (٥٤) .

كما ان حنش بن عبد الله الصنعانى - أحد التابعين الذين لاخلاف حول دخولهم الاندلس مع الفتح - قد قام بتأسيس عدة مساجد هناك ، فيذكر الحميدى حين يترجم له أنه : غزا الاندلس مع موسى بن نصير وله بها آثار ، ويقال : ان جامع مدينة سرقسطة من ثغور الاندلس من بنائه ، وانه أول من اختطه . (٥٥) ويشير الدكتور عبد الرحمن على الحجى نقلا عن المصادر الاندلسية الى تأسيس حنش الصنعانى ، بالتعاون مع غيره مساجد مدن : آلبيرة وقرطبة وسرقسطة وربما غيرها .. (٥٦)

واذا كانت هذه المساجد قد اقيمت خلال مرحلة الفتح نفسها ، فانها استمرت بعد ذلك طوال التاريخ الاندلسى ، فاهتم الولاة والامراء والافراد بها ومثالنا على ذلك قيام عبد العزيز بن موسى بن نصير أول وال فى الاندلس ، ورغم انه لم يحكم الا عدة شهور ، ببناء مسجد باشبيلية امام داره ، وهو المسجد الذى قتل فيه حين خرج لامامة المسلمين . (٥٧)

وما يقوله « النباهى » عن معاوية بن صالح أنه « من القضاة المتقدمين خرج من الشام الى الاندلس فوصلها سنة ١٢٣ هجرية ، فاستوطن مدينة مالقة ، وبنى باسفل قصبتها مسجدا هو منسوب حتى الآن له . (٥٨)

واذا لم تكن متوفرة لدينا المعلومات الفنية عن مساجد هذه الفترة البعيدة من التاريخ الاندلسى ، الا ان ارادة الله لم تشأ ان تحرمها من الخلود حين هيأ لها عبد الرحمن الداخل لكى يبدأ فى بناء مسجد قرطبة الجامع ، والذى أصبح فيما بعد مفخرة فى البناء المدنى فى الاندلس ، وكان ومازال درة غالية فى مجال فن البناء الاسلامى والحضارة الاندلسية خاصة والاسلامية عامة .

بدأ عبد الرحمن بناء هذا المسجد فى عام ١٧٠ هـ (٧٨٦م)) ، وجلب اليه الاعمدة والرخام المنقوش بالذهب واللازورد ، وتوفى قبل اتمامه ، واكمله ابنه هشام ، وزاد فيه أمراء بنو أمية وخلفاؤهم من بعد حتى غدا أعظم مساجد الأندلس وبلغ ما أنفقه عليه عبد الرحمن الداخل وحده زهاء ثمانين الف دينار » (٥٩)

واتجه اهتمام المسلمين ايضا الى تحسين المرافق القائمة ، فقد تنبه الوالى السمح بن مالك الخولانى الى تهدم قنطرة قرطبة بعد أن استشار الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى أمر بتجديد بنائها من صخر سور المدينة ، وأن يبنى سور المدينة باللبن اذ لا يجد له صخرا ، فوضع - أى السمح - بدا فبنى القنطرة فى سنة احدى ومائة (٦٠) ، وعدت هذه القنطرة والمسجد الجامع من أهم معالم مدينة قرطبة ، واذا كان هذان البناءان من وضع فترة التأسيس الحضارى ، فان المدينة لم تضف اليها بعد ذلك الا الزهراء وتميزها بالعلم حيث يقول الشاعر عن هذه المدينة الخالدة :

بأربع فاقت الابصار قرطبة
منهن قنطرة الوادى وجامعها

هاتان ثنتان والزهراء ثالثة
والعلم أفضل شىء وهورابعها (٦١)

وشهد عصر عبد الرحمن الداخل اهتماما بالمدينة ، وركزا اهتمامه على

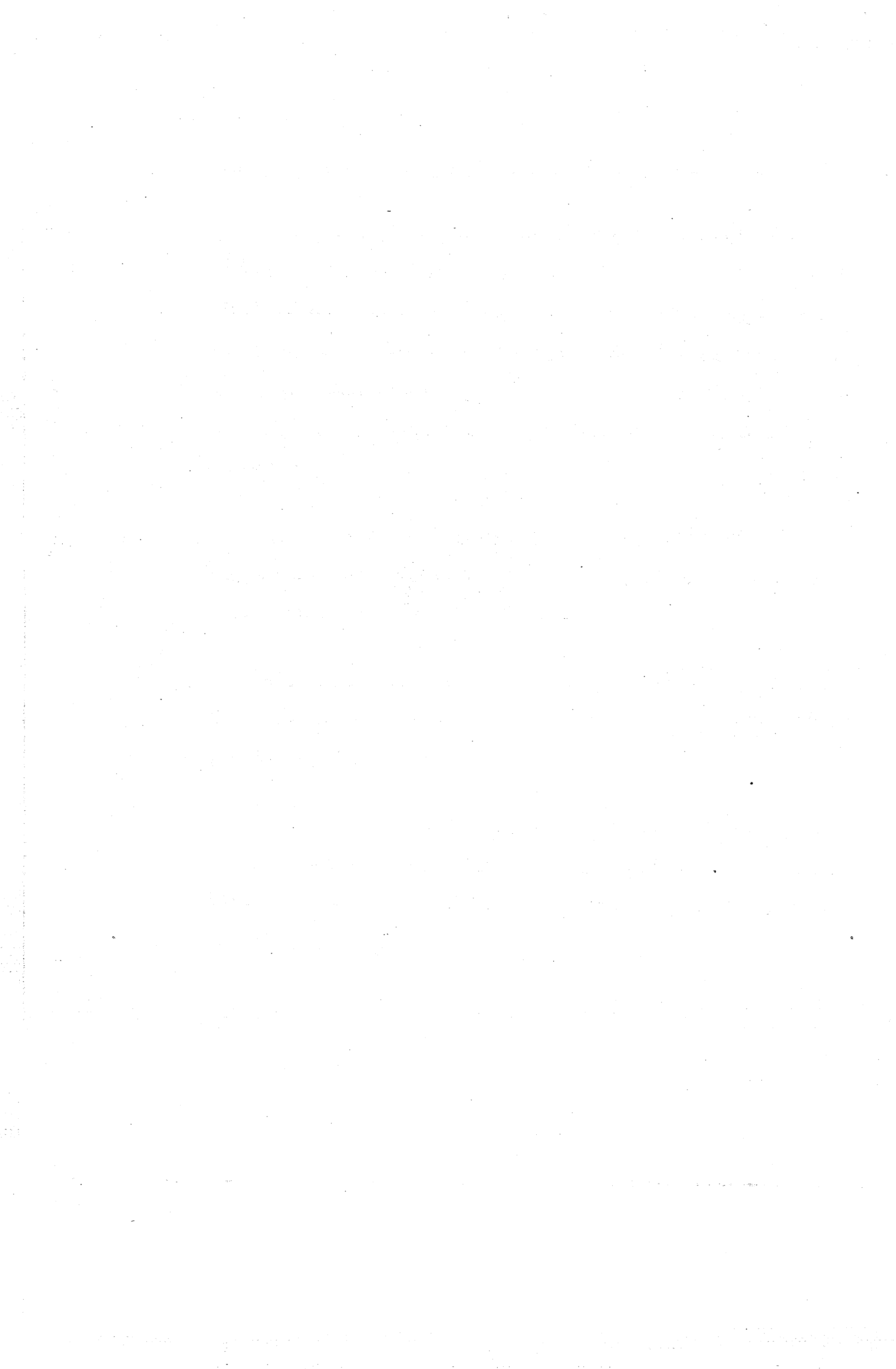
قرطبة التى حاول أن يجعل منها صورة لمدينة دمشق حيث مجد أجداده ٠

« فحصنها وزينها بالمنشآت الفخمة والرياض اليانعة ، وكان أول ما أنشأ بها على عهده منية الرصافة التى انشأها فى شمال غربى قرطبة وانشأ بها قصرا تحيط به الحدائق ، وجلب اليه مختلف الغروس والبذور والنوى من الشام وافريقية وأسماها الرصافة تخليدا لذكرى الرصافة التى انشأها جده هشام بالشام ، واتخذها مقاماومنتزها ومقرا للامارة ، وكانت حدائق الرصافة أما لحدائق الاندلس ، ومنها انتشرت بالاندلس غروس الشام وافريقية ٠

وفى سنة ١٥٠ هـ بدأ عبد الرحمن بانشاء سور قرطبة الكبير واستمر العمل فيه مدى اعوام ، كما أنشأ فى قرطبة وباقى مدن الاندلس مساجد محلية عديدة » (٦٢)

وهكذا وضعت الأسس التى تطور عليها فن المعمار فى الاندلس لكى يثمر لنا بعد ذلك عقودا من الاعمال الفنية المعمارية الخالدة والتى انتظمتها كتب تراث المسلمين الفنى والمعمارى ٠ (٦٣)

شهدت هذه الفترة أيضا من مرحلة تكوين الحضارة الاندلسية جوانب أخرى حضارية لايتسع المقام هنا لذكرها والحديث عنها ، وذلك بسبب ضيق المساحة ، ومن هذه الجوانب النظام القضائى والتنظيم الادارى ، الى جانب مسلك المسلمين فى المجال الاقتصادى ٠



مكانة الاندلس العلمية فى العالم الاسلامى

مكانة الأندلس العلمية فى العالم الاسلامى

احتلت الأندلس بين دول العالم الاسلامي مكانة علمية عظيمة لا تدانيها فيها عاصمة أخري وأصبحت مدينة قرطبة محط الرحال للعلماء، وللأدباء، والشعراء والكتاب ولم تعد قرطبة هي دار العلم والتعليم في العالم الاسلامي فحسب، بل تعدي ذلك الى سيادة قرطبة العالمية، فلم تعد محط الرحلة للقادمين من بغداد والقاهرة ودمشق فقط بل هي كذلك مقصد محبي العلوم من فرنسا، وانجلترا، وايطاليا، والقسطنطينية، وغيرها.

لاشك أن البداية العلمية للأندلس جاءت من المشرق، حيث تركزت الجهود علي نقل علوم المشرق، والرحلة الي هناك لتلقي هذه العلوم من الأساتذة الشرقيين، وكانت القاهرة، ودمشق وبغداد، ومكة، والمدينة هي الوجهه التي يسعي اليها أبناء الأندلس لتلقي العلم، ثم يعودون بعد ذلك الي بلادهم، فيعملون علي نشر علمهم واذاعة كتبهم، وابداء أرائهم.

ولكن ذلك التأثير المباشر للمشرق قد بدأ يواجه منافسة قوية نابعة من أرض الأندلس ذاتها. حيث حرص التلميذ البسيط القادم من الأندلس علي أن يسرع في تعلمه، وأن يتخطي مرحلة العلم الي مرحلة الانتاج العلمي، وبدأ ذلك الانتاج يأخذ صورة مختلفة عما كان في المشرق. وهنا ظهر التنافس قويا، في تأليف الكتب وابداء الاراء، وتبادل العلوم. وأصبح من السهل أن نري أن الرحلة في طلب العلم لم تعد في اتجاه واحد، بل يمكننا أن نري عددا من المشرقيين يفدون الي الأندلس للتعليم ، وتلقي

العلم، وجاء بعضهم أساسا تدفعه رغبة التجارة فجلس يستزيد علما. وتطور طابع رحلة الأندلسيين الي الشرق، فلم يعد الغرض منه تلقي العلم فقط وانما كان دافعه الأول الحج ذلك الغرض الديني، ثم لقاء العلماء، والتناظر معهم، ومناقشتهم فيقول المقري : وكان أهل الأندلس في غايه الاستحضار للمسائل العلمية علي البديهة، قال ابن مسدي : أملي علينا ابن المناصف النحوي بدانية علي قول سيبوية، «هذا باب ما الكلم من العربية» عشرين كراسا بسط القول فيه علي مائة وثلاثين وجها.

وهذا وأشباهه يكفيك في تبحر أهل الأندلس في العلم، وربما سئل العالم منهم عن المسألة التي يحتاج في جوابها الي مطالعة ونظر، فلم يحتج الي ذلك، ويذكر من فكره ما لا يحتاج معه الي زيادة».

ولقد بلغ بهم حرصهم علي العلم مبلغا كبيرا حتي أصبح من المخجل أن يسأل الواحد منهم عن مسألة ولا يستطيع لها جوابا، «ولقد سئل أبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري المعروف بالأبيض عن لغة فعجز عنها بمحضر من خجل منه، وأقسم أن يقيد رجليه بقيد حديد، ولا ينزعه حتى يحفظ الغريب المصنف، فاتفق أن دخلت عليه أمه في تلك الحال فارتاعت فقال :

ريعت عجوز أن رأتني لابسا	حلق الحديد ومثل ذلك يروع
قالت جننت فقلت بل هي همة	هي عنصر العلياء والينبوع
سن الفرذدق سنة فتبعتها	اني لما سن الكرام تبوع

ومن هذه الحكاية يمكن لنا أن نتبين أيضا الرغبة في التفوق علي التأثير المشرقي فاذا كان الفرزدق قد سن سنة واذا كان قد ضرب مثلا فى علو الهمة، فيمكنك أيضا أن تري من بين رجال الأندلس من يحاول أن يضرب مثلا أعظم وأكبر، ولذلك صار التنافس في طلب العلم غاية يسعي اليها كل الناس، ويعتز بها من ينالها، واذا كانت قد اختلفت أقدار الناس عند سعيهم لطلب العلم فانهم بعلمهم بعد ذلك قد تساووا، وتنافسوا، وسعوا دائما الي ما هو أحسن، فلقد تناظر ابن حزم مع الباجي شارح الموطأ فقال الباجي :

أنا أعظم منك همة في طلب العلم، لانك طلبته وأنت معان عليه، فتسهر في مشكاة الذهب وطلبته وأنا أسهر في قنديل بائت السوق. فقال ابن حـــزم هذا الكلام عليك لا لك : لانك انما طلبت العلم وأنت في هذه الحال رجاء تبديلها بمثل حالي، وأنا طلبته في حال ما تعلمه، وما ذكرته. علم لا أرجو به الا علو القدر العلمي في الدنيا والأخرة».

ومن تلك الحادثة يمكن أن نستنتج الدوافع العلمية عند الأندلسيين، فهي وان كانت بالنسبة للفقراء، السعى في سبيل الرزق، والرغبة في المكانة العلمية والوصول الي مراكز الحكم، فانها بالنسبة للأغنياء السعي لرضاء الله، والدار الأخرة وإزالة الجهل عن النفس، وعن سائر الجهال واحياء الدين، وابقاء أهل الأسلام فان بقاء الاسلام بالعلم، ولا يصح الزهد، ولا التقوي مع الجهل».

واذا كان طلاب الأندلس قد هرعوا الي المشرق ليتزودوا بالعلم، فانهم هناك قد حرصوا علي عدم اضاعة الفرصة، واهدار الوقت، وانما

استغلوا كل دقيقة ممكنة في العلم والتحصيل حتي يمكنهم العودة سريعا الي بلادهم، وهذا هو عالم الأندلس الفذ «يحيي بن يحي الليثي» الذي نقل الي الأندلس علم «مالك» وروي عنه الموطأ وعندما رحل الي مالك لازمه : فبينما هو عنده في مجلسه مع جماعة من أصحابه. اذ قال قائل : قد حضر الفيل، فخرج أصحاب مالك كلهم ولم يخرج يحيي. فقال له مالك : مالك لا تخرج وليس الفيل في بلادك ؟ فقال : انما جئت من الأندلس لانظر اليك، وأتعلم من هديك وعلمك، ولم أكن لانظر الفيل، فأعجب به الفقيه وقال : هذا عاقل الأندلس.

وهناك مجال آخر اثبت فيه تلامذة الأندلس نجابتهم وذكاءهم، واستعدادهم الفطري للتفوق والتقدم، وهو مجال قول الشعر حتي اعترف بهم شعراء المشرق كأساتذة.

فلقد لقي أبو الوليد بن عسال الأندلس أبا الطيب المتنبي في مسجد عمرو بن العاص وجري الحديث بينهما قال المتنبي : الا أنشدني لمليح الأندلس – يعني ابن عبد ربه – فأنشد له بعض الأبيات، فلما اكمل الأندلسي انشاده، استعاده المتنبي، ثم صفق بيده وقال : يا ابن عبد ربه لقد يأتيك العراق حبوا.

ومن السهل أن نلمح رغبة الأندلس في التخلص من السيطرة المشرقية، وسعيها الي تكوين شخصيتها العلمية، واهتمام أمرائها بتحقيق ذلك فبعثوا رسلا أذكياء، أكفأ الي دار السلام مزودين بمبالغ ضخمة من المال،ن وأوصوهم أن يسلكوا الممكن، وغير الممكن من الطرق للوصول علي أهم ما تتباهي به بغداد من دور العلم وجواهر المعرفة، فذهب أولئك

الرسل، واستعملوا الرويه والأناة، وبذلوا المال بسخاء. فنجحوا في رسالتهم، وقاموا بمهمتهم خير قيام، وعادوا من دار الحكمة وقد نقلوا أكثر ما ترجم من المؤلفات في بغداد، وسلموها الي الخلفاء فحفظوها بين صورهم، ونحورهم، ضنا بها، وحرصا عليها، وأمروا بنسخ صور كثيرة منها، فذاعت في ربوع الأندلس، ثم تخطت البحر المتوسط الي شمال افريقية.

ومن السهل علينا أن نلمح تشجيع الحكام للأندلسيين أنفسهم فيما حدث عند وصول أبي علي القالي من بغداد الي قرطبة والذي وفد على الأندلس في أيام الناصر أمير المؤمنين عبد الرحمن فأمر ابنه الحكم، وكان يتصرف عن أمر أبيه كالوزير، ابن رماحس، أن يجيء مع أبي على الى قرطبه ويتلقاه في وفد من وجوه رعيته ينتخبهم من بياض أهل الكورة تكريما لأبي علي القالي، ففعل، وسار معه الي قرطبة في موكب نبيل، فكانوا يتذاكرون الأدب في طريقهم، ويتناشدون الأشعار الي أن يتحاوروا يوما وهم سائرون حول أدب عبد الملك بن مروان ومساءلته جلسائه عن أفضل المناديل، وانشاده بيت عبده بن الطبيب.

ثمن قمنا الي جرد مسومة　　　أعرافهن لأيدنا مناديل

وكان الذاكر للحكاية الشيخ أبا علي، فأنشد الكلمة في البيت «أعرافها لأيدينا مناديل» فأنكرها ابن رفاعة الأليبيري، وكان من أهل الأدب والمعرفة، وفي خلقه حرج وزعارة، فاستعاد أبا علي تثبتا مرتين في كلتيهما قال «أعرافها» فلوي ابن رفاعة عنانه منصرفا وقال أ مع هذا يوفد علي أمير المؤمنين، ويتجشم الرحلة لتعظيمه، وهو لا يقيم وزن بيت

مشهور بين الناس لا تغلط فيه الصبيان ؟، والله لا أتبعه خطوة، وانصرف عن الجماعة، وندبه أميره ابن رماحس الا يفعل فلم يجد فيه حيلة، وكتب الي الحكم يعرفه؛ ويصف له ما جري لابن رفاعة، ويشكوه فأجابه الحكم علي ظهر كتاب. «الحمد لله الذي جعل في بادية من بوادينا من يخطيء وافد أهل العراق الينا وابن رفاعة اولي بالرضا عنه من السخط فدعه، وشأنه وأقدم بالرجل غير منتقص من تكرمته فسوف يعليه الاختبار ان شاء الله تعالي»

من هذا تتبين الرغبة الحقيقية عند أهل الأندلس بوجود علم خاص بهم، والفخر بعلمائهم. نعم كان الاتجاه الي المشرق لأخذ أفضل ما عنده ،ولكنه لم يكن تلقيا لما عند المشرق فقط، بل كان استيعابا له، ثم تعليقا عليه، وبعد ذلك انتاجا خالصا خاصا بهم.

نعم لقد تعرض أبو علي القالي للانتقاد، وكانت هذا سهلا بالنسبة لما حدث لصاعد الطبقي حين جاء بعد ذلك بمدة طويلة. لقد عقدت له الاختبارات العديدة في اللغة، والشعر والأدب، وأخبار الدول، وتعرض للنقد الشديد في مجالس المنصور، وأغرق كتابه الفصوص في الماء واتهم بالكذب عدة مرات.

قال ابن بسام : ولما دخل صاعد قرطبة أيام المنصور ابن أبي عامر - عزم المنصور علي أن يقتفي به اثار أبي علي البغدادي الوافد علي بني أمية، فما وجد عنده ما يرتضيه، وأعرض عنه أهل العلم وقدحوا في علمه وعقله، ودينه، ولم يأخذوا عنه شيئا لقلة الثقة فيه، وكان قد آلف كتابا سماه «الفصوص» فدحضوه، ورفضوه، ونبذوه في النهر»

نعم لم يكن الأمر علم صاعد، قوته، أو ضعفه، فمما لا شك فيه أن صاعدا واحد من علماء عصره المشهورين، وقد قام بالتدريس في قرطبة، لجمهرة من الطلاب والعلماء، وله مؤلفات عدة، ولكنها شخصية الأندلس التي نمت، وقويت، وازدهرت، واصبحت تنظر للغريب نظرة فيها استنكار واستعلاء.

يقول المقري : ومن غريب ما جرى لصاعد أن المنصور جلس يوما، وعنده أعيان مملكته ودولته من أهل العلم، كالزبيدي، والعاصي، وابن العريف. فقال لهم المنصور : هذا الراحل الوافد علينا يزعم انه متقدم في هذه العلوم، وأحب ان يمتحن، فوجه اليه، فلما مثل بين يديه والمجلس قد احتفل أخجل، فرفع المنصور محله وأقبل عليه ، وسأله عن أبي سعيد السيرافي» فزعم أنه لقيه وقرأ عليه كتاب «سيبويه» فبادره العاصي بالسؤال عن مسألة من الكتاب، فلم يحضره جوابها واعتذر بأن النحو ليس جل صناعته، فقال له الزبيدي «صاحبكم ممخرق» (أي كاذب، ومموه) فقال له صاعد أخال الشيخ صناعته الأبنية، قال الزبيدي : أجل : قال صاعد. وبضاعتى أنا حفظ الاشعار،ن ورواية الأخبار، وفك المعتمي، وعلم الموسيقي ..»

ولقد أعطي الحكام للعلماء كل الاحترام والتكريم، حتي أصبحوا كأنهم الحكام الحقيقيون، مما جعل الناس يسارعون الي التعليم، ويعملون علي احترام المعلمين بصورة لا تداينها في عظمتها صورة أخرى.

من رسالة للشقندي في فضل الأندلس يقول : ولقد أخبرت أن الحكم الربضي أراد تقديم شخص من الفقهاء يختص به للشهادة. فأخذ في ذلك

مع يحيي بن يحيي، وعبد الملك، وغيرهما من اعلام العلماء فقالوا له : هو أهل، ولكنه شديد الفقر؛ ومن يكون هذه حاله لا تأمنه علي حقوق المسلمين، ولا سيما وأنت تريد انتفاعه وظهوره في الدخول في المواريث، والوصيا وأشباه ذلك. فسكت ولم يرد منازعتهم،وبقي مهموما من كونهم لم يقبلوا قوله. فنظر اليه ولده بعد الرحمن الذي ولي الملك بعده وعلي وجهه أثر ذلك فقال : ما بالك يامولاي ؟ فقال ألا تري هؤلاء الذين نقدمهم، وننوه عند الناس بمكانتهم، حتي اذا كلفناهم ما ليس عليهم فيه شطط بل ما لا يعيبهم، ولا مما هو يرزؤهم صدونا عنه، وغلقوا أبواب الشفاعة، وذكر له ما كان منهم. فقال : يا مولاي أنت أولي الناس بالانصاف، أن هؤلاء ما قدمتهم أنت ولا نوهت بهم، وانما قدمهم ونوه بهم علمهم، أو كنت تأخذ قوما جهالا فتضعهم في مواضعهم ؟ فقال : لا قال : فانصفهم فيما تعبوا فيه من العلم لينالوا به لذة الدنيا وراحة الآخرة. قال : صدقت ثم قال - عبد الرحمن - وأما كونهم لم يقبلوا هذا الرجل لشدة فقره، فالعلة في ذلك تنحسم بما يبقي لك في الصالحات ذكرا. قال : وما هو ؟. قال : تعطيه من مالك قدر ما يلحق به من الغني ما يؤهله لتلك المنزلة، ويزيل عنك خجل ردهم لك، وتكون هذه مكرمة ما سبقك اليها أحد. فتهلل وجه الحكم وقال : الي، الي انها والله لشنشنة عبشمية ثم استدعى عبد الملك بن حبيب وسأله عن قدر ما يؤهله لتلك المرتبة من الغنى فذكر له عددا فأمر له به في الحين. فاذا كان ذلك كذلك من الحكم الربضي، وهو المعروف بقسوته، واعتزازه بنفسه، وكبريائه فانه من الممكن لنا أن نتصور المكانة التي احتلها العلماء والفقهاء في الدولة الأندلسية.

أحس الناس في الاندلس بقيمة العلم، فأقبلوا علي التعليم بكل وجدانهم ومشاعرهم، لا يبالون بالمصاعب، والمتاعب،ولا يهتمون بما ينفقون، ولكنهم فقط يتعلمون حتي «يري المستشرق الهولندي دوزي، وقد وقف حياته علي دراسة تاريخ الأندلس أن الامية كانت نادرة، والثقافة شائعة، ويقص علينا ابن بشكوال أنه كان في سوق قرطبة باعة عنب وتين يستطيع الواحد منهم أن يقرأ من الذاكرة أمامك كتاب «معاني القرآن» لابي جعفر النحاس».

والواقع أن رغبة أهل الأندلس في العلم قد فاقت كل الحدود، وكانوا أحرص الناس علي ذلك، هذا وسوف ابين في الفصول القادمة أي العلوم قد اهتموا بها، وتأثير تلك العلوم في المجال الفكري والعلمي، والسياسي للاندلس.

ولقد احتفظت لنا كتب التاريخ بالكثير من الرسائل الخاصة بالحديث عن فضل أهل الاندلس وذكر اخبار علمائها، وقضاتها، وفقهائها، وأطبائها، ومن الأمثلة علي ذلك تلك الرسالة الكبيرة التي كتبها ابن حزم القرطبي والتي احتفظ لنا «المقري» بنصها في كتابه «نفح الطيب» ردا علي رسالة بعث بها أبو الحسن بن محمد بن احمد بن الربيب التميمي القيرواني الي أبي المغيره عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن حزم «يذكر تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم، ومأثر فضلهم، وسير ملوكهم» فانبري ابن حزم يذكر علماء الأندلس، ويعدد أفضالهم ومؤلفاتهم في حماس بالغ لوطنه.

وقل قال آسين بلاثيوس المستشرق الأسباني الكبير عن هذه الرسالة «انها تضم ثبتا بما ألف الأندلسيون في صفوف الأداب والعلوم، وهي في فصول كل منها يدور حول صنف من العلوم والأداب».

وبالرجوع الي نص رسالة ابن حزم يمكنك أن تتبين منها بوضوح ما سبق أن أشرت من الرغبة القوية الموجودة عند الأندلسيين في الاستقلال الفكري، وتكوين الشخصية الذاتية لتفكير الأندلس، بل والتباهي علي الشرقيين بالانتاج العلمي في بلادهم فيقول ابن حزم «وعلي ذلك فقد جمع ما ظنه الظان غير مجموع، وألفت عندنا تأليف في غاية الحسن، لها حظ السبق في بعضها : منها كتاب «الهداية» لعيسي بن دينار، وهي أرفع كتب جمعت في معناها علي مذهب مالك وابي المقاسم، وأجمعها للمعاني الفقهية علي المذهب» ويقول ابن حزم عن كتاب بقي بن مخلد في تفسير القرآن «وفي تفسير القرآن، كتاب أبي عبد الرحمن بقي بن مخلد فهو الكتاب الذي أقطع قطعا لا استثني فيه أنه لم يؤلف في الاسلام تفسير مثله، ولا تفسير محمد بن جرير الطبري، ولا غيره».

ويذهب ابن حزم لابعد من هذا حيث يقرر أن قواعد ابن مخلد صارت أسسا للاسلام وانه اصبح صاحب مذهب خاص لا يقلد فيه أحدا «صارت تآليف هذا الامام الفاضل قواعد للاسلام، لا نظير لها، وكان متميزا لا يقلد أحدا، وكان ذا خاصة من أحمد بن حنبل رضي الله تعالي عنه».

ويقول كذلك عن ابن عبد البر «وهو الان يعد في الحياة لم يبلغ سن الشيخوخة بعد، وهو لا أعلم في الكلام علي فقه الحديث مثله أصلا فكيف أحسن منه».

ومن الجدير بالذكر في هذا المجال أن بعض المؤلفين الأندلسيين حينما ذهبوا الي المشرق قد قاموا بتأليف كتب هناك لأهل المشرق لتوضح لهم مكانة أهل الاندلس في العلم، ومن هؤلاء محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي صاحب كتاب «جذورة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس وأسماء رواة الحديث،. وأهل الفقه، والادب ، وذوي النباهة والشعر «ومن المقدمة يمكننا أن نلمح الرغبة الملحة في الافتخار بقطره، والاعتزاز به، يقول في ذلك» أما بعد فان بعض من التزم واجب شكره علي جميل بره، لما وصلت الي بغداد، وحصلت من افادته علي افضل مستفاد، نبهني علي أن أجمع ما يحضرني من اسماء رواة الحديث بالاندلس، واهل الفقه والأدب، وذوي النباهة والشعر، ومن له ذكر منهم، أو ممن دخل اليهم، أو خرج عنهم في معني من معاني العلم والفضل أو الرياسة والحرب.

فأعلمته ببعدي عن مكان هذا المطلوب، وقلة ما صحبني من الغرض المرغوب، وأني ان رمته علي قلة ما عندي، وتعاطيته علي انقطاع موادي وبعدي، لم أخل من أحد وجهين : اما أن ابخس القوم حظهم وانقصهم، فأتعرض للائمتهم فيما اوردت، وأقف موقف الاعتذار فيما له قصدت واما أن أوهم من رأي قلة جمعي، ونهاية ما في وسعي أنه ليس من أهل الفضل في تلك البلاد الا نزر من الأعداد، فأكون بعد احتفالي لهم قد قصرت بهم، وعند اجتهادي في ذكرهم قد أخللت بفخرهم.

وهذا أبو بكر محمد بن داوود يكتب كتاب الزهرة من مائة باب في كل باب مائة بيت ، فيأتي احمد بن محمد بن فرج الجياني فيؤلف كتاب الحدائق في مائتي باب في كل باب مائتي بيت ولا يفوت الحميدي أن

يعلق ذلك «أحمد بن محمد بن فرج، وقد ينسب الي جده فيقال احمد بن فرج وكذلك أخوه، وهو وافر الادب كثير الشعر، معدود في العلماء وفي الشعراء وله الكتاب المعروف بكتاب الحدايق، الفه للحكم المستنصر، وعارض فيه كتاب الزهرة لابن داود بن الاصبهاني، الا ان الاصبهاني ذكر مائة باب في كل باب مائة بيت، وابو عمر اورد مايتي باب، في كل باب مايتى بيت ليس منها باب تكرر اسمه لابي بكر، ولم يورد فيه لغير الاندلس شيئا، وقال ابن حزم : واحسن الاختيار ما شاء واجاد فبلغ الغاية.

واذا ما كتب كتاب في تاريخ بغداد، وأهميتها، وعظماء رجالها، يسارع الأندلسيون الي كتابه مثله في تاريخ قرطبة، وأهميتها، وعظمتها، فهذا احمد بن محمد بن موسي الرازي له في أخبار ملوك الأندلس، وخدمتهم، نكباتهم، وغزواتهم كتاب كبير، وألف في صفة قرطبة وخططها، ومنازل العظماء بها كتابا علي نحو ما بدا به أحمد بن طاهر في أخبار بغداد وذكره صاحبه المنصور بها».

فاذا كانت هذه رغبة أهل الأندلس في تكوين شخصية مستقلة عن الشمرق فليس معني ذلك هو التخلي عن الثقافة المشرقية، ولكنني أريد أن أقول، ان الأندلس قد فتحت ذراعيها لأقصي حد ممكن لاستقبال المؤثرات الثقافية المشرقية وتتبع خطوات الشرق في كل شيء، في نفس الوقت حاولت أن تهضم هذه الحضارة ثم تفرزها حضارة جديدة تحمل الطابع الأندلسي.

ولقد نجح الأندلسيون في ذلك الي حد بعيد، فنمت حضارتهم، وتطورت علومهم وأقبلوا جميعا علي العلم، وعلي التعليم، حتى استطاعوا ان يتركوا لنا تراثا كبيرا يقول المقري «وأما حال أهل الاندلس

في فنون العلم، فتحقيق الانصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرص الناس علي التمييز، فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجتهد أن يتميز بصنعة، ويربأ بنفسه أن يري فارغا عالة علي الناس، لان هذا عندهم في نهاية القبح، والعالم عندهم معظم من الخاصة ومن العامة، يشار اليه، ويحال عليه، وينبه الي قدره وذكره عند الناس، ويكرم في جوار أو ابتياع حاجة وما أشبه ذلك».

واذا كان لي أن اكتب ملاحظة ختامية لهذا الفصل القصير عن رغبة أهل الاندلس في احتلال مكانة علمية عالية، فلقد ضرب الطلبة الاندلسيون الراحلون الي المشرق أكبر المثل في الثقافة ومساعدة بعضهم البعض، من أجل التفوق، والدراسة.

لقد سيطرت عليهم روح العلم بمعناه الكبير، روح الزمالة بكل قيمها الحلوة، فلم نسمع عنهم بمثل ما يحدث بين الزملاء، من غيره، وتحاسد، بل نجدهم منذ البداية يسعى بعضهم لمساعدة البعض الآخر بكل ما يستطيع حتي اننا نرى داود بن عيسي - من اهل قرطبه - حين «رحل الي المشرق فاجتمع مع بقي بن مخلد، وكان بقي لامال له، وكان داود واسع المال، فسأله بقي أن يتيح له من ماله ما يشتري به الكتب ويجمع الدواوين، ويكون سماعهما واحدا، وقال له : أرجو أن ينفعك الله بذلك، فأجابه داود الي ذلك، فكان سبب استكثار «بقي» من الرواية والجمع، ولما انصرف الي الاندلس كتب «بقي» الكتب لنفسه».

وليس عندي ما أضيفه أكثر مما قيل في حق «عبد الملك بن حبيب مؤرخ الاندلس الأول، والتي تؤكد « علي أن جرأة الفقيه الالبيري في

اقدامه علي كتابة تاريخه الكبير تدعو الي الاعجاب بذلك العالم المتوسط الثقافة الذي اراد أن يؤكد قوميه الاندلسية منذ ذلك الوقت المبكر في ميدان العمل الثقافي والفكري» .

ولمن يجد اهتماما أكثر بهذا الموضوع أن يطلع علي ما كتبه العالم المصري الكبير :

محمود علي مكي في رسالته للدكتوراة تحت عنوان مقدمة «رحلات الاندلسيين والمشرقيين» والذي أوضح بطريقة منظمة السمات الخاصة بالاندلس داخل المجتمع الاسلامي، مثلها في ذلك مثل سائر الاقطار الاسلامية الاخري.

هذا وقد عقد الدكتور : مكي، فصلا مطولا في نهاية كتابه للحديث عن «تكون نمو الشخصية لاسبانيا الاسلامية فى عصر الخلافة» .

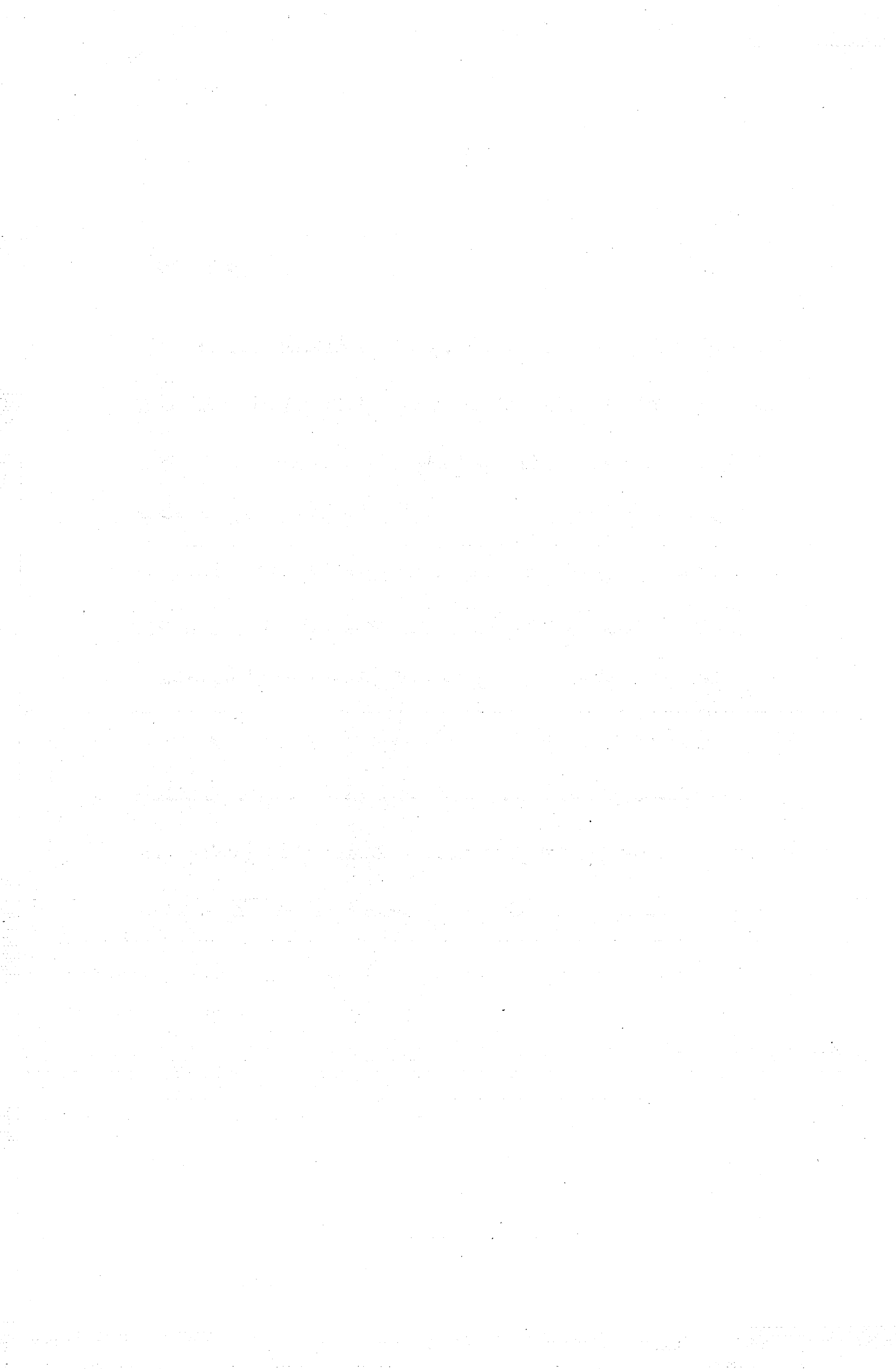
واختتم هذا الفصل ايضا بشهادتين لعالمين من علماء العصر الحديث حول هذه الفترة .

يقول أحدهما :

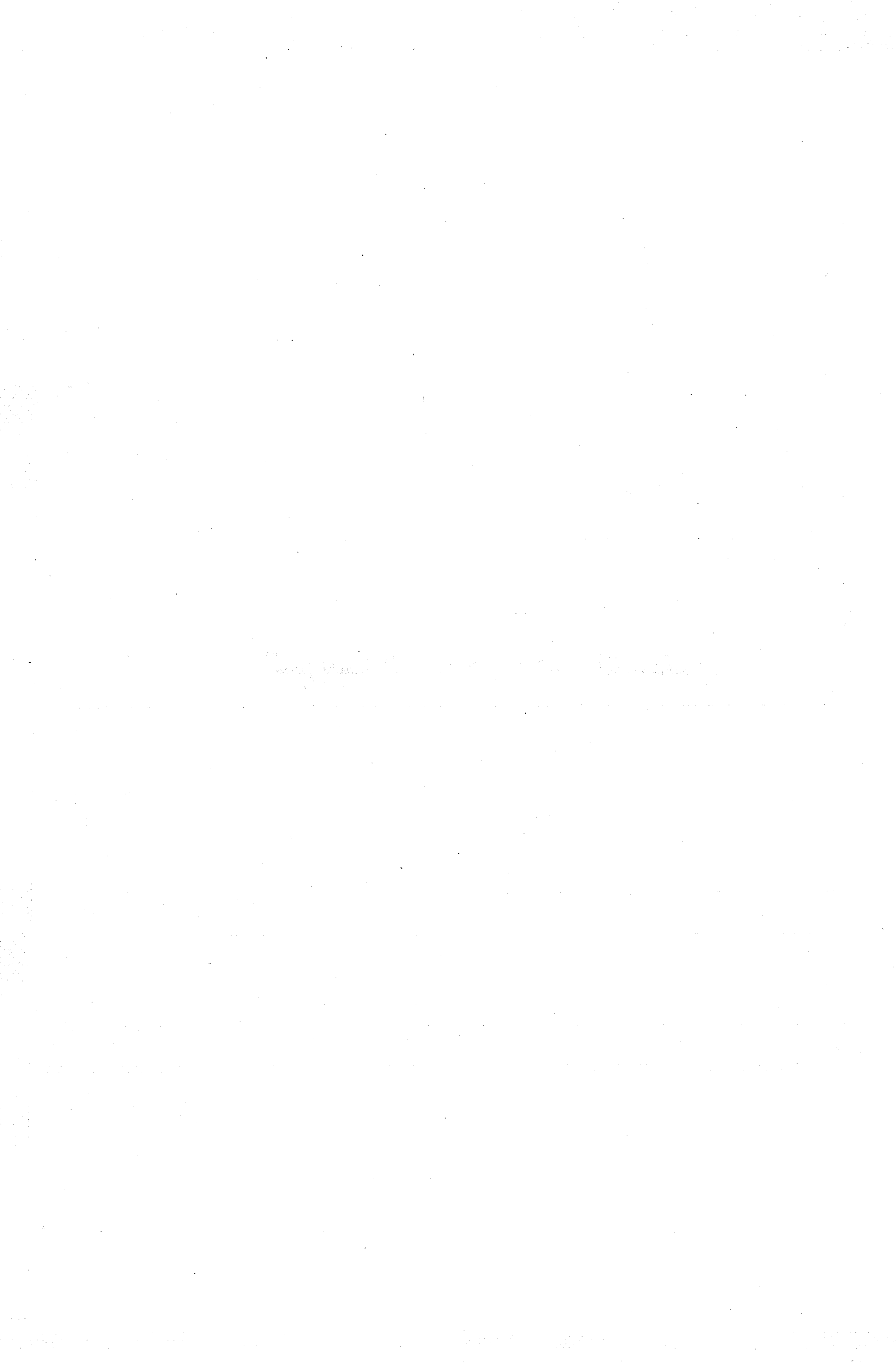
«هذا الاندلس؛ مركز، ومنار، لقد اشرق ذات يوم، وكان اشراقه مطمح الاطماع، ومحط الابصار النهمة الجامحة الي العلم في كل فرع من فروع المعرفة في تلك الفترة المزدهرة والمقدسة»

يقول الآخر :

«ان الكميات الهائلة من المترجمات العربية الي اللاتينية والتي تمت خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، قد اعيد صياغتها خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، مما اعطي صورة طيبة للعلماء ورجال الدراسات الانسانية في اوروبا لكي يرسموا صورة لما كانت عليه العلوم العربية علي ارض شبه الجزيرة ولقد نسب هؤلاء العلماء كل ذلك الازدهار الرائع للحضارة الاسلامية الي الشخصية الاندلسية حتي انهم ذكروا من ذلك علماء من المشرق من الذين لم يقدر لهم ان يطأوا التراب الاندلسي - مثل ابن سينا ولذلك لم يكن من الغريب ان لا يتردد ولو للحظة واحدة مؤرخ العلوم الذائع الصيت «سارتون» في اعتبار اسبانيا الاسلامية اعظم مركز ثقافي وحضاري في العالم في العصور الوسطى»



التربية الإسلامية في الأندلس



مقدمة : توجد صلة وثيقة بين النظام التربوي بكافة عناصره والمستوي الاقتصادي والفكري والنظام السياسي في أي بلد من بلدان العالم، ولذلك فانه من الطبيعي ونحن نبحث عن سر التقدم العلمي ومن ثم الرخاء الاقتصادي، والتناغم الاجتماعي لأمة من الأمم نجد لزاما علينا ان نبحث في نظامها التربوي، والاسلوب المتبع في اعداد ابنائها للمستقبل.

ولقد بلغت الأندلس شأوا بعيدا في مجال التقدم الفكري والحضاري وقدمت للحضارة الانسانية نماذج عظيمة من المفكرين والأدباء والفلاسفة والعلماء والفقهاء وغيرهم من أساطين العلم والفن، وكان لنظامها التعليمي وأسلوب التربية في هذه البلاد الدور الأكبر في هذا الرقي الاجتماعي، وهذا التطور الاقتصادي، وهذا الازدهار العلمي الهائل، مما جعله جديرا بالدراسة والبحث واستجلاء كل مناحيه.

الأطار التاريخي للبحث :

استقر المسلمون في الأندلس منذ دخولهم هذه البلاد عام ٧١١م واستمروا فيها الى ان تم الاستيلاء علي غرناطة، اخر مملكة اسلامية علي أرض الأندلس وذلك في يناير عام ١٤٩٢م.

ويعمد المؤرخون الي تقسيم هذه الحقبة التاريخية الطويلة الي فترات زمنية محددة، لها معالمها الواضحة، ورغم صعوبة الفصل بين فترات

التاريخ، الا ان الغالبية العظمي من مؤرخي الأندلس، العرب وغير العرب، يتبعون ذلك التقسيم المجازي، وهوعلي النحو التالي :

أولا : عصر الولاة، وهي الفترة التي تلت الفتح الاسلامي للاندلس واستمرت من حوالي عام ٩٥هـ الي عام ١٣٨ هـ وتميزت هذه الفترة الباكرة بوضع الأسس الأولي لنشر اللغة العربية والاسلام في الأندلس، كما أنها حاولت نشر الاسلام خلف جبال البرت، علاوة علي كونها الفترة التي نبتت فيه البذور الأولي للحضارة الأندلسية، ومنها انطلقت حركة البناء والتطوير والتكوين.

ثانياً : عصر الامارة : وتبدأ هذه الفترة بتولي الامير عبد الرحمن الداخل عرش الأندلس في عام ١٣٨ هـ، وتمتد الي عام ٣١٦ هـ حين أعلن عبد الرحمن الناصر نفسه خليفة علي الاندلس وتميزت هذه الفترة بالتطور الحضاري السريع وبروز شخصيات اندلسية كبيرة في مجالات فكرية شتي من امثال الفقيه يحيي بن يحيي الليثي، وبقي بن مخلد والعالم عباس بن فرناس، والمفكر محمد بن عبد الله بن مسرة والمغنى ابو الحسن علي بن نافع المعروف بزرياب والسفير الحكم الغزال.

ثالثاً : عصر الخلافة : عصر الخلافة : وهو العصر الذهبي للمسلمين في الاندلس، وقد حكم خلاله ثلاثة من الشخصيات القوية العظمى، الخليفة عبد الرحمن الناصر ثم ابنه الحكم الثاني، ثم الحاجب المنصور بن ابي عامر، ويمتد هذا العصر طيلة القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي.

لقد نجح حكام الاندلس ابان هذه الفترة في توحيد الدولة الأندلسية وتدعيم سلطة الحكومة المركزية في قرطبة، ولم يكن نجاحهم في المجال السياسي فحسب، بل كان النجاح الأكبر في المجالات الاقتصادية حتي زاد دخل الدولة زيادة كبيرة، واصبح ثلث هذا الدخل يكفي للمصاريف العامة، ويدخر الثلث لمواجهة متطلبات المستقبل، وفي المجالات العمرانية التي وجه اليها ثلث دخل الدولة تماما، وتمثل الاهتمام العمراني في بناء المساجد والقصور وخاصة مسجد قرطبة الجامع ومدينة الزهراء حتي غدت مدينة قرطبة «أم القري، وقرارة أولي الفضل والتقى ووطن أولي العلم والنهى».

اما أهم ما ارتقت اليه الأندلس علي عصر الخلافة فقد كان في المجال الفكري والأدبي، حيث قام عبد الرحمن الناصر، وربما للمرة الأولي بتكليف ابنه الحكم الثاني للقيام بمهمة رعاية العلم والعلماء في مملكته وقام الحكم باعمال عظيمة حتي غدت مدينة قرطبة عروس الغرب كما كانت بغداد عروس الشرق، وقال فيها الشاعر ابن شخيص :

بأربع فاقت الأمصار قرطبة

منهن قنطرة الوادي وجامعها

هاتان ثنتان والزهراء ثالثة

والعلم أفضل شيء وهو رابعها

ومما لاشك فيه ان الاستقرار السياسي، وما يتبعه من نمو اقتصادي، وازدهار فكري يولد ايضا التسامح الفكري والعقائدي بين طوائف المجتمع، ويقضي علي روح التعصب والكراهية ويدفع بالجميع الي التعاون والعمل من أجل الرقي الانساني، والتطور الحضاري، ولهذا برز في هذا العصر علماء كبار من المسلمين والمسيحيين واليهود، أدوا دورهم العظيم في رقي الحضارة الأندلسية.

واستمرت فترات التاريخ الأندلسي بعد ذلك لتشمل فترة ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين الي آخر حكم المسلمين في الاندلس مملكة غرناطة.

المرحلة التعليمية الأولى :

بدا الاهتمام بتعليم الأطفال في الأندلس بعد السنوات الأولي من الفتح الاسلامي، وهناك نصوص تاريخية تؤكد قيام مكاتب تعليم الأطفال في الأندلس في حدود سنة ١٢٠ هـ / ٧٣٨م ثم زاد انتشارت هذه المكاتب باستمرار علي عهد بني امية في الاندلس وقد قام الحكم المستنصر بالله ببناء سبعة وعشرين مكتبا في مدينة قرطبة وحدها لتعليم اولاد الفقراء مجانا، وحبس عليها حوانيت السراجين للانفاق علي المعلمين من دخلها ولقد وجدت هذه المكاتب في كافة الأحياء بالمدن والقري، وتدل كثرة أسماء المعلمين الواردة في كتب التراجم علي الانتشار الواسع لهذه المكاتب في كافة انحاء الأندلس.

ولقد استخدمت المساجد في احيان كثيرة كمكان لتعليم الأطفال واقيمت المكاتب في جنباتها او في فنائها الخارجي، وعلي الرغم من

معارضة الفقهاء لاتخاذ المساجد مكانا لتعليم الأطفال الا ان اهل الاندلس لم يلتزموا بذلك التزاما حرفيا، ولعل السبب في استخدام المساجد كمكان لتعليم الاطفال يرجع الي ان كثير من خدمة المساجد كانوا يحترفون هذه المهنه مما جعل من السهل عليهم ممارسة العملين في وقت واحد.

كما وجدت المكاتب في المنازل أو في المحلات أو في اي مكان يصلح لكي يقوم المعلم فيه بتعليم الأطفال.

ويبدأ الأطفال في الذهاب الي هذه المكاتب في سن السادسة أو السابعة، ويظلون يتعلمون بها الي سن الثانية عشرة أو الثالثة عشر تقريبا.

وكانت المهمة الأساسية لهذه المؤسسة التعليمية الأولي تتركز في تعليم الأطفال القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، الذي كان تعليمه وحفظه هو الهدف السائد في هذه المرحلة في كافة انحاء العالم الاسلامي حيث يرى ابن خلدون ... «.. أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين اخذ به أهل الملة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم».

لكن أهل الأندلس تميزوا عن باقى أنحاء العالم الاسلامي بانهم قد اهتموا بأن يخلطوا في تعليمهم القرآن بعض المواد الأخري مثل رواية الشعر، وبعض العربية واعطوا اهتماما خاصا بتعليم القراءة والكتابة وتحسين الخط حتي اصبح خطهم مميزا، علاوة علي تميزهم في مجالات اللغة العربية والأدب علي ما يعترف بذلك ابن خلدون.

كان الأطفال يذهبون الي المكتب في الصباح الباكر، ويظلون هناك الي أن ينتصف النهار، ويعودون الي المنزل للغذاء والراحة ثم يعودون الي

المكتب فترة ثانية من وسط النهار حتي بعد العصر بقليل حيث ينتهي اليوم الدراسي. وأيام ا لتعليم خمسة أيام : السبت الأحد والأثنين والثلاثاء والأربعاء وصبيحة الخميس فقط «وكان للأطفال نصف يوم الخميس وطول يوم الجمعة عطلة للراحة، بالاضافة الي ايام عيد الفطر الثلاثة وعيد الاضحى الاربعة وبعض أيام المناسبات».

ويتلخص التعليم في هذه الفترة في قيام المعلم بقراءة آية من الآيات ثم يقوم الأطفال بترديدها حتي يحفظونها، ثم ينتقلون الي آية أخري وهكذا، وفي نفس الوقت يبدأ الأطفال في تعليم القراءة والكتابة، ولذلك كان علي الاطفال أن يحملوا معهم ألواحهم ومحابرهم، ولقد كانت تلك الألواح تصنع من الحجر أو الخشب، وكان من السهل محوها بالماء او بقطعة من القماش.

علي الرغم مما ورد في كثير من كتب التراث الاسلامي عن سوء حالة معلمي الكتاب في بعض انحاء العالم الاسلامي الا اننا نجد أن معلمي الأندلس قد تمتعوا بمكانة اجتماعية عالية ومن بينهم معلمو الكتاب، ولقد كان من مظاهر تقديرهم أن لقب «معلم كتاب» قد تصدر ترجماتهم وبيان فضائلهم في كتب التراجم الأندلسية. علاوة علي ذلك فان المستوي الثقافي لمعلمي الأندلس كان مرتفعا نسبيا، ويفسر ذلك كثرة الاشارات الواردة عنهم في المؤلفات الأندلسية بل ان بعضهم كان يحضر مجلس الخليفة عبد الرحمن الناصر ويتلقي جوائزه.

ولقد استقر الرأي في الاندلس منذ البداية علي دفع أجرة للمعلمين وهناك من الوثائق ما يؤكد قبول الأجر علي التعليم في الأندلس منذ عصر

الولاة (٧١٤ - ٧٥٦م) وان وجد بعض المعلمين ممن كانوا لا يتقاضون اجرا من الصبيان، وكانوا يعتمدون علي منح الحكام أو رواتبهم التي حددتها لهم الدولة.

اما بالنسبة للبنات فلم تكن تذهب الي المكتب وانما كانت تتعلم في المنزل حيث تولي تعليمها اما أهلها أو معلمات كن يستأجرن لتعليم البنات، وتشير كتب التراجم الأندلسية الي عدد من النساء الأندلسيات كن يقمن بالتعليم منهن ابنة حزم المعلم التي كانت تؤدب مع والدها واخيها في دار واحدة.

والخلاصة التي يمكن ان نستنتجها من نظام التعليم الأولي في الاندلس، ان الاطفال اذا ما انتهوا من دراستهم الأولي فانهم يتمتعون بميزتين، الاولي المعرفة السليمة بدينهم والمعرفة السليمة بلغتهم، وكان هذا هو الاساس الذي بني عليه الأندلسيون تعليمهم بعد ذلك.

المرحلة التعليمية الثانية :

تبدأ هذه المرحلة بعد انتهاء الأطفال من دراستهم في المكتب، وتتميز بأن مكانها الاساسي كان فى المسجد حيث يجلس العلماء والمؤدبون للتدريس ومن ثم اصبح المسجد اهم مؤسسة تعليمية في الأندلس على ما كان عليه الحال في كافة انحاء العالم الاسلامي.

أنتشرت المساجد في الأندلس انتشارا واسعا حيث تنافس الخلفاء والأمراء والعلماء والاثرياء في بناء المساجد حتي وصل القول بأن عدد المساجد في قرطبة وحدها قد وصل الي ١٣٨٧٠ مسجد. مما يعني انتشار

أماكن التعليم فى الأندلس انتشارا واسعا جداً.

وبالاضافة الي المساجد هناك المنازل، والقصور والمكتبات، والرباطات وكلها اماكن ساهمت في نشر التعليم في الأندلس.

المنهج التعليمى فى المرحلة الثانية :

كان المنهج التعليمي الذي يتلقاه الشباب الأندلسي متسما بالمرونه والاتساع، فهو وان كانت العلوم الدينية هي الأساس الأول الذي اهتم به الأندلسيون الا ان الفرصة كانت متاحة لتلقي علوم أخري غير العلوم الدينية فكان هناك كم واسع من المعارف يمكن للطلاب ان يقبلوا عليها ويتعلمونها، ودراسة كتب التراجم الأندلسية تبين لنا ان ما كان ممكنا ان يقبل الطلاب علي تعلمه كان كثيرا الي درجة يمكن ان نقول بها انها كانت تغطي كل جوانب الثقافة المعروفه في ذلك الوقت، واذا كان الطفل في المرحلة الاولي قد وجد نفسه مقيدا بمنهج معين يتمثل في حفظ القرآن وبعض اشعار العرب، فانه في المرحلة التعليميةِ الثانية قد وجد الفرصة ليكون ثقافته ومعارفه في المجالات التي توافق ميوله وقدراته العقلية، واذا كان الطفل قد وجد نفسه في المرحلة الأولي ملتزما بالمكتب يغدو اليه يوميا مرتبطا بساعات حضور وانصراف، فانه في هذه المرحلة الثانية قد تخلص من هذه القيود، ووجد امامه حلقات المعلمين في المساجد وفي غيرها يختار من بينها الأستاذ الذي يميل اليه والمادة التي يهواها، والوقت الذي يناسبه، ويمكن لنا ان نجمع العلوم التي كان يقبل عليها الطلاب في المجموعات التالية :

١- العلوم الدينية وتشتمل علي مواصلة دراسة القران والحديث، وما نجم عنهما من فروع كثيرة متشعبة مثل التفسير، والقراءات، والفقه وعلم الحديث، ولقد تميزت بلاد الأندلس باهتمامها بالعلوم الدينية وخاصة في القراءات القرانية والتفسير، وظهر في هذا المجال علماء اندلسيون كبار بلغت شهرتهم المدن الاسلامية الكبري كالقاهرة وبغداد، وبعضهم قام بالتدريس في هذه البلاد ومنهم اليسع بن عيسي الفافقي المتوفي ٥٧٥ هـ / ١١٧٩م الذي سكن الاسكندرية ثم رحل الي مصر (القاهرة) فاشتمل عليه الناصر صلاح الدين. والقاسم بن فيرة الشاطبي المتوفي ٥٩٠ هـ / ١١٩٣م، استوطن مصر، واشتهر اسمه وبعد صيته، وقصده الطلبه من كل النواحي، وكان اماما، علامة، ذكيا كثير الفنون، منقطع النظير، رأسا في القراءات، حافظا للحديث، بصيرا بالعربية. تصدر للاقراء في مصر، فعظم شأنه، وبعد صيته، وانتهت اليه الرياسة في الاقراء، وتصدر للاقراء فى المدرسة الفاضلية.

٢- العلوم اللغوية :

حظيت العلوم اللغوية باهتمام الأندلسيين الذين أولوها عناية كبيرة، وخاصة الحكام والأمراء الذين ركزوا اختيارهم لمناصب الوزارة والكتابة والأمور العامة من بين البارزين في هذه العلوم.

ولعل أحد اسباب اهتمام الاندلسيين باللغة العربية وعلومها يرجع الي المجهود الذي كان من الواجب بذله لتعريب جميع سكان شبه الجزيرة الايبيرية واذا كانت مجموعة العلوم الدينية قد وجدت اهتماما من

المسلمين بغرض المحافظة علي الدين ونشره فقد كان من الطبيعي ان لا تلقي اهتماما من غير المسلمين لعدم حاجتهم الي تعلمها، فعلي العكس من ذلك حظيت العلوم اللسانية باهتمام كبير من غير المسلمين، وحرص كل من المسيحيين واليهود علي تعليمها واجادتها حتي كان المستعربون من اليهود والنصاري الذين حافظوا علي دينهم الأصلي يتكلمون اللغة العربية بفصاحة وطلاقة حتي الفوا بها، ونظموا بها الشعر، وأصبحت هي لغة الحياة العائلية ولقد ساعد علي ذلك تعريب الدواوين والرسائل والمعاملات التجارية مما اجبر السكان جميعا علي اختلاف اديانهم علي تعلم اللغة العربية، ولقد بدأت الدراست اللغوية في الأندلس مبكرا جدا حيت رحل الطلاب الأندلسيون في عصر الولاه وبدايات عصر الامارة وعادوا الي الأندلس محملين بكتب اللغة نم تطورت هذه الدراسات تطورا كبيرا بمقدم بعض العلماء المشارقة الي الاندلس حتي كان مستوي اللغة في الاندلس مرتفعا جدا اعترف به ابو علي القالي (٢٨٨ - ٣٥٦ هـ / ٩٠١ - ٩٦٧م) أحد علماء اللغة البارزين الذين قدموا الى الاندلس علي عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله.

وكان من نتيجة اهتمام الأندلسيين بالعلوم اللغوية، انها كانت من أهم ما يتعلمه الطلاب الأندلسيون منذ بداية حياتهم التعليمية، ومن ثم برز في الأندلس عدد جم من علماء اللغة اشار اليهم العالم الأندلسي الكبير ابي بكر الزبيدي في كتابه «طبقات النحويين».

٣- العلوم العقلية :

يقصد بذلك هنا العلوم الغير متعلقة بالدين أو اللغة والتي حظيت باهتمام كبير لدي الأندلسيين اعترف به المستشرقون وكان للأندلسيين فضل كبير في نقل هذه العلوم الي اوروبا مما ساهم في قيام النهضة بها ولست في حاجة هنا الي ابراز شهادات قيمة اعترف بها مؤرخوا العلوم في أوروبا من امثال «خوان برنيت» Juan Vernet و «غونثاليث برانثيا» Gonzales Palencia و «سانشيث بيريث» Sanchez Perez و «جورجي سارتون» George Sarton وتنقسم هذه المجموعة من العلوم الى عدة افرع منها : العلوم الطبية، العلوم البحته، العلوم الفلسفية، والعلوم الاجتماعية.

ولقد برز فى هذه العلوم من علماء الأندلس عدد جم من الأطباء والرياضيين وعلماء الفلك والهندسة والفلسفة ... الخ.

وكان من اعلام هذه العلوم ايضا علماء من المسيحيين واليهود ويكفي ان نشير الي حسدادى بن شبروط Hasday Ibn Saprut مستشار الخليفة عبد الرحمن الناصر. وابنه ابو الفضل، وسليمان بن جبزول المتوفي ١٠٥٢م Salomon Ibn Gabirol ، ويوسف بن النغريلة المتوفي ١٠٥٥ م. وغيرهم من غير المسلمين كثيرون.

اوقات التعليم :

لم يكن هناك وقت ثابت محدد للتدريس، وانما ارتبط ذلك بوقت المعلم علي وجه التحديد فهناك معلمون كانوا يدرسون صباحا، وآخرون

بعد صلاة العصر، ولكن بما أن الطالب كان يقوم بدراسة أكثر من مادة واحدة في ذات الوقت، ويذهب الي اكثر من معلم في نفس اليوم فان الوقت الدراسي كان من المرونة بحيث يتناول اليوم بأكمله.

حلقات التعليم :

كان المعلم يجلس الي جوار عمود من أعمدة المجلس، ويشكل طلابه من حوله حلقة، وتعرف هذه الحلقة باسم المعلم الذي يشغلها، وبعد وفاة المعلم يقوم بشغل المكان ابنه او احد طلبته النبهاء، وكان من العادة أن يكون في الحلقة معيد او قاريء يقوم بشرح بعض ما غمض من كلام استاذه او قراءة النص الذي سيتولي الاستاذ شرحه وتفسيره. وكذلك قيامه بحفظ النظام في الحلقة، ولم يكن عدد طلاب الحلقة العلمية ثابتا، وانما كان يختلف من حلقة الي اخري وذلك حسب مكانة الأستاذ والمادة التي يقوم بتدريسها ولقد وضعت الكثير من القواعد الأخلاقية والأصول الواجب الالتزام بها في الحلقة ولقد جاءت هذه القواعد الواضحة في كتاب لابن حزم الاندلس يعرف بالأخلاق والسير.

المعلمون :

كان من الضروري لمن يقوم بالتدريس في هذه الحالة من ان يكون عالما بمادته معتمدا علي اصول وروايات صحيحة، والا تعرض للنقد وابتعد عنه الطلاب. وتبين دراسة كتب التراجم ان هؤلاء المعلمين كانوا يتمتعون بمستوي ثقافي عال، وبمعرفة موسوعية حتي وصفوا بألقاب ضخمة منها انه «أعلم الناس» أو «كان في حفظة آية من آيات الله .» الخ.

اما من الناحية الاجتماعية، فقد عاش هؤلاء في مستوي طيب سواء بين الناس او الحكام، وساعدهم علمهم علي تكوين طبقة اجتماعية متميزة أصبح لها وزنها ومكانتها حتي غدا اختيار القائمين علي الأمور العامة من بينهم.

من ناحية الأجر فيمكن لنا ان نقسم المعلمين الي فئات ثلاث :

أ- فئة تتقاضى أجرها من الجراية التى كانت تجريها الدولة عليهم او من الأجر الذي يدفع من الأحباس.

ب- فئة تتقاضي أجرها من الطلبة بناء علي عقد بين المعلم ووالد الطالب او وليه.

جـ- فئة تتقاضي اجرها من الوظائف التي تسند اليها وخاصة في المساجد. وهناك من المدرسين من كانوا يقومون بالتدريس مجانا علي اساس انه عمل خيري.

واعتنى المعلمون بملابسهم عناية فائقة وخاصة حين يقومون بالتدريس حتي كان حبيب بين الوليد يسمع الناس في جامع قرطبة وهو يلبس الوشي الهشامي.

وقامت العلاقة بين المعلم وطلابه علي درجة طيبة من الاحترام، فكان علي الأستاذ ان يعتني بمصالح الطالب، ويعامله بما يعامل به اعز اولاده من الحنو والشفقة والاحسان اليه. حتي نمت العلاقة الي درجة ان المعلم كان يسمح لطلابه بمرافقته للتنزه في ايام الاجازات حيث يمنحهم من الحرية ما لا ينعمون به اثناء الدرس. كما ان الطلبة احبوا استاذتهم

حبا شديدا لدرجة ان يموت الاستاذ، يقوم الطلبة بمرافقة نعشه، وقراءة القرآن علي قبره.

تعليم النساء :

لا تتحدث المصادر كثيرا عن الكيفية التي تعلمت بها السيدات في الاندلس لكن هذه المصادر تبين بكل وضوح ان المرآة الأندلسية نالت حظا كبيرا من التعليم وبلغت درجة عالية من المعرفة، فكان منهن العالمات بالنحو والأديبات والطبيبات وغير ذلك مما يدل علي تعلم المرأة.

وتبين لنا المصادر الأندلسية ان المرآة قد تلقت تعليمها في المقام الأول بين افراد اسرتها سواء أكان ذلك الاب أو الجد او الاخ او العم أو الخال أو الأم أو الجدة وغير هؤلاء من الأسرة ولدينا أمثلة كثيرة علي وجود سيدات تلقين العلم في أسرهن ووصلن الي درجة عالية من التقدم.

الي جانب ذلك كانت هناك معلمات متخصصات في تعليم البنات في الأندلس فيقال عن حفصة الركونية (توفيت ٥٨١/ ١١٨٥م) بانها كانت أستاذة وقتها وانتهت الي ان علمت النساء في دار المنصور وهناك غيرها كثيرات.

وقد قامت المرأة في الأندلس بتعليم الرجال، ومن هؤلاء امة الرحمن بنت أحمد المتوفاة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٧م. وراضية مولاة الامام عبد الرحمن الناصر واشراق السويدية الي كانت تدرس كتاب النوادر لأبي علي القالي، والكامل للمبرد وكانت تحفظ الكتابين ظاهرا، وتتكلم عنهما.

وتبين لنا المصادر ايضا ان النساء كن يتلقين العلم علي ايد المعلمين

الرجال وانهن كن يذهبن الي المساجد، فقد ورد في ترجمة محمد بن علي الفخار المتوفي ٧٢٣ / ١٣٢٣ : استوطن مالقه، وتصدر للاقراء بها، وكان يفتي النساء في المسجد الي ما بعد العصر. كما ان سعيد بن عثمان المقري المتوفي ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ قد علم ريحانه القراءات القرآنية. ولا يمكن ان تغفل دور العلماء فاقدي نعمة البصر في تعليم النساء حيث يرد ذلك كثيرا في كتب التراث الأندلسي.

هناك الجواري اللواتي كن يتعلمن ويتثقفن علي يد مواليهن، او يعهد بهن الي من يؤدبهن، ولقد كانت بعضهن ذات ثقافة عالية شاملة متنوعة حتي ليعجز فرد واحد عن تزويدهن بتلك الألوان المختلفة من الثقافة، مما يدفع علي الاعتقاد بأن اسيادهن كانوا يبعثون بهن الي المؤدبين والأساتذة، أو يحضرون لهن بأولئك المؤدبين والأساتذه الى المنازل.

المرحلة التعليمية الثالثة :

من الصعب جدا القول بوجود فاصل واضح بين المرحلتين التعليمية الثانية والثالثة وذلك لأنهما متشابكتان تماما، وان تميزت المرحلة الأخيرة بالتعمق والتخصص، وارتفاع سن طلبتها، وازدياد مكانة الشيوخ الذين يقصدون للتعليم عليهم. الي جانب ذلك كله فيمكن اعتبار المرحلة الثالثة بأنها مرحلة استكمالية يحاول الطالب فيها ان يستكمل دراساته التي قد يعتقد انه لم يستكملها من قبل، كما انها عملية تجديد مستمرة لمعلومات المتعلم، وذلك فهي لا تتميز بسن محددة او حتي ترتبط بمكان معين.

أماكن الدراسة :

تنوعت أماكنت الدراسة في هذه المرحلة تنوعا كبيرا، علي ما كان عليه الحال في المرحلة المتوسطة، وظل المسجد هوالمكان المفضل دائما لحلقات العلم التي كان يعقدها كبار الشيوخ، وان تبوأت المساجد الجامعة مكانة خاصة في هذا المجال.

وأهمها علي الاطلاق مسجد قرطبة الجامع الذي يمكن ان نعتبره بمثابه أول جامعة في عرب العالم الاسلامي، واول جامعة في اوروبا، والمنارة الحقيقية للعلم في تلك العصور.

والمدرسة، وخاصة في الاندلس، لم تكن تضم بين مدرسيها الاكبار علماء العصر، ويسعي الطلاب اليها لتحصيل درجة عاليه من العلوم.

وهناك أماكن اخري كثيرة ساهمت في تطور الحركة العلمية في الأندلس، وأثرت فيها تأثيرا كبيرا، ومنها :

- **المجالس العلمية** : سواء التي كان يعقدها الأمراء منذ بدايات الأسرة الاموية حتي سقوط غرناطة، او التي كان يعقدها كبار العلماء والشخصيات الاندلسية وكان الحوار فيها عميقا متخصصا بين علماء متضلعين متخصصين.

- **اما المكتبات** : فقد انتشرت انتشارا واسعا في اسبانيا الاسلامية فظهرت مكتبات القصور الخلافية، وكانت اعظمها مكتبة الحكم الثاني ثم مكتبات امراء الموحدين، ومن ناحية اخري، اهتم كبار الناس وعامتهم بالحصول علي الكتب، واقامة مكتباتهم الخاصة ونتيجة لذلك حدثت

حركة اعارة نشطة جدا وتم تبادل الكتب بين الطلاب والمعلمين حتي اصبحت المكتبات مكانا عاما يساهم في تعميق المعرفة، ومكانا للحوار والمناظرة.

وثمة اماكن اخري ساهمت بصورة فعالة في النشاطات التعليمية، وفي اللقاء بين المعلمين والمتعلمين، مثل حوانيت الوراقين، واماكن تجليد الكتب، كما ان مصانع الكاغد التي نشأت بشاطبة، والتي لم يكن لها نظير في معمور الأرض والتي عمت المشارق والمغارب علي سطح المعمورة كما يقول الادريسي.

المدرسة فى الأندلس :

من القضايا الهامة التي يثار حولها الجدل قضية ظهور المدرسة في الأندلس، ولأهميتها الخطيرة في الحياة التعليمية فاننا لابد وان نتوسع في الحديث عنها قليلا ...

ويري كثير من المؤرخين ان المدارس قد ظهرت في بلاد المغرب في الوقت نفسه الذي ظهرت فيه في بلاد المشرق الاسلامي مع اختلاف بسيط من ناحية الشكل او الهدف. ويؤكد الدكتور عبد الهادي النازي انه «بعد ثلاث سنوات فقط من تأسيس المدرسة النظامية في بغداد عرفت مدارس احتضنت الطلبة المغتربين الذين يردون بقصد الدراسة من سائر البلاد، وحدد وجود مدرسة للمرابطين عام ٤٦٢ / ١٠٩٦م بناها الأمير يوسف بن تاشفين بعد دخوله المدينه حوالي التاريخ المذكور،ن وأن طلاب هذه المدرسة قد قاوموا الموحدين مقاومة شديدة حتي قتلوا جميعا،

ولذا سميت بمدرسة الصابرين، وان اطلال هذه المدرسة مازالت ماثلة الي الآن ويؤكد ذلك ايضا د. حسن علي حسن بقوله : «وجه ولاة الأمر بالمغرب الاقصي اهتمامهم الي التعليم، ونشأ عن ذلك أن بنوا عدة مدارس في اجزاء متفرقة من البلاد، وذلك لتخريج المتعلمين، وكانت اولي المدارس التي انشئت في عهد يوسف بن تاشفين تسمي مدرسة الصابرين» .

وكذلك اهتم الموحدون ببناء المدارس، واول من فعل ذلك هو الخليفة عبد المؤمن بن على حين بني مدرسة ملحقة بقصره لتخريج الحفاظ، وقام المنصور الموحدي ببناء عدة مدارس في انحاء متفرقة من البلاد يقول عنها ابن ابي زرع : «وبني – اي المنصور – المساجد والمدارس في بلاد افريقية والمغرب والأندلس .

ولعب بنو مرين دورا أساسيا في نشر المدارس والاهتمام بها في جميع انحاء المغرب وكانوا أكثر نشاطا وأوفي همة في ذلك المجال.

وشارك الاهالي الحكام في بناء المدارس، كما شاركوا في بناء المساجد فنري ان علي بن محمد بن علي بن يحيي بن عبد الله الغافقي – كان رجلا جماعة للكتب، منافسا فيها، مغاليا في اثمانها وربما أعمل الرحلة في التماسها، حتي اقتني منها بابتياع والانتساخ كل علق نفيس ثم انتقي منها جملة وافرة فحبسها في مدرسته التي أحدثها بقرب باب القصير، احد أبواب بحر سبتة، وعين لها من خيار املاكه، وجيد رباعه وقفا صالحا، سالكا في ذلك طريقة أهل الشرق، وقعد بها بعد اكمالها لتروية الحديث واسماعه في رجب عام خمس وثلاثين وستمائه (١٢٣٧)م.

وليس من المعقول ان تقف بلاد الاندلس بمعزل عن ذلك التطور الهام في مجال الحركة التعليمية رغم تأكيد ابن سعيد ان «ليس لأهل الاندلس مدارس تعينهم علي طلب المعلم، بل يقرأون جميع العلوم في المساجد بأجرة». فنحن نجد بعض الاشارات الداله علي ظهور المدارس في الاندلس في فترة باكرة ومنها قول ابن فرحون المتوفي ٧٩٩ هـ / ١٣٩٧م عند حديثه عن ابي علي الصدقي المتوفي ٥١٤هـ / ١١٢٠م : «ثم عاد الي الاندلس - وذلك عام ٤٩٠هـ ١٠٩٦م - واستقر بمدرسة مرسية، ورحل اليه الناس»، كذلك رواية ابن أبي زرع عن السلطان الموحدي ابي يعقوب بن عبد المؤمن ٥٨٠ - ٥٩٥ هـ/١١٨٤ - ١١٩٩م ، فقد ذكر انه : «حصن البلاد وضبط الثغور وبني المساجد والمدارس في بلاد افريقية والمغرب والاندلس كما بدأت كلمة مدرسة تظهر ضمن اشعار الأندلسيين خلال القرن السابع وخاصة في رثاء المدن واستصراخ الهمم لانقاذها، ومن ذلك قول ابن الآبار في قصيدته المشهورة التي مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله اندلسا ان الطريق الي منجاتها درسا

يقول :

يا للمساجد عادت للعدا بيعا وللنداء غدا أثناءها جرسا

لهفي عليها الي استرجاع فائتها مدارسا للمثاني اصبحت درسا

ويقول شاعر آخر لم يسمه المقري :

بابي مدارس كالطلول دوارس نسخت نواقيس الصليب نداءها

ومصانع كسف الضلال صباحها فيخاله الرائي اليه مساءها

ثم بدات الامور تتضح بالنسبة لمدارس الاندلس في القرن السابع حيث ظهرت المدارس المؤكدة ومنها :

مدرسة مرسية : وهي مدرسة اقامها الامير المسيحي الفونسو العاشر بعد استيلائه علي المدينة عام ٦٤١ هـ / ١٢٤٣م للعالم المسلم الشهير محمد بن أحمد الرقوطي المرسي، لكي يعلم فيها أبناء الديانات الثلاث ثم أغلقت هذه المدرسة بانتقال الفقيه المسلم الي غرناطة قبل نهاية القرن السابع.

مدرسة غرناطة الأولى :

اقام هذه المدرسة السلطان ابو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف الملقب بالفقيه (٦٧١ - ٧٠١هـ). للفقيه محمد بن ا حمد الرقوطي بعد ان استقدمه من مرسيه وأسكنه في أعدل البقع بحضرته. وكان الطلبه يغشون منزله المعروف له، فيتعلمون عليه الطلب والتعاليم وغيرها، اذ كان لا يجاري في ذلك، وكان قوي المعارضة، متضلعا بالجدل، وكان السلطان يجمع بينه وبين منتابي حضرته ممن يقدم منتحلا صناعة أو علما، فيظهر عليهم لتمكنه ونبالته.

مدرسة مالقة :

من المحتمل ان تكون مالقه قد شهدت أكثر من مدرسة. ولكن الوثائق تشير الي مدرسة صوفية أنشأها الفقيه محمد بن محمد بن عبد الرحمن الأنصاري المعروف بأبي عبد الله الساحلي ٦٧٨ - ٧٥٤ هـ / ١٢٧٩ - ١٣٥٣م حيث بناها من مال أعطاه اياه بعض الاغنياء من

وزراء الدول بالمغرب وأقامها في الجانب الغربي من المسجد الأعظم وأوقف عليها الرباع، وابتني غيرها من المساجد وتري الدكتوره ماريا خيسوس ريبيرا، انه ربما كانت هذه المدرسة هي أول مكان في الأندلس يمارس فيه التعليم بعيدا عن المسجد.

المدرسة النصرية بغرناطة :

أشهر مدارس الأندلس والمغرب عامة بناها السلطان الغرناطى أبو الحجاج يوسف الأول عام (٧٥٠هـ/١٣٤٩م)، وأشرف على بنائها الحاجب رضوان النصرى المعظم، واجمع المؤرخون علي مكانتها وعظمتها التي غطت علي ما كان قبلها، ومازالت بعض اجزاء هذه المدرسة بنقوشها الاسلامية الرائعة باقية في مدينة غرناطة حتى يومنا هذا بجوار الكاتدرائية الكبري.

طلاب هذه المرحلة :

كان طلاب هذه المرحلة من المتقدمين في السن نسبيا، اذ أنهم انما واصلوا الدراسة والاستماع الي الشيوخ والعلماء حبا في العلم ورغبة في الاستمرارية وأملا في الحصول علي مرتبة العلماء المعروفين، ولذلك كانوا جميعا من أهل العلم والمعرفة ومن سبق لهم حضور مجالس العلماء والشيوخ والمؤديين في المساجد والمدارس أو غيرها من دور العلم المتاحة في ذلك الوقت، ونستطيع أن نتبين مستوي الطلاب العلمي ونوعيتهم من القاء نظرة علي بعض تراجم علماء هذه المرحلة، فيقال عن الأديب الراوية أبي عبد الله محمد بن سليمان النفزي المعروف «بابن أخت غانم»

أن : أصله من مالقة، وبها سكناه، ولكنه لزم قرطبة كثيرا وكان شيخا مسنا من شيوخ أهل الأدب والنحو والرواية وجمع الكتب. أخذ عنه الناس هذين العلمين كثيرا ودرسهما عمره بغير أجر وسمع منه كتب الحديث والغريب وحمل عنه جملة من المشايخ والنبلاء لعلو سنده ومعرفته. واذا كان الطلاب عند هذا العالم هم من المشايخ والنبلاء فاننا نجدهم عند عباس بن فرج بن عبد الملك بن هارون الأزدي المتوفي ٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م من نبهاء مدينة غرناطة، أما الامام محمد بن محمد الانصاري السرقسطي الذي كان من أحفظ الناس لمذهب مالك فقد حضر عليه عدد كبير من جلة العلماء منهم ابن الأزرق.

شيوخ هذه المرحلة :

كان علماء هذه المرحلة ممن يشار اليهم بالبنان علما وخلقا ومكانه في فنهم، وكان الحكام وجمهور الناس يحرصون علي ان لا يحتل مقعد التدريس في المساجد الجامعة والمدارس الا من انتهت اليه المهارة في العلم والدين في وقته، وكانت تلك المرتبة تهفوا اليها نفوس هؤلاء القوم فلم يدخروا وسعا في الارتقاء بمعارفهم وعلومهم الي درجة حملت الناس علي اختلاف طبقاتهم – علي احترامهم احتراما مهيبا. والقاء نظرة علي تراجم هؤلاء العلماء تعطينا فكرة واضحة عن مستواهم العلمي، والي القاريء الكريم بعض الترجمات من عصور مختلفة :

أبو القاسم ابراهيم بن محمد بن زكريا، المعروف بالاقليلي، من أهل قرطبة المتوفي ٤٤١هـ/١٠٤٩م : كان من أئمة النحو اللغة، وله معرفة بالكلام علي معاني الشعر، وشرح ديوان المتنبي شرحا جيدا، وهو مشهور،

وكان متصدرا بالأندلس لاقراء الأدب، كان حافظا للأشعار، ذاكرا للأخبار، وأيام الناس.

أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي المتوفي ٥٤٢هـ/١١٤٧م «فقيه محدث مشهور، أديب، نحوى، شاعر ألف في التفسير كتابا ضخما اربي فيه علي كل متقدم اما ابو علي عمر بن محمد بن عبد الله الازدي المعروف بالشلوبين المتوفي ٦٤٠هـ/١٢٤٣ م فقد كان أسند من بقي في المغرب، وكان في العربية بحرا لا يجاري، وحبرا لا يباري، تصدر لاقراء النحو نحوا من ستين عاما. والامام ابو محمد الأنصاري السرقسطي المتوفي ٨٦١هـ/١٤٥٩م كان عالم غرناطة ومفتيها، كما كان من أحفظ الناس لمذهب مالك.

وكان أهل الأندلس حريصين علي ان يتصدر مساجدهم الجامعة أمثال هؤلاء العلماء الأجلاء، ومن ذلك دعوة أهل مالقة لعالم اللغة الكبير أبي علي محمد بن عبد المجيد الأزدي الرندي المتوفي ٦١٦هـ/١٢٨٩م للتدريس في مسجدهم والاقراء به بعد وفاة أبي القاسم السهيلي فأجابهم الي ذلك، ولم يفارقهم الي حين وفاته كما ان محمد بن يحيي بن علي مفرج الأنصاري المتوفي ٦٥٧هـ/١٢٥٨م. قد جلس للناس بالجامع الكبير بعد ابى عبد الله الفنجالي

واما محمد بن ابراهيم الأوسي المتوفي ٧١٥/١٣١٥م من اهل مرسيه فقد أقرأ التعاليم والطب والأصول بغرناطة، لما استقدمه السلطان ثاني الملوك من بني نصر، من مدينة بجاية فانتفع الناس به. وعلي بن عمر بن ابراهيم بن عبد الله الكناني المتوفي ٧٣٠هـ/١٣٣٠م كان أوحد

اهل زمانه علما وتخلقا، وتواضعا وتفننا، ورد الي غرناطة ستعدى عام ٧١٢هـ/١٣١٢م. وقعد بمسجدها الاعظم يقريء فنونا من العلم، من قراءات وفقه وعربية وادب.

وكان العلماء المختارين للتدريس في المدارس من تلك الطبقة الرقيعة، فمنهم الحسين بن محمد بن منيرة المعروف بابي علي الصدفي المتوفي ٥١٠هـ/١١٢٠م صاحب مدرسة مرسية، كان امام عصره في علم الحديث، وآخر ائمته في الاندلس، كان حافظا للحديث، واسماء رجاله وعلله، كان اماما في الفقه.

والشيخ الفقيه محمد بن احمد الرقوطي المرسي، الذي بني له الفونس العاشر مدرسة في مرسية، كان حجة في المعرفة القديمة والمنطق والهندسة والعدد والموسيقا والطب كما كان فيلسوفا وطبيبا ماهرا، آية الله في المعرفة بالألسن، يقريء الأمم بألسنتهم فنونهم التي يرغبون في تعلمها، شديد البأس، مترفعا، متعاظما.

ومن علماء المدرسة النصرية نجد محمد بن علي بن أحمد الخولاني المتوفي ٧٥٤هـ/١٣٥٤م أستاذ الجماعة، وكان رحمه الله، عاكفا علي العلم ملازما للتدريس امام الائمة من غير مدافع ، مبرزا، أمام أعلام البصريين من النحاة منتشر الذكر، بعيد الصيت عظيم الشهرة، مستبحر اللفظ، ويتفجر بالعربية تفجر البحر، ويسترسل استرسال القطر فقد خالطت دمه ولحمه لا يشكل عليه منها شكل ولا تشذ منه حجة.

وفرج بن قاسم بن لب، شيخ شيوخ غرناطة، كان شيخا فاضلا عالما متفننا، انفرد برئاسة العلم، وانيه كان المفزع في الفتوى، وكان اماما في اصول الدين وأصول الفقه.

نظام الدراسة :

كانت الحلقات التي تعقد هي الوسيلة الشائعة للتدريس حيث يجلس الشيوخ مستندين الي جوار عمود بالمسجد او المدرسة، ويلتف حولهم طلابهم يستمعون اليهم.

ويرجع اتساع الحلقة او ضيقها الي مكانة الأستاذ نفسه، ويمكن لنا ان نتصور الاقبال الشديد علي حلقات هؤلاء الكبار، ويبدأ الدرس بحمد الله والصلاة والسلام علي رسول الله، ثم يأخذ المعلم في النقاش حسب المادة التي يدرسها، ولذلك اختلفت طرق التدريس في هذه الحلقات باختلاف المادة العلمية التي يتولي الأستاذ شرحها، فقد كان أحمد بن عثمان من أهل طليطلة، المتوفي ٤١٧هـ/١٠٢٦م يبدأ المناظرة بذكر الله، والصلاة علي محمد علية السلام. «ثم يورد الحديث والحديثين والثلاثة والموعظة ثم يبدأ بعد ذلك الشرح في الكتاب الذي كانوا يتناظرون عليه فيه».

الرحلة :

أما أبرز ما يميز الدراسة في هذه المرحلة العالية فكانت الرحلة في طلب العلم من مكان الي آخر، والحصول علي أكبر قدر ممكن من المعرفة، وكلما طالت مدة الرحلة وكثر عدد العلماء الذين التقى بهم الدراس زادت مكانته.

وانقسمت الرحلة الي قسمين رئيسيين، فهناك الرحلات الداخلية أي داخل الأندلس وكانت تحقق لأهلها مكانة عاليه لا تقل عن الرحلات

الخارجية، فيقال عن العالم الكبير يوسف بن عبد البر النمري، المتوفى ٤٠٨هـ/١٠١٧م. انه : فقيه حافظ مكثر، عالم بالقراءات، وبالخلاف في الفقه، وبعلوم الحديث والرجال، قديم السماع، كثير الشيوخ، علي انه لم يخرج من الاندلس، لكنه سمع من أكابر أهل الحديث بقرطبة وغيرها ومن الغرباء القادمين اليها. كما أن (أحمد بن عبد الله بن محمد المعروف بابن الباجي، كان يقول عنه الضبي : «لم أر بقرطبة ولا بغيرها من كور الأندلس رجلا يقاس به في علمه بأصول الدين وفروعه .. جمع له والده علوم الأرض فلم يحتج الي أحد، الا أنه رحل متأخرا للحج» وكانت الرحلة الداخلية قصيرة نسبيا، وان فضل بعض العلماء أن تطول ما أمكن، فيري القاضي أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد أنه قال : «لما رحلت الي قرطبة قرأت علي الحافظ أبي بكر - يقصد أبا بكر بن العربي - ولزمته فسمعني ذات يوم أذكر الانصراف الي وطني بالمرية، فقال لي : ما هذا القلق ؟ - اقم حتى يكون لك في رحلتك عشرة أعوام كما كان لي».

أما الرحلات الخارجية الأندلسية فقد أخذت طريقها من الأندلس الي باقي أصقاع العالم الاسلامي، وكان الحج حافزا آخرا الي جانب الحافز العلمي، مما جعل الرحلة بين الاندلسيين شبه فرض أكيد لكل من كان يرغب في مواصلة تعليمه العالي، والامثلة علي رحلات الاندلسيين كثيرة جدا، ويكفي للدلالة علي رحلات تلك الفترة رحلة القاضي ابي بكر بن العربى رحمه الله.

وهناك الكثيرون من الطلاب من قاموا بالرحلتين الداخلية والخارجية معا حيث يبدأ بالاولي ثم يثني عليها بالرحلة الي خارج الاقليم.

ولم يكن الطالب يرحل الي مدينة بغرض التعليم علي معلم واحد فقط، رغم أن شهرة المعلم تجذب الطلاب الي مدينته مثلما هو الحال علي عهد أبي علي الصدفي في مدينة مرسية، بل ان الطلاب كانوا ينتهزون فرصة وجودهم في مدينة ما للاستماع ولقاء أكبر عدد من شيوخها وعلمائها.

الاجازة الدراسية :

الاجازة في الأصل ضمان بعلم الطالب، وقدرته علي نقل هذا العلم وهي شهادة يمنحها الأستاذ لطلابه عند انتهائهم من دراسة كتاب معين وهي نوعين : شفويه وتحريرية، والاولي اقدم عهدا من الثانية ولكن مع تطور الأيام فقدت الاجازة هذا المضمون الهام، أى كونها ضمانا لمعرفة الطالب لما نقله عن أستاذه، واصبحت مجرد شهادة باللقاء والسماع دون أن تعني اطلاقا مدي تعمق حامل الشهادة أو معرفته بما حدد له في الاجازة حتي لقد ظهرت بعض الاجازاتت العامة التي تبيح «لمن أحب الرواية عني من جميع المسلمين من أهل السنة، ممن هو موجود في هذه السنة».

النساء في هذه المرحلة :

شاركت النساء الأندلسيات بباع طويل في المعركة العلمية العالمية في الأندلس حتي شهد لهن حافظ عصره المقري حين ذكر جملة من نساء أهل الأندلس اللاتي لهن اليد الطولي في البلاغة، «كي يعلم ان البراعة في أهل الأندلس كالغريزة لهم، حتي في نسائهم وصبيانهم.

والأمثلة كثيرة علي ذلك ومنها أن ولادة بنت المستكفي بالله المتوفاة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م كانت أديبة، شاعرة، جزلة القول، حسنة الشعر، وكانت تناضل الشعراء وتساجل الأدباء، وتفوق البرعاء. وكان محلها بقرطبة منتدي لاحرار المصر، وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر.

ومريم بنت يعقوب الأنصاري، كانت أديبة شاعرة جزله مشهورة وكانت تعلم النساء الأدب، وتحتشم لدينها وفضلها.

وأم الهناء بنت القاضي أبي محمد بن عبد الحق بن عطية التي كانت حاضرة النادرة، سريعة التمثل، من أهل العلم والفهم والعقل، ولها تأليف في القبور.

والشاعرة حفصة بنت الحاج الركونية أستاذة الشواعر في عصرها لكونها تمتلك قوة شعر هائلة، وأداة مطواعة فنية بوأتها تلك المكانة الأدبية، ولقد ذكرها ابن الخطيب نقلا عن ابن بشكوال بأنها كانت أستاذة وقتها.

ومن نساء المرابطين، كانت الحرة حواء أديبة شاعرة جليلة ماهرة، وينقل ابن عذارى عن مالك بن وهيب قوله : مرت الحرة حواء اللمتونية بمراكش بمجلس الكتبة والشعراء، وكانت تحاضرهم فيه، وكانت ذات نباهة وخطر فاجتمع يوما في ذلك المجلس جماعة، فلما غص المجلس، أقبلت الحرة تريدهم وهم يتحادثون، ويأخذون الشعر ثم يكمل الرواية فيبين مساجلتها لهم الاشعار وتفوقها علي الحاضرين.

أما الموحدون فقد أولوا النساء المثقفات علي عصرهم اهتماما خاصا،

ومن بنات الخلفاء المثقفات ، زينب بنت يوسف بن عبد المؤمن وكانت عالمة، صائبة الرأي فاضلة معروفة بالتفوق علي نساء زمانها.

ويري المستشرق الاسباني خوليان ريبير أن النساء الأندلسيات لم يقف نشاطهن عند حد الدراسة في اسبانيا فحسب، وانما رحلن الي الخارج ليدرسن كالرجال سواء بسواء.

تعلم غير المسلمين فى الأندلس :

تحفل كتب التراجم الأندلسية والمدونات التاريخية بأسماء علماء وأدباء وشعراء من المسيحيين واليهود، وتشير اليهم علي أنهم أعلام كبار في مجالات تخصصهم.

كما أوردت هذه المدونات وكتب التراجم نماذج من انتاج هؤلاء العلماء غير المسلمين مكتوبا باللغة العربية بأسلوب راق ومتميز مما يدل علي تمكنهم من هذه اللغة تمكنا تاما.

تعليم غير المسلمين فى الأندلس :

تحفل كتب التراجم الأندلسية والمدونات التاريخية بأسماء علماء وأدباء وشعراء من المسيحيين واليهود، وتشير اليهم علي أنهم أعلام كبار في مجالات تخصصهم.

كما أوردت هذه المدونات وكتب التراجم نماذج من انتاج هؤلاء العلماء غير المسلمين مكتوبا باللغة العربية بأسلوب راق ومتميز مما يدل علي تمكنهم من هذه اللغة تمكنا تاما.

وإذا كانت اماكن العبادة في العصور الوسطي هي المؤسسات التعليمية السائدة، فاذا كان المسلم يذهب الي المسجد لتعلم أمور دينه، فمن الطبيعي ان يذهب المسيحي الي كنيسته، واليهودي الي معبده، ولكن بما أن اللغة العربية كانت هي لغة الثقافة والعلم والأدب فقد كان من الطبيعي ان تكون هي لغة التعليم ولذلك كان طبيعيا ان يكون المعلمون من العرب أو ممن يلقي العلم علي العرب.

وإذا تصفحنا كتب التراب العربي فاننا نجدنا أمام نماذج من العلماء المسيحيين واليهود وقد ضربوا بسهم وافر في علوم العربية حتي تفوقوا في بعض الأحيان علي العرب أنفسهم، ولقد أطنب المقري في ابراد نصوص مما قال به أبو الفضل حسداى بن يوسف بن حسداى اليهودي المتوفي ٥٠٠هـ/١١٠٦م والذي «تناول المعارف من طرقها فأحكم علم لسان العرب، ونال حظا جزيلا من صناعة الشعر والكتابة والبلاغة، وبرع في علوم الرياضة والفلك والطب،ن واتقن علم المنطق»، وتؤكد هذه النصوص بلاغة حسدادي وتفوقه في علم العربية نثرا وشعرا. اما عن ابراهيم بن سهل الاسرائيلي المتوفي ٦٤٩هـ/١٢٥١م فقد وصفه بأنه شاعر اشبيليه ووشاحها، وانه قرأ علي ابي علي الشلوبين وابن الرياج وغيرهما من علماء المسلمين كما يؤكد المقري نقلا عن مؤرخين معاصرين أن ابن سهيل «كان يقرأ مع المسلمين ويخالطهم».

ويورد المقري أدلة كثيرة علي ان يهود الأندلس كانوا يشغلون بعلم العربية وأورد أشعارا رائعة لعدد منهم، حيث يشير الي ابراهيم ابن الفخار بأنه كان شاعرا ممتازا يقف علي قدم المساواة مع الشعراء المسلمين،

ومنهم ايضا الشعار الياس بن المدور اليهودي، والشاعرة اليهودية قسموته بنت اسماعيل اليهودي والذي كان شاعرا ايضا وكثيرا ما كانا يتنافسان في قول الشعر بالعربية، واورد المقري نصوصا لذلك».

أما بالنسبة للمسيحيين فان تعريبهم كان واضحا وجليا بحيث أصبحت العربية بالنسبة لهم هي لغة الحياة اليومية، ولغة التعبير الأدبي، وليس ادل علي ذلك من شكوي الراهب القرطبي «الفارو» والتي يؤكد فيها اقبال المسيحيين علي اللغة العربية وانصرافهم عن اللاتينية.

وهناك اشارات كثيرة تدل علي تعلم المسيحيين مع المسلمين في اماكن تعلمهم، وانهم أخذوا من ثقافتهم.

ويقول الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم «لاشك أن كثيرا من نصاري الاندلس من اهل قد تعلموا علوم العربية، واستعربوا، مضطرين الي مشاركة المسلمين حياتهم، رغبة في تقلد المناصب الكبري في الادارة والدواوين.

الي جانب نصاري الاندلس، فقد تلقي العلم في معاهد المسلمين عدد لا بأس من الطلبة المسيحيين القادمين من خارج الأندلس، والذين وجدوا في الاندلس المنهل العلمي الوافر الذي مكنهم من ان يعودوا الي بلادهم بعد ذلك محملين بعلوم جديدة كانت هي الاساس الذي قامت عليه النهضة الاوربية فيما بعد.



قرطبة الإسلامية

وآثارها الباقية

للمدن في تاريخ الإنسانية سجل لا يقل أهمية عن سجل الدول والملوك والعظماء وهناك مدن سجلت على صفحات الزمانتاريخاً خالداً ، ومجداً ساطعاً ، لا يمكن أن ينسى بمرور السنوات والأعوام مهما طالت ، أو القرون مهما زادت .

ومن تلك المدن ،،،،،

بسم الله الرحمن الرحيم

مدينة قرطبة الأندلسية ، عاصمة الإسلام والمسلمين فى الأندلس ، ومحط جهاد المسلمين خلف جبال البرتات ، مقر قادة الفتح الإسلامى فى جنوب فرنسا ، مدينة قديمة ، واحتلت مكانة بارزة ضمن المدن الأيبرية سواءً فى العهد الرومانى أو العصر القوطى اللذان ساداَ فى أسبانيا والبرتغال عدة قرون قبل الإسلام .

وفى العقد الأخير من المائة الأولى من الهجرة ، كان الله سبحانه وتعالى قد وفق المسلمين إلى استكمال فتح بلاد المغرب قاطبة ، ومن ثم أصبح المسلمون على مشارف مضيق جبل طارق ، وعلى الجانب الآخر من بلاد الأندلس .

واستأذن القائد المسلم موسى بن نصير الوليد بن عبد الملك خليفة المسلمين فى فتح بلاد الأندلس، ووضعا الخطة المناسبة لذلك .

أعد موسى جيشه بقيادة طارق بن زياد - رحمة الله - بعد أن تأكد من إمكانية نصر الله ، وذلك باختبار المنطقة ببعض السرايا التى أنفذها إلى بلاد الأندلس قبل حملة طارق على هذه البلاد .

عبر طارق بجيوش المسلمين المضيق الذى عرف باسمه منذ ذلك الحين والتقى مع جيوش النصارى بقيادة لذريق فى معركة حاسمة وقوية ، عرفت فى التاريخ باسم معركة وادى لكة ، أو معركة شذونة وذلك فى شهر رمضان من عام اثنين وتسعين هجرية الموافق يوليه عام أحد عشر وسبعمائة للميلاد .

انتصر المسلمون انتصاراً رائعاً فى هذه المعركة ، وقتل الملك النصرانى ، وتفرق جيشه ، وحاز المسلمون خيولهم ومتاعهم .

تقدم المسلمون بعد ذلك لفتح المدن الأسبانية ، فاتجه طارق إلى عاصمة القوط، وهى مدينة طليطلة ، وفى نفس الوقت أرسل طارق أحد قادته وهو مغيث الرومى - رحمه الله - عليس رأس فرقة مكونة من سبعمائة مقاتل مسلم فأقبل مغيث ورجاله نحو المدينة ليلاً يسترهم الظلام ، وفاجؤا حرسها على غفلة منهم ، وارتقى بعض المسلمين السور ، ووثبوا إلى داخل المدينة ، وهجموا على حرس بابها الجنوبى ، فقتلوا منهم نفراً ، وفتحوا الباب ، فتدفق الجيش الإسلامى إلى داخل المدينة، واستولى عليها عنوة بحمد الله وتوفيقه ؛ وظلت منذ ذلك الحين مدينة إسلامية .

حينما استدعى الخليفة الوليد بن عبد الملك القائدين الكبيرين موسى وطارق إلى المشرق ، ترك موسى بن نصير ابنه عبد العزيز والياً على الأندلس، واتخذ له مدينة أشبيلية عاصمة له ؛ ثم قتل عبد العزيز بن موسى ، وتولى الحكم فى الأندلس أيوب بن حبيب اللخمى وهو ابن عمة عبد العزيز بن موسى بن نصير .

قام أيوب بنقل الإمارة من أشبيلية إلى قرطبة ، ومنذ ذلك الحين فى عام ٩٧ هـ ظلت مدينة قرطبة عاصمة للمسلمين فى الأندلس إلى أن سقطت الخلافة الإسلامية فى الأندلس فى عام اثنين وعشرين وأربعمائة للهجرة كما أنها ظلت العاصمة الروحية للمسلمين فى الأندلس حتى سقوطها فى أيد النصارى فى عام ثلاث وثلاثين وستمائة للهجرة الموافق

لعام ست وثلاثين ومائتين وألف للميلاد ؛ أى أنها ظلت مدينة إسلامية قرابة الستة قرون .

وبدأت المدينة فى ارتداء ثوبها الإسلامى منذ عهد الخلفة العادل عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه حين عين عليها السمح بن مالك الخولانى فى عام مائة هجرية ، فقام رحمة الله بتجديد سورها الرومانى القديم ، وسد ما به من ثلمات ، ثم قام باستخدام بعض حجارة السور المختلفة منه فى إعادة بناء قنطرة قرطبة المقامة على نهر الوادى الكبير التى تربط بين جنوب الأندلس وشماله ، فأصبحت هذه القنطرة إحدى أعاجيب الدنيا ، وأعظم آثار الأندلس .

وقفزت المدينة خطوات واسعة إلى الأمام فى عهد الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، المعروف بعبد الرحمن الداخل أو صقر قريش ، الذى قام فى تعظيمها فجدد مغانيها، وشيد مبانيها ، وحصنها بالسور ، وابتنى بها قصر الإمارة، والمسجد الجامع الذى سنشير إليه ، وابتنى إلى جوارها مدينة الرصافة متنزهاً له ، واتخذ بها قصراً حسناً، وجناناً واسعاً ونقل إليها غرائب الأغراس ، وكرائم الشجر من بلاد الشام وغيرها من البلاد .

وشهدت قرطبة تطوراً كبيراً على عهد الأمير هشام ، الذى زاد فى مسجد أبيه وشيد بها كثيراً من المساجد والمبانى .

وظلت مدينة قرطبة تواصل تقدمها ورقيها على عهد أمراء بنى أمية حتى وصلت إلى قمة مجدها وعظمتها إبان القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، وهى الفترة التى نسميها عصر الخلافة فى الأندلس ، وهى

بحق العصر الذهبى للمسلمين فى هذه البلاد ، لأن قرطبة قد شهدت تطوراً عمرانياً وعلمياً واجتماعياً جعلها من أعظم مدائن الغرب ، بل أحسن مدائن العالم كله في ذلك الوقت .

يقول عنها الجغرافى المسلم ، الشريف الإدريسى : ومدينة قرطبة ، قاعدة بلاد الأندلس ، وأم مدائنها ، ودار الخلافة الإسلامية ، وفضائل أهل قرطبة أكثر وأشهر من أن تذكر ، ومناقبهم أظفر من أن تستتر ، وإليهم الانتهاء في السناء والبهاء ، بل هم أعلام البلاد ، وأعيان العباد ذكروا بصحة المذهب ، وطيب المكسب ، وحسن الزى فى الملابس والمراكب ، وعلو الهمة في المجالس والمراتب ، وجميل التخصص فى جميع المطاعم والمشارب ، مع جميل الخلائق .

ويصفها الحجازى بقوله : بأنها منتهى الغاية ، ومركز الراية ، وأم القرى وقرارة أولى الفضل والتقى ، ووطن أولى العلم والنهى ، وقلب الإقليم ، وينبوع متفجر العلوم ، من أفقها طلعت نجوم الأرض ، وأعلام العصر ، وفرسان النظم والنثر ...... الخ .

وأعجب بها الغربيون إعجاباً كبيراً فوصفوها بأجمل الصفات ، وأطلقوا عليها أجمل الأوصاف حتى قيل فيها ، إن قرطبةستظل اسماً عربياً خالصاً ، وستبقى رمزاً للحضارة الإسلامية وجهود المسلمين . وكم وقف السفراء الغربيون منبهرين أمام عظمة مبانيها ، وكثرة مساجدها وحماماتها ، وثراء مكتباتها .

انقسمت مدينة قرطبة لاتساعها الى عدة مدن داخلية ووصلت أرباضها إلى واحد وعشرين ربضاً، وأحصيت دورها فى أيام الحاجب

المنصور ، فى نهاية القرن الرابع الهجرى فكانت سبعاً وسبعين وثلاثة عشر ألفاً ومائة ألف دار .

وهذه دور الرعية ، أما دور الأمراء ، والأكابر ، والوزراء ، والرؤساء ، والقواد ، والكتاب ، والأجناد ، وخاصة الملك ، فبلغت ثلاثمائة وستون ألف دار سوى مصارف الكراء والحمامات والخانات .

وكان عدد مساجد المدينة حوالى سبعة وثمانمائة وثلاثة آلاف مسجدا ، بل يبالغ بعض المؤرخين فيجعلها نيف وسبعون وثمانمائة وثلاثة عشر ألف مسجد .

وكان عدد حماماتها أحد عشر ألفاً وسبعمائة وثلاثة عشر ألف حمام، وكان بها من الفنادق والخانات ستمائة وألف فندق لسكن التجار والمسافرين والعزاب والغرباء وغيرهم ، وكان بها من الحوانيت اثنان وخمسون وأربعمائة وثلاثون ألف حانوت .

انتهت دور قصرها الكبير الذى ينزله الخلفاء والملوك إلى نيف وثلاثون وأربعمائة دار ، كلها للملك وحرمه وفتيانه .

ومع كل هذه الضخامة والروعة ، فإن قرطبة قد ضاقت أمام طموحات الخليفة عبد الرحمن الناصر الذى حكم الأندلس من عام ثلاثمائة إلى عام خمسين وثلاثمائة للهجرة ، فقام ببناء مدينة جديدة على بعد حوالى عشرة كيلو مترات إلى الغرب من قرطبة أسماها مدينة الزهراء التى سوف نشير إليها فيما بعد .

أصبحت مدينة قرطبة أهم مدينة فى الغرب الإسلامى ، يقصدها طلاب العلم من كل أنحاء الدنيا المعروفة آنذاك سواء من المسلمين أو غيرهم ، ولقد لخص الشاعر ما تتميز به قرطبة عن غيرها من بلاد العالم فقال :

بأربع فاقت الأمصار قرطبة　　منهن قنطرة الوادى وجامعها

هاتان ثنتان والزهراء ثالثة　　والعلم أفضل شىء وهو رابعها

ولنلق نظرة سريعة على هذه المعالم الأساسية للمدينة :-

القنطرة . والزهراء . والمسجد الجامع

قنطرة قرطبة :

تقع مدينة قرطبة على نهر أسماه المسلمون نهر الوادى الكبير ، ومازال الاسم العربى باقياً إلى الآن فى اللغة الأسبانية ، وهو يفصل بين جنوب الأندلس وشماله، وكان عليه قنطرة متهدمة من بناء الرومان ، وكان المسلمون فى حاجة ماسة الى إعادة بنائها لتربط بين الشمال والجنوب فاستأذن السمح بن مالك الخولانى الخليفة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه عام مائة للهجرة ، فى بنائها ، على أن يستخدم فى ذلك الحجارة من سور ، على أن يبنى سور المدينة من الطوب اللبن ، فأذن له فى ذلك فقام السمح ببنائها ، فصنعت على أتم وأعظم ماعقد عليه جسر فى معمور الأرض . واهتم المسلمون بهذه القنطرة ، وأولوها عناية كبيرة ، وأصبحت ذات أهمية كبرى فى تاريخ الأندلس السياسى والفكرى ، ولأنها كانت من الجمال والبهاء بحيث كانت منتزه أهل قرطبة ، ومدار خيال شعراء الأندلس أجمعين .

ولقد تهدم البناء الذى أقامه الأمير الأندلسى السمح بن مالك الخولانى بسبب السيول، وفى عهد الأمير هشام الرضا بن عبد الرحمن الداخل ، والذى حكم الأندلس فى الفترة من ١٧٢ هـ إلى ١٨٠ هـ ، وكان محباً للعمارة ، وتشييد المبانى ذات النفع العام ، فإنه نظر فى إصلاح القنطرة وإعادة بنائها ، وأنفق فى هذا السبيل أموالاً عظيمة، وأشرف بنفسه على الأعمال التى تجرى بها ، وكان يعطى العمال أجرتهم بيده ، وإن كان أهل قرطبة على عادتهم لا يرضون بالكثير من الأعمال، فيذكر ابن وضاح أنه بعد أن أتم الأمير بناء القنطرة، سأل يوماً أحد وزرائه عما يقوله أهل قرطبةس فى القنطرة ، فذكر له أنهم يهمسون فيما بين بعضهم البعض أنه ما بناها إلا ليمضى عليها إلى صيده وقنصه ، فأقسم الأمير هشام ألا يجوز عليها إلا لغزو أو مصلحة وأوفى بيمينه .

ومازالت القنطرة قائمة إلى يومنا هذا بجوار المسجد الجامع ، وما زالت منتزهاً لأهل قرطبة ، كما كانت فى عصورها الخوالى .

مدينة الزهراء :

بناها الخليفة الأندلسى عبد الرحمن الناصر ، كى تحقق طموحاته وتتناسب مع مكانته ؛ بدأ الخليفة فى بناء المدينة فى سنة ٣٢٥ هـ ، وقد اشتغل بها جيش من العمال والفنيين، واستنفذت ثلث إيراد الدولة لمد سبعة عشر عاماً، وظل البناء بها حوالى أربعين عاماً .

أقام الناصر بالمدينة قصراً للخلافة من الصعب أن نجد الكلمات المناسبة لوصفه ، فكانت جدرانه مزينة برقائق الذهب والفض ، ونقوشه

غاية فى الروعة والجمال ، به بركة من الزئبق لو انعكست عليها أشعة الشمس لأغشت أعين الحاضرين ، وبه قباب مذهبة ، يقال بأنها لم توجد لغيره من الملوك ، ويصف الإدريسى مدينة الزهراء بقوله : ومنها إلى مدينة قرطبة خمسة أميال ، وهى قائمة الذات بسورها ، ورسوم قصورها ، وهى فى ذاتها مدينة عظيمة ، مدرجة البنية، مدينة فوق مدينة ، سطح الثلث الأعلى يوازى أعلى الجزء الأوسط ، وسقف الجزء الأوسط يوازى أعلى الجزء الأسفل ، وكل ثلث منها له سور . فكان الجزء الأعلى منها قصوراً يقصر الوصف عن صفاتها ، والجزء الأوسط بساتين وروضات ، والجزء الثالث فيه الديار والجامع .

ويروى ابن عذارى وهو مؤرخ للمغرب والأندلس ، أن أعمدة الرخام فى الزهراء بلغت حوالى ٤٣١٣ سارية، منها ١٠١٣ جلبت من قرطاجة فى تونس و ١٤٠ أهداها إليه ملك القسطنطينية ، وبقية الأعمدة جلبت من داخل الأندلس .

ولقد أورد« المقرى » فى كتابه «نفح الطيب » أوصافاً عجيبة لتلك المدينة منها الحوض المنقوش بالذهب من الشام ، وقيل من القسطنطينية ، وفيه نقوش وتماثيل على صور الإنسان ، وليس له قيمة ، وقد أمر الناصر بنصبه فى وسط المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس ، ونصب عليه اثنى عشر تمثالاً ، كما اتخذ الخليفة مجلساً بهذا القصر تروى مصادر التاريخ أنه لم يتقدم مثله لأحد فى الجاهلية والإسلام ، وأنشده الرئيس أبو عثمان بن إدريس قصيدة طويلة منها :

سيشهد ما أبقيت أنك لم تكن   مضيعاً وقد مكنت للدين والدنيا

فبالجامع المعمور للعلم والتقى   وبالزهرة الزهراء للملك والعبا

وكما كان البناء فى الزهراء غالياً وكلفاً ، وكما كانت المدينة جميلة ورائعة كان القاضى منذر بن سعيد البلوطى - قاضى الجماعة - من أكثر المعارضين لهذا الإنفاق .

وفى مصادرنا التاريخية الكثير من المواقف التى خالف فيها الناصر فى إسرافه فى هذا البناء فى هذه المدينة حتى أنشده يوماً :

يا بانى الزهراء مستغرقاً   أوقاته فيها أما تمهل

لله ما أحسنها رونقاً   لو لم تكن زهرتها تذبل

فقال الناصر : إذا هب عليها نسيم التذكار والحنين ، وسقتها مدامع الخشوع يا أبا الحكم لا تذبل إن شاء الله تعالى ، فقال منذر : اللهم اشهد أننى بثثت ما عندى ، ولم آل نصحاً .

ولقد صدق القاضى منذر - رحمه الله - فيما قال ، فإنها ذبلت بعد ذلك فى الفتنة ، وقلب ما كان محنة ، حين هاجمها البربر فى فترة الفتنة ، وقلبوا عاليها سافلها ، ولم يتركوا فيها عمراناً يذكر ، ووقف بها الشاعر السميسر متحسراً وانشد بها هذه الأبيات :

وقفت بالزهراء مستعبراً   معتبراً أندب أشتاتا

فقلت : يا زهراء ألا فأرجعى   قالت : وهل يرجع من ماتا

فلم أزل أبكى وأبكى بها   هيهات يغنى الدمع هيهاتا

كأنما آثار من قد مضى   نوادب يندبن أمواتا

لم تعد مدينة الزهراء إلى الحياة مرة أخرى ، بل اندرثرت تماماً ، ولم يبق منها إلا بعض الأطلال الدارسة ، وعلى الرغم من أن الحكومة الأسبانية تحاول منذ أكثر من خمسين عاماً التنقيب لكشف آثار هذه المدينة ، ورغم كل الجهود المخلصة إلا أنها لم تتمخض عن الكثير ، وإن ظهر فى مكان المدينة الكثير من الآثارالخزفية والفخارية ، وبعض قواعد وأساسيات للمبانى القديمة وما زال الأمل قائماً فى الكشف عن الكثير من خبايا هذه المدينة الأندلسية الرائعة .

المسجد الجامع في قرطبة :

كانت مدينة قرطبة كما بينا من المدن التى فتحها المسلمون فى حملتهم الأولى بقيادة طارق بن زياد ، وتختلف المصادر التاريخية فى تسمية قائد الفرقة الإسلامية التى تولت الفتح فالغالبية منها تجعله مغيث الرومى وبعضها ينسب الفتح إلى طارق بن زياد نفسه .

وقد حرص المسلمون منذ اللحظات الأولى للفتح على تحويلها إلى مدينة إسلامية ، ومن ثم عمدوا إلى إنشاء المسجد الجامع فى وسطها ، واقتضى الأمر إلى اتخاذ بناء قائم ، فشاركوا سكان المدينة كنيستهم ، فاقتسموها معهم ، تركوا لهم نصف الكنيسة يؤدون فيه صلواتهم ، واتخذ المسلمون النصف الآخر مسجداً تولى التابعى الجليل الصنعانى توجيه قبلته ، وظل هذا الوضع قائماً طيلة عصر الولاة وحتى سنوات طويلة من حكم عبد الرحمن الداخل أيضاً .

ضاق المسجد القديم بمجموع المصلين ، وخاصة بعد أن انتشر الإسلام بين سكان المدينة ، وتزايدت أعداد القادمين من المشرق إلى

الأندلس ، فشرع الأمير عبد الرحمن الداخل فى بناء مسجد كبير لمواجهة التطور فى أعداد المسلمين بمدينة قرطبة ، ومن ثم بدأ فى مفاوضة نصارى قرطبة فى شراء نصف الكنيسة الذى بقى فى أيديهم منذ الفتح الإسلامى ، وضم أرضها إلى أرض المسجد القديم ، وقبل نصارى المدينة بيع ما بأيديهم على شرط السماح لهم ببناء كنيسة جديدة خارج أسوار المدينة وتم ذلك بالفعل عام ١٦٨ هـ ومن ثم شرع الداخل فى هدم المبنى القديم بكامله ، ولم يحتفظ إلا بالمحراب الذى سبق أن وضعه التابعى الجليل الصنعانى حيث تم بعد ذلك وضعه فى المبنى الجديد ، وتم بناء بلاطات المسجد الجامع وأسواره خلال عامى ١٦٩ هـو ١٧٠ هـ ، وجاء عمران المسجد متأثراً بصورة واضحة بنظام العمران فى بلاد الشام سواء فى زخرفته المعمارية أو فى نظام عقوده المزدوجة ونظام سقفه أو فى وضع المئذنة بالنسبة للجامع أو فى تصميم مجنباته حول الصحن ، كما يبدو التشابه واضحاً فى عقود جامع قرطبة المتعامدة على جدار القبلة بنظائرها فى المسجد الأقصى وما لا شك فيه أن الامير الداخل قد استعان بعرفاء وعمال سوريين فى هذا البناء .

لم يدخر عبد الرحمن وسعاً فى أن يأتى المسجد على صورة طيبة ، حتى أنفق على بنائه فى ذلك العصر ما ينيف على ثمانين ألف دينار، يقول عنه دحية بن محمد البلوى قصيدة طويلة :

وأنفق فى ذات الإله ووجهه ثمانين ألفاً من لجين وعسجد

توزعها فى مسجد أسه التقى ومنهجه دين النبى محمد

ترى الذهب النارى فوق سموكه يلوح كبرق العارض المتوقد

ومع ذلك لم يكمل عبد الرحمن الداخل بناء المسجد الجامع وأكمله من بعده ابنه هشام الرضا والذى بنى له أول مئذنة .

تتابع أمراء بنى أمية وخلفاؤهم فى الاهتمام بالمسجد والعمل على زيادته وتوسعه وكان أولهم الأمير عبد الرحمن الأوسط بزيادة المسجد بلاطين جانبيين فى سنة ٢١٨ هـ ، وسع بهما بيت الصلاة القديم بحيث أصبح مجموع بلاطات المسجد أحد عشر بلاطاً ثم مد هذه البلاطات جميعاً من جهة القبلة وذلك عام ٢٣٤ هـ، وبنى جدرانه الخارجية وجعلها من الركائز الضخمة التى أكسبت الجامع مظهر القلاع ، ويعلو الجدران شرفات مثلثة مسننة ومتدرجة تقوم على إفريز منبعج يدور بأعلى الجدران كلها ؛ وجعله يشتمل على تسعة أبواب : ثلاثة فى صحنه غرباً وشرقاً وشمالاً ، وأربعة فى بلاطاته اثنان شرقيان واثنان غربيان : وفى مقاصير النساء من السقاف بابان . ولقد ابتهج الناس كثيراً بتوسعات عبد الرحمن الأوسط فيعبر عن ذلك الشاعر ابن المثنى :

بنيت لله خير بيت   يخرس عن وصفه الأنام

حج إليه من كل أوب   كأنه المسجد الحرام

كأن محرابه إذا ما   حف به الركن والمقام

وقال آخر :

بنى مسجداً لله لم يك مثله   ولا مثله لله فى الأرض مسجد

سوى ما لبتنى الرحمن والمسجد الذى   بناه نبى المسلمين محمد

له عمد حمر وخضر كأنما   تلوح يواقيت بها وزبرجدا

توفى الأمير عبد الرحمن الأوسط دون أن يستكمل تنميق زيادته فى الجامع وزخرفتها ، فأتمها ولده الأمير محمد بن عبد الرحمن فى سنة ٢٤١هـ ، فأتقن طرز الجامع ونمق نقوشه ، واستوعب زخارفه وأوثق أبوابه ، وجدد البنية الأولى لجده عبد الرحمن الداخل . قام الأمير محمد فى عام ٢٥٠ هـ بإقامة المقصورة فى المسجد، ولماكمل العمل ، دخل الأمير إلى الجامع فسر بما قام به وصلى لله شكراً على ذلك ويقول مؤمن بن سعيد الشاعر فى قصيد طويلة له بهذه المناسبة :

بنى مسجداً لم يبن فى الأرض مثله   وصلى به شكرا لذى العرش راكعاً

فطوبى لمن كان الأمير محمـد   إذا دعا فيهْ إلى الله شاكراً

ولم ينسى الأمير عبد الله بن محمد ٢٧٥ - ٣٠٠ هـ ، نصيبه فى العمل بالمسجد فأنشأ الساباط الموصل من المسجد إلى قصر الخلافة ، أما الأمير عبد الرحمن الناصر، فقد زاد فى المسجد، وجدد مئذنته ، فيذكر ابن عذارى أن الناصر : زاد فى المسجد الجامع بقرطبة زيادته الكبيرة المتصلة بزيادة ابنه الحكم من بعده ، فيها القبو الكبير الذى يصطف المؤذنون أمامه يوم الجمعة ، وهو من أعجب البنيان .

أما أجمل وأروع الزيادات فى المسجد الجامع فقد قام بها الخليفة الحكم المستنصر بالله بن الخليفة عبد الرحمن الناصر والذى حكم من ٣٥٠هـ : ٣٦٦ هـ ، فقد زاد فى المسجد زيادات كبيرة ، ابتنى المحراب الثالث ، وأستغرق بناؤه أربعة أعوام وعملت له قبة فخمة ، زخرفت بفسيفساء رائعة ، وأستقدم الحكم من قسطنطينية خبيراً بأعمال الفسيفساء ،

وأرسل له قيصر منها قدراً كبيراً ، وأنشأ مقصورة جديدة بها قبة على الطراز البيزنطى ، وسجل بناء القاعدة المشبكة لهذه القبة فى نقش كتابى يغطى الطرة الكبرى التى تحيط بعقد المحراب يحتوى على آيات من كتاب الله الكريم، وبيانات عمن قام بهذه الأعمال .

وفى سنة ٣٥٥ هـ أمر الحكم بوضع المنبر القديم إلى جانب المحراب ، فظل يؤدى وظيفته إلى أن تم صنع المنبر الجديد فى مدة لا تقل عن سبعة سنوات ، وكان خشبه من الساج والأبنوس وعود القافلى ، كما ابتنى إلى جانب المسجد دار للصدقة ، وأخرى للوعاظ وعمال المسجد ، كما أقام ثلاثة مكاتب لتعليم أبناء اليتامى مجاناً ، وفى ذلك يقول الشاعر :

وساحة المسجد الأعلى مكللة مكاتباً لليتامى فى نواحيها

لو مكنت سور القرآن من كلم لنادتك يا خير تاليها وراعيها

وإذا كانت زيادة الحكم المستنصر بالله هى أروع وأجمل الزيادات على الإطلاق ، ومازالت معالمها باقية إلى اليوم ناطقة بما تتمتع به من حسن وجمال ، فإن أوسع الزيادات بالمسجد الجامع قد تمت على عهد المنصور محمد بن أبى عامر حاجب الأندلس على أيام هشام المؤيد بن الخليفة الحكم المستنصر بالله ، والذى حكم من ٣٦٦ هـ - ٣٩٩ هـ أى الثلث الأخير من القرن الرابع الهجرى ، فقد شرع المنصور فى هذه الزيادة فى سنة ٣٧٧ هـ من الجهة الشرقية ، فاشترى ما كان بها من دور وعوض أصحابها تعويضاً مجزياً ، واستغرقت هذه الزيادة عامين ونصف العام ، وكان المنصور بن أبى عامر يعمل بنفسه ، كما استخدم الأسرى النصارى

فى البناء ، وجعل من نواقيس النصارى التى غنمها من معركته بشنت يعقوب SAN TIAGO ثريات تضيء هذه الزيادة كذلك استخدم أبواب كنيسة شنت يعقوب ، وأتت زيادة المنصور مشابهة لزيادة الحكم المستنصر بالله ووصل المسجد بذلك إلى نهاية إتساعه وقمة بنائه ولم تزد فيه بعد ذلك أية زيادات ، وبلغ المسجد بذلك الغاية . نعم فقد لبث الأمراء والخلفاء عصوراً يتعاقبون فى توسيعه وتجميله حتى غدا برقعته الشايعة التى وصلت إلى أكثر من ٢٤ ألفاً وثلاثمائة متراً مربعاً ، وسواريه وأعمدته التى تجاوزت الألف والأربعمائة – على ما يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان – وأبوابه البرونزية العديدة ، ومحاريه الفخمة ، وزخارفة البديعة ، ومئذنته الشاهقة من أعظم المساجد الجامعة فى العالم الإسلامى أن لم يكن أعظمها على الإطلاق .

ولقد كان إعجاب المسلمين بهذا المسجد كبيراً فى كل وقت وفى كل مكان حتى ربطوا به بعض الأساطير ومن ذلك ما يقوله المقرى فى كتابه القيم « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » قد شاع على ألسنة الجم الغفير من الناس فى هذه البلاد الشرقية وغيرها أن : فى جاع قرطبة ثلثمائة ونحو ستين طاقا على عدد أيام السنة ، وأن الشمس تدخل كل يوم من طاق إلى أن يتم الدور ثم تعود » وغير ذلك من أساطير أو ردها فى الجزء الأول ص٥٢٠ .

لكنه ينقل لنا بعيداً عن الأساطير والأشعار ، وما ينقله عن ثقات المؤرخين إنه : الجامع الذى ليس فى معمور الأرض مثله ، وطوله مائة ذراع فى عرض ثمانية ، وفيه من السوارى الكبار الف سارية ، وفى مائة

وثلاث عشر ثريا للوقود أكبرها ألف مصباح ، وفيه من النقوش والرقوم ما لا يقدر أحد على وصفه ، وبقبلته صناعات تدهش العقول ، وعلى فرجة المحراب سبع قسى قائمة على عمد طول كل منها قوس القامة قد تحير الروم والمسلمون فى صنعها ، وفى عضادتى المحراب أربعة أعمدة : أثنان أخضران ، وأثنان لا زورديان ليس لها قيمة لنفاستها ، وبه منبر ليس على معمور الأرض أنفس منه ، ولا مثله فى صنعته .

سقطت قرطبة فى أيدى النصارى عام ٦٣٣هـ / ١٢٣٦م ، وتم تحويل المسجد الجامع إلى كاتدرائية كبرى للمدينة أطلق عليها اسم كنيسة القديسة مارية الكبرى Santa Maria ، وحاول القساوسة طمس معالمه الإسلامية وذلك بإقامة الكثير من المصليات المسيحية فى جوانبه ، كما دفن بعض ملوك قشتالة ، ومنهم الملك فرناندو الرابع المتوفى فى جيان ١٣١٢م ، والأمير ألفونسو الحادى عشر الذى قتل أثناء حصار النصارى لجبل طارقى ١٣٥٠م .

ورغم كثرة المصليات الكنيسة ، والهدم ، والتشويه منذ سقوط المدينة وإلى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى ، إلا أن ذلك كله لم يغير من صورة المسجد ، ولم يقضى على معالمه الإسلامية ولذلك قام الأسقف القرطبى انييجو مانريكى فى عام ١٤٨٩م باستئذان ملك اسبانيا كارلوس الخامس فى بناء كاتدرائية مسيحية وسط المسجد الجامع فقام بهدم عدة عقود وأعمدة من وسط الجامع مقيماً مكانها كنيسة على الطراز القوطى ، والتى جاءت فى شكلها وهندستها متنافرة تماماً مع شكل هندسة باقى المسجد . ومن الجدير بالذكر أن الامبراطور الاسبانى الذى أعطى الإذن

بهذا البناء ، حينما جاء إلى قرطبة لزيارتها وافتتاح هذا الهيكل الكبير ، فقد أسف أشد الأسف على مادمر من جمال المسجد ، وندم على ما صرح به واحتج على إقامة الهيكل على هذا النحو فى وسط هذا الفراغ الهائل الذى تتجلى فيه عظمة الفن الإسلامى مما جعل ما قام به الأسبان باهتاً وغير جدير بالمقارنة وقال عبارته التى نقلها عنه جميع المؤرخين الأسبان : لقد بنيتم هنا ما كان يمكن بناؤه فى أى مكان أخر ، لكنكم قضيتم بذلك على ما كان أثراً وحيداً فى العالم .

وفى ١٥٩٣م أزيلت منارة المسجد الجامع ، وأقيم فوق أنقاضها برج الأجراس الحالى ولقد ظل العمل فى تشويه هذا المسجد قروناً طولاً لكنه لم ينجح فى تشويه صورته كمسجد ، وعاد الفنانون الأسبان والأثريون يحاولون ترميم هذا الأثر ، وتهتم به الحكومات الأسبانية فى العصر الحديث اهتماماً خاصاً ، وأصبح أثراً قومياً مسجلاً فى اليونسكو ، ولقد سمح الأسبان للمسلمين بأداء صلاة جامعة فى هذا المسجد عام ١٩٧٧م حين عقد فى مدينةقرطبة المؤتمر الثانى لجمعية الصداقة الإسلامية المسيحية ، والذى حضرته وفود من جميع بلاد العالم الإسلامى ، وأتذكر أنه حين أذيع الخبر بالسماح بصلاة الجمعة فى المسجد الجامع بقرطبة فإن الآلاف من أنحاء العالم الإسلامى ومن المسلمين المقيمين فى أسبانيا قد تسارعوا للمشاركة فى هذه الصلاة ، مما أثار توجساً لدى السلطات الأسبانية حيال المشروع الذى كان قد قدمه حين ذاك جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز والخاص بإمكانية إعادة المسجد إلى صورته الأصلية ، ومازلت أحتفظ فى مكتبتى بالقاهرة ببعض تعليقات الصحف الأسبانية على هذا المشروع .

وإذا كانت هذه الآثار المادية تدل على ما كانت عليه المدينة من الفخامة والثراء والعظمة والجمال ، إلا أن المدينة فى جانبها الفكرى والأدبى ، والعلمى قد فاقت كل تصور ، وأصبحت « عروس الغرب » يقصدها العلماء والطلاب من العالمين الإسلامى والنصرانى على السواء ، ومن الصعب الإشارة إلى قمم هذه المدينة من المحدثين والفقهاء من أمثال بقى بن مخلد ، ابن عبد البر ، أو من الأدباء والشعراء من أمثال ابن عبد ربه وابن زيدون ، أو من المؤرخين أمثال ابن القوطية وابن حيان ، أو الجغرافيين كالبكرى أو النحويين كأبى على القالى وأبو بكر الزبيدى ممن تحفل بأسمائهم أطروحات الماجستير والدكتوراه المكتوبة حول الحياة الفكرية والعلمية فى هذه المدينة الإسلامية العظيمة ، ويلخص الحجارى وضع المدينة فى هذا المجال فى الكلمات الرائعة التالية :

« كانت منتهى الغاية ، ومركز الراية ، وأم القرى ، وقارة أولى الفضل والتقى، ووطن أولى العلم والنهى ، وقلب الإقليم ، وينبوع متفجر العلوم ، وقبة الإسلام ، وحضرة الإمام ، ودار صوب العقول ، وبستان ثمر الخواطر ، وبحر درر القرائح ، ومن أفقها طلعت نجوم الأرض ، وأعلام العصر ، وفرسان النظم النثر ، وبها أنشئت التأليفات الرائعة ، وصنفت التصنيفات الفائقة ، والسبب فى تبريز القوم حديثاً وقديماً على من سواهم ، أن أفقهم القرطبى لم يشتمل قط إلا على البحث والطلب لأنواع العلم والأدب .

ويقول الشاع أبو صخر القرطبى يمدح أهلها وينعاهم فى ذات الوقت:

ديـار عليها مـن بشاشـة أهلـها بقايا تسر النفس أنساً ومنظراً

ربوع كساها المزن من خلع الحيا بروداً وحلاها من النور جوهراً

تسـرك طـوراً ثـم تشجيكا تـارة فترتـاح تأنياً وتشجـى تذكراً

ومـازالـت مـدينة قـرطبـة واثاراها الاسـلامـيـة شـاهدة عظمـة على تاريخها ومجدها العريقين .

د./ محمد عبد الحميد عيسى

الحكم المستنصر بالله

خليفة عالم خلده التاريخ

حين تدب أقدام السالكين على دروب مدينة قرطبة فإن العين لا تخطىء أبداً أنها تمضى بين جنبات مدينة اسلامية عريقة كانت وما زالت وستظل عنواناً على مجد الحضارة الاسلامية وروعتها وجمالها وعظمتها التى تجلت على الأرض الأندلسية .

لقد ظلل الإسلام هذه الأرض الأوربية فأنطقها بروائع الشواهد الحضارية حتى جاءت فريدة فى نوعها ، متميزة فى مجالها .

ولقد كانت خطواتنا هى التى تدب ، ومعنا وفود كثيرة العدد من كافة بلاد العالم الإسلامى والنصرانى ، كان ذلك فى شهر مارس من عام ١٩٧٧م حيث عقد مؤتمر الصداقة الإسلامية المسيحية ، على أرض تلك المدينة الخالدة ، يقودنا عبر دروبها أستاذ أسبانى كبير هو المستشرق خمينيث أو كانيا، وكان الرجل مبهوراً ، متقطع الأنفاس ، وهو يقودنا إلى حديقة قصر الخلافة فى قرطبة ، ويقف بنا أمام تمثال نصفى لشيخ عربى مهيب جلل الشيب لحيته ، وبدت على تقاسيم وجهه الهيبة والجلال وتطل من عينيه أضواء حادة ثابتة ، توحى بما كان لصاحبها من عزيمة ومضاء.

هتف خمينيث قائلاً : هذا هو الخليفة القرطبى الذى جمع وقرأ ٤٠٠٠٠٠ كتاب ! نعم أربعمائة ألف كتاب ، هذا هو الخليفة العظيم الحكم المستنصر بالله بن الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله الأموى ، الأندلسى .

وتطلعنا الى الكلمات المنحوتة على قاعدة التمثال لنقرأ ما يلى :

من بلدية قرطبة ، والجامعات الإسلامية الى الخليفة العظيم ، الحكم المستنصر بالله ، فى ذكرى مرور ألف عام وفاته ، وفاءوتقديراً .

ولد الخليفة الحكم فى غرة رجب من عام ٣٠٢ هـ من أم ولد تدعى مرجان ، ورباه والده تربية ممتازة فنشأ محباً للعلم ، موقراً للعلماء ، مشغوفاً بجميع الكتب ،ورغم قيامه على أيام والده بعظيم المهمات ، واشرافه على كثير من الأعمال ، ونيابته عن والده حين خروجه فى الغزوات ، فإن أهم ما يذكر للحكم قيامه بما يمكن أن نطلق عليه « وزير الدولة للعلم والثقافة » فقد ندبه والده عبد الرحمن الناصر للإهتمام بالعلم والعلماء فى دولته ، ويقول عنه المؤرخ الطليطلى الشهير صاعد الطبقى المتوفى ٤٦٦هـ بأنه « لما مضى صدر من المائة الرابعة ، انتدبه الأمير الحكم المستنصر بالله بن الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله ، وذلك فى أيام أبيه ، إلى العناية بالعلوم ، والي إيثاره أهلها . واستجلب من بغداد ، ومن مصر ، وغيرهما من ديار المشرق ، عيون التأليف الجليلة ، والمصنفات الغريبة فى العلوم القديمة والحديثة ، وجمع منها فى بقية أيام أبيه ، ثم فى مدة ملكه من بعده ، ما كاد يضاهي ما جمعته ملوك بنى العباس فى الأزمان الطويلة .

ونجح الحكم فى مهمته نجاحاً كبيراً ، وأصبح فى دولة عبد الرحمن الناصر ، السند الأكبر لكل العلماء ، وقد تهيأ لذلك لفرط محبته للعلم ، وبعد همته فى اكتساب الفضائل ، وسمو نفسه الى التشبه بأهل الحكمة من الملوك، وكان من أهم جهود الحكم فى هذا المجال :-

أنه فتح باب الأندلس على مصراعيه لاستقبال العلماء المشارقة، واكرامهمواعطاء الفرصة لهم للتدريس فى مساجد الأندلس عامة ، وقرطبة خاصة ، ومن الواضح حرصه على اختيار عينات رائعة من العلماء والمعلمين أمكنها أن تملأ جوانب الأندلس علماً وتعليماً ، ومن أبرز من قدم فى هذه الفترة العالم الأشهر ، أبو على القالى البغدادى ، المتوفى فى ٣٥٦هـ وكان شخصية علمية باهرة ، ترك فى الأندلس مدرسة لغوية رائعة، ومن طلابه الخليفة الحكم نفسه ، وأبو بكر الزبيدى ، وعشرات غيرهما ، ولقد حرص الحكم على استقبال الرجل عند مجيئه الى الأندلس ، وندب لذلك أمير الجزيرة الخضراء وكبار أعيانها . ومنهم أيضاً العالم المصرى أحمد بن أبى عبد الرحمن القرشى ، وكان فقيه أهل مصر فى زمانه ، وقدم الأندلس ، وأكرم هناك .

بويع الخليفة الحكم المستنصر بالله فى اليوم التالى لوفاة والده فى الثالث من رمضان سنة ٣٥٠ هـ ، وكان فى ذلك الوقت رجلاً واسع الخبرة، عميق التجربة، متمرساً على الادارة والحكم ، واستهل عهده بالنظر فى توسعة المسجد الجامع « جامعة قرطبة » فضاعف حجمه ، وبنى له محراباً رائعاً ،ما زال حتى يومنا هذا تحفة معمارية نادرة المثال ، يقف أمامها السائحون فى خشوع وانبهار.

كما قام الحكم بردع ممالك نصارى شمال الأندلس ، والتى تصورت بعد وفاة الناصر ، أن الخليفة الجديد لا يعنيه سوى القراءة ، وليس له فى أمور الحرب والسياسة ، ولكنه أثبت جدارته وأهليته لصيانة مملكته ، وحرصه على هيبتها وكرامتها ، فخرج بنفسه على رأس قواته واجتاح

بلادهم ، وخرب قلاعهم ، وعاد منصور الراية ، شامخ النفس مما دفع بهذه الممالك النصرانية الى ارسال وفودها وسفاراتها لطلب الصلح ، والإذعان بالطاعة للخليفة الأندلسى وتفيض الروايات بمظاهر العزة والفخامة والسلطنة التى استقبل بها هؤلاء السفراء فى قرطبة عامة، وفى مدينة الزهراء خاصة .

كما تمكن الحكم من فرض سيطرة الخلافة الأموية فى الأندلس على بلاد المغرب ، وزاحم الفاطميين حتى أجبرهم على الرحيل الى مصر، وغدت بلاد الأندلس على عهده فى قمة مجدها وعظمتها .

ويجمع المؤرخون الى امتياز عصر الحكم بظاهرة من ألمع الظواهر فى تاريخ الدولة الأندلسية ، ازدهار العلوم والآداب أعظم الإزدهار ، وانشاء المكتبة الأموية العظيمة ، التى كانت بضخامتها ، وتنوع محتوياتها من أعظم مكتبات عصرها .

يعترف المستشرقون بالمكانة العلمية الرائعة للخليفة الحكم ، فيقول ليفى بروفنسال ، المستشرق الفرنسى المعروف : « علينا أن نبرز فى المقام الأول ، ذلك الاسم الخالد للخليفة الحكم الثانى ، عالماً لا غبار عليه ، راعياً مهيباً عظيماً للآداب والعلوم ، صديقاً كريماً للفنون ، ويقول عنه المستشرق الأسبانى غونثاليث بالنسيا بأنه فى تسامحه مع العلماء ، لم يقف عند حدود معينة ، مما دفعهم للإلتفاف حوله ، فقام بحمايتهم وتشجيعهم ، حتى الفلاسفة منهم وأعطاهم الحرية الكاملة ليقوم الرياضيون ، والفلكيون بالتدريس علناً لطلابهم ، كما تصفه دائرة المعارف الإسلامية بأنه كان « راعياً للفنون والعلوم والتربية » .

لقد غدا مسجد قرطبة على عهد المستنصر بالله جامعة حقيقية يؤمها طلاب العلم من الشرق والغرب ، وتعلم فيه كثير من الأوربيين ومنهم البابا سلفستر الثانى ، وقد عهد الحكم الى أخيه المنذر بالإشراف على جامعة قرطبة وأساتذتها ، دون أن يهمل هو شخصياً رعاية هذا المكان ، بل كان شديد الاهتمام به ، حتى وصل عدد طلابه وزواره الى الآلاف .

ومما يذكر للخليفة المستنصر ، محبته واحترامه للعلماء ومكانتهم ، ورفع قدرهم عند الناس وعند الطلبة ، ولقد وصل الفقهاء والمعلمون على عهده الى درجة عالية من المهابة ، حتى أنه اذا طلب فلا يرد له طلب ، ويكفى للدلالة على ذلك ، أن الخليفة أرسل فى استدعاء الفقيه أبى ابراهيم لمسألة ما ، فلا يذهب إليه الفقيه حتى يكمل درسه متأنياً على عادته فى كل يوم ، ولم يجد من الخليفة إلا الثناء والتقدير .

جانب آخر من الجوانب المضيئة فى حياة الخليفة الحكم اهتمامه بتعليم الأطفال ، فأقام فى مدينة قرطبة كثيراً من مكاتب تعليمهم وخصها أولاً لأبناء الضعفاء والفقراء، وجعل لمعلميها أوقافاً من دخل حوانيت السراجين ، لكى يتقاضوا منها مرتباتهم ، ويثنى المؤرخون على هذه الخطوة الفريدة فى عصرها بقولهم : ومن مستحسنات الحكم وطيبات أعماله ، اتخاذه المؤدبين يعلمون أولاً الضعفاء والمساكين القرآن حوالى المسجد الجامع ، وبكل ربض من أرباض قرطبة ، وأجرى عليهم المرتبات، وعهد اليهم فى الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم ، وفى هذه المناسبة يقول الشاعرابن شخيص :

وساحة المسجد الأعلى مكللة   مكاتباً لليتامى من نواحيها

لو مكنت سور القرآن من كلم   نادتك يا خير تاليها وداعيها

نصل الآن الى جانب آخر من اهتمامات الخليفة الحكم المستنصر لم يدانيه فيه أحد قبله ، وربما لم يلحق به أحد من بعده ، ألا وهو الاهتمام بالكتب والمؤلفات ، ويمكن ايجاز جهود الحكم للحصول على المؤلفات العلمية فيما يلى :-

أ- تشجيع تأليف الكتب ، والاعتناء به ، والإثابة عليه ، واكرام العلماء العاملين فى هذا المجال من داخل الأندلس أو من بقية انحاء العالم الإسلامى ، ويكفى أنه وجه إلى أبى الفرج الأصفهانى فى بغداد ألف دينار ذهباً لكى يوجه إليه نسخة من كتاب الأغانى ، ولقد أرسل المؤلف إلى الحكم نسخة حسنةمنقحة ، قبل أن يحصل عليها أحد فى العراق ، أو بنسخه أحد منهم ، كما قام المستنصر بإرسال أموال وهدايا إلى كل من القاضى أبى بكر الأبهرى المالكى ليتسلم منه شرحه لمختصر ابن عبد الحكم ، ولمحمد بن القاسم بن شعبان بمصر ومحمد بن يوسف الوراق الذى صنف له كتاباً ضخماً فى « مسالك أفريقية وممالكها » وفى داخل الأندلس ، كان نشاط الحكم فى التشجيع على التأليف كبيراً جداً وعمد إلى وسائل متعددة لحث العلماء على التأليف منها الإعفاء من الغزو فى مقابل تأليف كتاب كما حدث مع الفقيه عبد الله بن مغيث ، بل وسمح للعلماء الراغبين فى التفرغ للتأليف بالاقامة فى دار الملك لكى لا يشغلهم عن عملهم، كما

قدم الحكم الجوائز الكبرى ، والهدايا ، بل والوظائف الكبرى كما هو الحال مع الفقيه أحمد من عبد الملك الأشبيلى ، وأحمد بن فرج الجيانى الذى ألف للحكم كتاب « الحدائق » عارض فيه كتاب « الزهرة » لأبى بكر محمد بن داود الأصبهانى .

كان شغف الحكم الأول جمع الكتب ، ولهذا أسماه المستشرق الأسبانى بمجنون قرطبة ، فقد استطاع أن يجمع فى مكتبة قصره بقرطبة أربعمائة ألف مجلد ، فى زمن لم يعرف الطباعة ولا التصوير ، ولا يختلف فى صحة هذا الرقم مؤرخان ، وتؤكد المصادر جميعها أن فهارس هذه المكتبة قد وصلت الى أربعةوأربعين مجلداً فى كل واحد منها خمسين ورقة فاذا عرفنا - أن السلطان سوف يجلب إليه ما ينفق فيه ، لماعجبنا إلى تحول القرطبيين الى عشق الكتب وجمعها، والاعتناء بنسخها وتجليدها حتى أنه كان فى الربض الغربى من المدينة مائة وسبعون امرأة يكسبن رزقهن من نسخ الكتب .

وجه الحكم رسلاً الى بلاد المشرق ، وخاصة بغداد ودمشق والفسطاط لشراء الكتب ، باذلاً فى سبيلها أحسن الأثمان ، ونفق ذلك لديه ، فحملت من كل جهة إليه ، كما استخدم الحكم عدداً كبيراً من النساخ فى منزله يتولون نسخ الكتب النادرة ، بل إنه أقام صناعة متكاملة فى داره تضم كما يقول ابن خلدون الحذاق فى صناعة النسخ ، والمهرة فى الضبط والاجادة فى التجليد ، فأوعى من ذلك كله .

تحولت بلاد الأندلس عامة ، وقرطبة خاصة الى سوق كبيرة للكتب والى سوق كبيرة للأدب والعلم ، فأمها المؤلفون من جميع الأصقاع والبقاع

حاملين انتاجهم ، فاذا مثلوا فيها ، اشترى منهم الخليفة هذه المنتجات بأثمان حرية بتشجيعهم ، وتحملهم على العودة بأضعاف ما كان معهم، ويرى أستاذنا د. غلاب : بأن التاريخ يحدثنا أن الحكم الثانى كان له فضل التفوق فى جمع هذه الثروة العظيمة، التى كان لها فيما بعد أثر بارز فى بناء صرح المدينة الانسانية ، بما أحدثته من انقلاب فى الأفكار الأوربية فى أواخر القرون الوسطى ، مما كان أحد الأسباب القوية والمباشرة للنهضمة الأوربية .

هل صدق وصف المستشرق الأسبانى أو كانيا ؟ أم أفضل منه ما جاء عند المؤرخ العظيم بن الأبار الأندلسى فى حق هذا الخليفة العظيم يقول ابن الأبار : كان مع هذا كثير التهمم بكتبه ، والتصحيح لها والمطالعة لفوائدها، وقلما تجد له كتابا كان فى خزائنه الا وله فيه قراءة ونظر ، من أى فن كان من فنون العلم ، يقرؤه ، ويكتب عليه بخطه ،إما فى أوله أ فى آخره ، أو فى تضاعيفه ، وفى نسب مؤلفه ووفاته ، والتعريف به ، ويذكر أنساب الرواة له ، ويأتى من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده ، لكثرة مطالعته وعنايته بهذا الفن ، وكان موثوقاً به مأموناً عليه ، صاركل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلس وأئمتهم، ينقلونه من خطه ، ويحاضرون به .

ونجدنا مبهورين حين يؤكد « الحميدى الأندلسى » أنه رأى بنفسه خط الحكم المستنصر على كتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربه ، حيث قيد الحكم تاريخ مولد الرجل ، وتاريخ وفاته ، ويقول : هذا آخر ما رأيت بخط الحكم المستنصر ، وخطه حجة عند أهل العلم عندنا » لأنه كان عالماً ثبتاً ،

وقال عنه القاضى عياض رحمة الله عليه : وكان الحكم ممن طالع الكتب ، ونقر عن أخبار الرجال تنقيراً لم يبلغ شأوه كثير من أهل العلم .

تلك صورة موجزة عن الخليفة الأندلس الكبير الحكم المستنصر بالله الذى انتقل الى رحاب ربه عام ٣٦٦ هـ أى منذ ألف وثلاث وخمسين عاماً من هجرة المصطفى عليه الصلاة السلام .

حمراء غرناطة

وتطورها

بعد ضياع الاندلس

الحمراء تغير جلدها *

تعتمل هذه المقالة بين جوانحى منذ سنوات طوال أناقشها فى فكرى، وأحاورها فى خيالى يوماً بعد يوم ، لكننى أشفق حين امسك القلم لتسجيل خواطرى عنها، دون ان أدرى لماذا التردد ، ودون ان اتقدم لصياغة ما فى نفسى من أفكار .

ولعل السبب فى ذلك ، هو خشيتى من صدمة يحسها القارىء العربى مثل تلك الصدمة التى احسسنا بها ذات ليلة فى مدريد ، حين سعينا ، مجموعة من شباب الدارسين العرب هناك وبعض الاساتذة ورجال السلك السياسى ، لنستمع الى عميد المستشرقين الاسبان واشهر علمائهم الدكتور اميليو غارثيا غوميث حين القى محاضرته الثالثة والاخيرة فى مؤسسة « خوان مارش » عن غرناطة خلال عام ١٩٧٩ م .

كانت القاعات – تلك الليلة – غاصة بالعلماء والادباء والمثقفين من الكهول والشبان، بصوره لم ارها فى حياتى فى محاضرة أخرى ، حتى ان المحاضرة كانت تنقل الى الجمهور عبر شاشات التلفزيون فى دائرة مغلقة ، وكان الحشد كبيراً بما لا يمكن وصفه او تقديره .

وللدكتور غارثيا غوميث اسلوبه الشاعرى المؤثر الذى ينفذ الى القلوب والمسامع ويزداد التأثير وقعاً على القلوب حين يتناول الصراع غير المتكافىء بين العرب والاسبان حتى يستسلم المسلمون فى غرناطة ، ويدخل الاسبان قصور الحمراء دخول الظافرين المنتصرين، ويخيم الصمت على الجميع وهو يتحدث بعد ذلك عن الحمراء وجمالها وروعة قصورها،

---

* نشرت بمجلة النادى الأدبى بابها .

الى ان يصل الى القول بأن الفضل فى بقاء مانراه الآن من عظمة تلك القصور ، انما يرجع الى تلك الانامل الاسبانية التى تعمل فى صمت وبراعة على استبدال الاجزاء المنهارة وترميمها ، واعادتها الى صورتها الاصلية بمهارة فائقة وفن عريق .

واستطرد فى الحديث ، حتى خلنا ان الحمراء غير الحمراء وان التاريخ غير التاريخ .

أقول ليلتها كانت غمتنا كبيرة وآلامنا النفسية أشد وقعاً ، ليس فقط من أجل تلك الكلمات ، وآنما لرنة الفرح والخيلاء التى كان يتحدث بها الاسبانى عن غرناطة ، تلك المدينة العربية خاتمة التاريخ الاندلسى ، وكيف انها لم تكن أكثر من مجرد مدينة افريقية حكم عليها بالفناء ، دون ان يكون فى امكانها رد القضاء . ولم يكن الامر كذلك فى حقيقة الامر ولنلق نظرة سريعة .

غرناطة تاريخها :

هى « رمانة التاريخ » مدينة تعاقب على وجودها الرومان والقوط وتتمتع بموقع ممتاز فى واد عميق شمال غرب جبال الثلج ، كما تطل على نهر شنيل المتفرع من نهر الوادى الكبير ، كما يخترقها فرع آخر من هذا النهر يسمى حدرة وكان النهران يفيضان بالماء، ومن ثم أينعت ضفافهما بالخضرة، وغصت بالحدائق والبساتين ، كما انها تشرف من جنوبها الغربى على بسيط شاسع أخضر ، يعرف فى التاريخ باسم « مرج غرناطة » .

عاشت غرناطة فى العصر الاسلامى أمجد ايامها ، وكانت اقليماً يانعاً أحبه العرب والمسلمون وأقاموا به حتى أصبحت على ايامهم جنة الدنيا تغص بالغياض والبساتين اليانعة ، والتى بلغت ، الى حد قول مؤرخ غرناطة خالد الصيت ذى الوزارتين لسان الدين بن الخطيب حوالى المائة ، بالاضافة الى مايقرب من ثلثمائة قرية عامرة تابعة لها وقال ابن الخطيب يصف جمالها :

بلد تحف به الرياض كأنه وجه جميل والرياض غداره

وكأنما واديه معصم غادة ومن الجسور المحكمات سواره

لعبت غرناطة دوراً هاماً فى التاريخ الاندلسى ، وقامت بها احدى ممالك الطوائف بعد سقوط الخلافة الاندلسية وحكمتها أسرة بنى زيرى البربرية ، وكانت أولى ممالك الاندلس خضوعاً للمرابطين وترك لنا أميرها عبد الله واحدة من أجمل ما كتب فى الترجمة الذاتية، حيث ترك لنا مذكراته ، دامجاً حياته الشخصية وتاريخ غرناطة بأسلوب جميل .

وخضعت غرناطة للمرابطين ، وللموحدين من بعدهم ، وعاشت اياماً حلوة تاريخاً وحضارة فى ظل هاتين الاسرتين .

ولم يكن احد يدرى ان التاريخ يحتفظ لغرناطة بدور بالغ الاهمية ، او أنها سوف تسطر على جبين القدر اروع صفحات البطولة ، وامجد صفحات الخلود .

لم يكن احد يدرى أو يستطيع ان يجمع فى افكاره فى تلك الآونة من النصف الاول من القرن الثالث عشر الميلادى ، وقلاع الاندلس الهامة

ومدنه العريقة تتهاوى واحدة بعد الاخرى لتسقط فى قبضة حركة الاسترداد الاسبانية التى بلغت أوجها وقمتها منذ بدايات القرن الثالث عشر الميلادى ، حين تمكنت من الانتصار الحاسم على قوات الموحدين فى معركة العقاب التى وقعت فى عام ١٢١٢م وكانت ضربة شديدة لسلطان الموحدين ولأسبانيا الاسلامية، وعاد شبح الفناء يخيم على الافق ويلوح قوياً منذراً ، حتى سرى ذلك فى كتابات العصر وشعره وتهاوت كما قلت قلاع الاندلس ، ومدنه الواحدة بعد الاخرى ، فسقطت جزر البليار عام ١٢٢٩ م وقرطبة ١٢٣٦ م وبلنسية ١٢٣٨م ، ودانية ١٢٤٤م وأوريوله ١٢٤٥م ، وشاطبة ١٢٤٦م وجيان ١٢٤٦م وأشبيلية ١٢٤٨م ، وفى نفس الوقت تساقطت مدن غرب الاندلس الواحدة بعد الاخرى ، ولم يأت منتصف هذا القرن حتى كانت ولايات الاندلس الشرقية والوسطى كلها ، وقد سقطت فى يد اسبانيا النصرانية ، ولم يبق من تراث الدولة الاسلامية فى الاندلس سوى بضع ولايات صغيرة فى طرف اسبانيا الجنوبية .

نعم ، لم يكن أحد يستطيع ان يجمح فى افكاره فى هذا الوقت الى ابعد من هذا المصير القاسى ، وتركز كل التفكير فى شبح الفناء الذى يطل بوجهه الكالح على الامة الاسلامية هناك ، وطاف بالاندلسين ، ريح التوجس والخوف والفزع وعاد النذير يهيب بالمسلمين أن يغادروا ذلك الوطن الخطر .

أكرر القول لم يكن أحد يدرى بأن التاريخ قد احتفظ لغرناطة بدور جديد حيث تنهض هذه المدينة من وسط الركام والاشلاء لترفع راية خفاقة يلجأ اليها الهاربون والشاردون ، وتصبح ملاذاً وحصناً لمواجهة هذا السقوط

المريع، وتنجح غرناطة فى ان تمد فى عمر دولة الاسلام والمسلمين على ارض اسبانيا لأكثر من مائتين وخمسين عاماً بعد ذلك .

كيف ذلك ؟ انها معجزة التاريخ ، او ان شئت ملهاته التى لا تجد تفسيراً ، وليس هنا مجال ذكر تاريخ هذه المملكة العظيمة التى كان سقوطها فى أيد الاسبان عام ١٤٩٢م نهاية لحكم المسلمين فى الاندلس ، وحدا لصراع رهيب دار على مدار ثمانية قرون من الزمان .

وكأنما اراد التاريخ ام يكافىء غرناطة على هذا الدور البطولى الرائع ، فأهداها الخلود الدايم ، واحتفظ لها يدرة من درر الآثار الاسلامية الخالدة ، وحفظ لها قصر الحمراء الذى اصبح وكأنه كعبة يحج اليها الملايين من البشر كل عام ، ليحكى لهم قصة امة بنت ودافعت وهزمت ورحلت وتركت هناك تاريخاً وشاهداً .

الحمراء تاريخاً :

يرجع قيام الحمراء الى القرن الرابع الهجرى ، حيث يشار فى المصادر الى وجود قلعة هناك تسمى « قلعة الحمراء » بنيت فوق الهضبة الواقعة على ضفة نهر حدرة اليسرى ، كما كانت هذه القلعة مقر أسرة بنى زيرى خلال فترة حكمهم لغرناطة .

ولما غلب محمد بن الاحمر النصرى على غرناطة ابتداء من عام ١٢٣٨ ، اتخذ مركزه فى تلك القلعة ، وبدأ فى تأسيس قصره بداخلها ومن ثم اصبحت هذه القلعة وهذا القصر مقراً للحكم وقاعدة لادارة مملكة غرناطة على مدى أكثر من قرنين من الزمان .

وفى اواخر القرن السابع الهجرى ، أنشأ محمد بن الاحمر ، ثانى سلاطين غرناطة الملقب بالغالب بالله ، الحصن الجديد ، والقصر الملكى ، وأقام ابنه محمد مسجد القلعة ، وهو من الاجزاء التى ازيلت واقيمت بدلاً منه كنيسة القديسة مريم ، ثم جاء السلطان ابو الوليد اسماعيل فزاد فى القصر وتجميله .

اما اعظم انشاءات قصر الحمراء فانها ترجع للملكين الكبيرين يوسف الاول وابنه محمد الخامس المعروف بالغنى بالله ، حيث قاما ببناء معظم الاجنحة والابهاء الملوكية التى مازالت تسبغ على قصر الحمراء وروعتها وبهائها كما انهما هما اللذان اغدقا عل الحمراء روائع الفن والزخرف .

وتقع الحمراء فوق هضبة تشرف على غرناطة وهى غارقة وسط بحار من الاشجار تكاد تحجبها عن ابصار الفضوليين من اهل المدينة والسائحين ، ولكنها من موقعها ترتفع كثيراً عن قمم ههذه الاشجار ، وتطل على المدينة من عليائها وكبريائها .

يبلغ طول الحمراء حوالى ٣٧٢٦ متراً اما عرضها فهو مائتى متر ويحيط بها سور ضخم مازالت منه اجزاء كبيرة حتى اليوم شاهدة على مدى عظمته ومتانته ويتخلل هذا السور عدة ابراج بقى معظمها الى اليوم ، ودمرت قوات نابليون عند انسحابها من هناك بعض اجزائها، واهم ابراج السور الباقية الى اليوم : برج الحراسة او الشمعة الساهرة ، ويقع فى الطرف الغربى من الهضبة ، وبرج قمارش الواقع فوق قاعة السفراء ، وبرج التزين، وبرج العقائل وبرج الآكام وبرج الآسيرة وبرج الآميرات وبرج الماء ، وبرج الرؤوس ..... الخ .

ومعظم هذه الاسماء محدثة وضعها الاسبان بعد ذلك ، ويدور حول تسميتها كثير من الروايات والاساطير التى تخلب لب الناس ويستمع اليها السائحون بشغف شديد .

وللقصر عدة ابواب منها باب الشريعة ، وباب الآبار وباب السلاح وهناك باب يطلق عليه الاسبان اسم « باب النبيذ » .

وهناك فى الطرف الغربى من الهضبة قلعة قديمة تسمى « حصن الابراج الحمراء » .

وموقع هضبة الحمراء ذو جمال نادرة ، فهى تشرف من الشمال والغرب على مدينة غرناطة ، وعلى مرجها الشهير ، وتشرف من الشرق والجنوب على جبال الثلج المعروفة باسم سيبيرا نيفادا ، وهى جبال لا يذوب عنا الجليد ابداً ، كما ان الهضبة تطل من علياها على النهر حدرة وعلى حى البيازين .

اهم اقسام الحمراء :

تكتسى الحمراء ثوباً جميلاً من النبل والكبرياء يجعلها شامخة رغم مسحة الاسى والالم التى تكسو جدرانها وروح الحزن المخيمة على ابهائها ونافوراتها ، ولكنها مع ذلك اجمل الآثار الإسلامية على الاطلاق ، بل واكثرها ترغيباً وبهجة لعين الزائر وكم يعجب الانسان لرشاقة بنيانها ، وخفة روحها ، وعظمتها وكبريائها كأنها - رغم كل عوادى الزمن - تريد ان تؤكد لكل زائر انها مقر الامجاد وموطن البطولات ، وانها قبل كل شيء وبعده صانعة تاريخ وشاهدة تاريخ ، وأن ارضها وجدرانها

حكايات التاريخ ، وتنقسم أبنية الحمراء - اعتماداً على كتابات المؤرخ الاندلسى الكبير محمد عبد الله عنان - الى جناحين كبيرين : **الاول** جناح قمارش الذى يضم قاعة السفراء وبرج قمارش الذى يعلوها ، **والثانى** جناح الاسود الذى يتوسط فناء الاسود ، نسبة الى أثنى عشر أسداً تحمل بنافورة من الرخام الابيض ، تضفى على البهو اسمها ولمحة من جمالها الخلاب .

ولنلق نظرة سريعة على اقسام الحمراء الرئيسية .

فناء الريحان :

وهو اول ما يرى الزائر وهو عبارة عن فناء كبير مستطيل مكشوف ، تتوسطه بركة من الماء تظللها اشجار الريحان ، وقد زينت حناياه ببعض الايات القرآنية والاشعار والدعاء للسلطان ، كما انه ينتهى ببهو صغير جميل يحتوى على مصلى حليت جوانبه بنقوش بديعة .

بهو السفراء :

يعرف باسم بهو قمارش ، وهو اعظم ابنية الحمراء من حيث السعة والارتفاع وهو عبارة عن مستطيل مساحته ١٨ متراً × ١١ متراً ، وله قبة خشبية فخمة يبلغ ارتفاعها ثلاثة وعشرون متراً وقد حفرت زخارفها على شكل النجوم ، وزخرفت الجدران على نفس الطراز .

واروع ما فى بهو قمارش زخارف قبته ونقوشها نقوش اصلية رائعة ، اما جدرانها فانها تكتسى ثوباً قشيباً من جمال الزينة والزخرفة على الرغم من ان ذلك ليس الا تجديداً لنقوشها القديمة قام به الفنانون الاسبان .

وجميع اركان المكان يعج بالابيات الشعرية ، والآيات القرآنية ونقشت به سورة « تبارك » كاملة .

فناء الاسود :

هذا الجناح من انشاء سلطان غرناطة محمد الغنى بالله ، وهو اجمل واشهر اقسام الحمراء ، ويعتبر بطرازه المصقول ، وقبابه المضلعة واعتمدته الرشيقة وزخارفه البديعة ، ونافورته الفريدة التى تحملها الاسود اروع اجنحة الحمراء واوفرها وراء وسحراً .

وفى وسط الفناء نافورة الاسود الشهيرة ، وهى عبارة عن نافورة يحمل حوضها المرمرى المستدير الضخم اثنا عشر أسداً ، صفت على شكل دائرة ونحتت من الرخام الابيض ، وهى فى مجموعها ، رغم غوامل الزمن ، وتأثير الرياح والامطار تعد من اجمل التحف الفنية فى قصر الحمراء ، وكم من الاساطير حيكت وحول سباعها وانصباب الماء من افواهها .

وبالفناء افخم مجموعة من اعمدة الرخام الابيض الرشيقة ، والنقوش البديعة التى تأسر السائحين بمنظرها وتناسقها وجمالها .

وتطل على بهو السباع عدة قاعات تعد تحفة رائعة ، بل تكاد تكون اكمل ما فى قصر الحمراء كمالاً وجمالاً وزخرفة ونقوشاً ، فهناك قاعة بنى سراج وهى قاعة غطيت ارضها بالرخام المرمرى ، وفوقه قبة عالية مضلعة وفى كلا الجانبين الايمن والايسر عقد عربى بديع مزين بزخارف عربية جميلة وفى وسط القاعة نافورة صغيرة فى ارضها بعض الصدأ،

لكن مرشدى السائحين يزعمون بأنها آثار دماء اسرة بنى سراج التى اسالها السلطان فى هذه القاعة .

أما قاعة الملوك فمدخلها عقد بديع مثلث الجوانب ، وبها ثلاثة عقود أو حنايا وفى العقد الاوسط رسمت عدة صور يقال أنها لملوك غرناطة .

وتواجه قاعة بنى سراج ، قاعة ثالثة تسمى « قاعة الاختين » لوجود قطعتين من الرخام كبيرتى الحجم غريبتين ضمن مفروشات ارضها ، وتشبه هذه القاعة فى رسومها ونقوشها القاعتين الاخرتين ، وتنتهى هذه القاعة بمشرف يطل على البيازين وعلى فناء السرو يسمى منظر للندراخا .

والحمراء واسعة ، وتفصيلاتها كثيرة ، وليس القصد هنا التعريف بها لكننى فقط اود ان اشير الى ان هذه النقوش الرائعة التى تزين قصر الحمراء الان – او على الاقل فى جزء كبير منها – انما هو تجديد قام به الفنانون الاسبان فى العصور الحديثة محاولين اعادتها الى صورتها الاولى .

اهتمام الإسبان بالحمراء :

ظلت غرناطة بعد سقوطها على يد الملكين الكاثوليكيين سنة ١٤٩٢م مقراً لاقامة ملوك اسبانيا ، ومحطاً لرعايتهم مدة طويلة من الزمن ، ثم بعد ذلك دخلت فى طور من الاهمال والنسيان ، وعاشت الحمراء فى صمت رهيب ، سكنتها الهوام والخفافيش وافرخت بين جدرانها مئات الحكايات والاساطير .

وكان للكاتب الامريكى واشنطن ايرفنج « وكتابه حكايات الحمراء » الفضل فى لفت انظار الاسبان والعالم الى هذا الاثر الخالد ومن ثم

بدأ الاسبان فى العناية به ، وتجديده ، واصلاح ما تهدم من نقوشه وجدرانه .

اقام الاسبان مجموعة من الورش المتخصصة فى النجارة والبياض والزخرفة لكى تعمل على انتاج ما يحتاجه القصر الكبير من قطع لاصلاح ما يفسد من رسومه الاصلية ومنها :-

ورشة لصب لوحات جيرية لشعار بنى نصر « لا غالب الا الله » وكذلك بعض الرسوم الزخرفية والهندسية لكى يتم تركيبها فى الاماكن التى تتساقط زخارفها القديمة ورغم ان العمال لا يعرفون اللغة العربية الا انهم يؤدون اعمالهم بمهارة رائعة ويستخرجون لوحات، تكاد تكون اصلية لدقة النقل والتصوير .

ومنها ورشة نجارة يعمل بها نجار واحد يعمل فى صناعة الابواب الخشبية بنفس الطريقة والرسم التى كانت عليها ابواب الحمراء ، ولقد شاء لى ان التقط له صورة بجوار باب جديد أفنى فيه من عمره سنوات لكى يحل بدلاً من احد ابواب القصر الاصلية ، والصورة وان لم تكن واضحة تماماً الا انها تظهر قسمات وجه الرجل الى جوار التحفة التى صنعها .

مدرسة يجب ان تبقي :

وجرى ذكر الرجل وفنه مع السنيور « رامون امنجود » سفير اسبانيا السابق فى الكويت ودول الخليج فقال لى ان هذا الرجل مدرسة يجب ان تبقى ، وواجبنا وواجب البلاد العربية ان تسعى لكى يتتلمذ

عليه بعض الطلاب حتى يتشربوا فنه ويواصلوا رسالته لانه ربما كان احد قلة يملكون موهبة الصبر والابداع فى هذا المجال .

متحف الآثار العربية الاسبانية :

من الاخبار السارة والمفاجئة التى يحملها هذا المقال الى قرائه والى غيرهم من العرب قيام اسبانيا ببناء متحف الاثار العربية الاسبانية فى مدينة غرناطة بجوار الحمراء ولعله ، أن افتتح بكامله بعد اكبر متحف للفن الاسلامى فى العالم كله ولم يفتح رسمياً حتى الان ، لانه لم يستكمل منشآته واجهزة الامن به .

ولقد شاء حظى ان ازور هذا المتحف منذ عدة اعوام مع الاستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، استاذ التاريخ الاندلسى بجامعة الاسكندرية والاستاذ الدكتور ابراهيم شبوح من تونس موفدين من قبل الاتحاد العام للمؤرخين العرب لكى تعاين المتحف على امل انه كان يمكن افتتاحه مع افتتاح مهرجان الاندلسى الذى تقدم به الاتحاد الى الجهات الاسبانية ثم نكص على عقبيه دون اسباب معقولة مسبباً بذلك حرجاً شديداً لكل عربى ظ قد يعرف القصة على حقيقتها.

ويومها التقينا بمدير الحمراء والمتحف والسنيور انطونيو دى لا بويرتا الذى صحبنا فى جولة فى ربوع هذا المتحف الرائع الذى سيكون ولاشك اكبر متحف اسلامى فى العالم - على الاقل من ناحية الحجم .

مفاجآت :

عنونت مقالى بالحمراء تغير جلدها ، لم يكن ذلك عنواناً بقدر ما هو حقيقة تاريخية اكدتها لى تلك الرحلة المشاراليها وارتنى كم كان على حق

المستشرق الكبير " اميليو غارثيا غوميث " يوم قال ان الحمراء قد عاشت مبلد لأن يدا اسبانية رقيقة قد تعهدتها بالتجديد والعناية ، لكن لم يدر بخلده ان التغيير سيكون كبيراً وخاصة فى الايام القريبة التالية ..

النافورة راحلة :

ليس فى الحمراء اكثر جاذبية من بهو السباع بنافورة الخلابة التى يحملها اثنا عشر اسداً ، ولكم تجمع السائحون حولها يستمعون الى اسطورة الاسود التى كانت تلقى الماء من فيها ساعة من النهار ، وان احد اليهود قد استأذن ملوك اسبانيا فى الحفر اسفلها لكى يتبين سرها مما تسبب فى عطلها وتوقفت الاسود عن القاء الماء فو وقت معين من النهار . وهذه النافورة ذات التاريخ ، سوف ترحل من هذا المكان لأنها مهددة بالرطوبة ويخشى على رخامها من عوامل المناخ ، ومن ثم لا مفر من ادخالها المتحف المشار اليه وان تترك عرشها لتستقر عليه اخرى صنعها الاسبان واستعدوا لكى يحتفلوا فى القريب بتتويجها مكان النافورة الاصلية التى سوف تنزوى بسباعها داخل قاعة تتحكم فيها الات قياس الحرارة والبرودة والرطوبة ...... الخ

ولن يقتصر الامر على النافورة والسباع ، فهناك ايضاً الابواب الاصلية تستعد لتحتل مكانها فى متحف غرناطة الحضارى ولتحل محلها ابواب اخرى من ذات الطراز العربى التى قام بصنعها ذلك الفنان الاسبانى المغمور فى مبنى منزو داخل قصر الحمراء .

والى مقالة اخرى لنفسح المجال اكثر عن الحمراء وعن باقى آثار غرناطة .

ابن عمار الأشبيلى
مأساة إنسانية فى العصر الأندلسى*

هناك أسطورة يونانية قديمة مفادها أن «إيكاروس» صنع لنفسه أجنحة من الشمع تمكن عن طريقها من الفرار من سجنه، إلا أن طموحاته دعته إلي أن يحلق عالياً، وأن يرتفع كثيراً، حتي أنه طار بتلك الأجنحة قريباً من الشمس، فذاب الشمع، وسقط إيكاروس في البحر ميتاً.

تلك الأسطورة القديمة تشير إلي الجانب المأساوى في حياة بعض البشر ممن يطمحون إلي ما فوق قدراتهم وإمكاناتهم، أو يتطلعون أعلي بعيداً حتي لقد تصل بهم هذه الطموحات إلي حد تدميرهم تماماً والسقوط بهم في هاوية لا يجدون منها مخرجاً.

تلك هي المأساة الحقيقة لابن عمار الأشبيلي أحد أعظم شعراء الأندلس علي عصر ملوك الطوائف بالأندلس والذي ولد بقرية «شنبوس» وهي قرية صغيرة من قري شلبب بغرب الأندلس علي ما يقول ابن سعيد في المغرب، وكان ذلك عام ٤٢٢هـ في أسرة متواضعة عاملة.

ولنبدأ مع الرجل منذ كان طالباً فقيراً يدب في شوارع قرطبة حاملاً أدواته متلقياً العلم هنا وهناك، وينظم بعض أشعاره في أسواقها طمعاً في الحصول علي ما يسد رمقه ويطعم منه دابته.

---

* نشرت بالمجلة العربية بالمملكة العربية السعودية، العدد ٢٤٢ شعبان ١٤١٧ هـ

فرد ابن عمار : يرجو بذاك العفو من رحمـانه

فقـال المعتمـد : طوبـي له من شـاهد بحقيقـة

فأكمل ابن عمار : إن كان عقد ضميره كلسانه

وكان الأمير المعتمد يحيه حتي كان لا يطيق بعده عنه، وكتب إليه مرة :

لما نأيت الكري عن ناظـري ووودتـه لما انصرفت عليـه

طلب البشير بشارة يجزي بها فوهبت قلبي، واعتـذرت إليه

بعد وفاة المعتضد، أصبح ابنه المعتمد ملكاً علي أشبيلية، وارتقي ابن عمار إلي درجة الوزارة، بل أصبح أول الوزراء، المتحكم في أمور الدولة، المتصرف في كل الأمـور حتـي غدا وكـأنه الحاكم الحـقيقي لأشـبيليـة، وأصبح قائداً لجيوش أشبيلية، وسفيراً عن ملكها إلي ملوك النصاري في شمال الأنـدلس، وإلي أقرانه من ملوك الطوائف، وأصبح ابن عـمار ممن يشـار إليـه بالبنان، بل ويسعي الناس حتي مـجـرد لمس الركـاب، وأطنب الكتاب في ذكره مسامراتـه مع الوزراء، ولياليهم الغناء، ويكفي مثالا عن ذلك ما أورده كتاب «نفح الطيب» حيث يقول :

خرج الوزير أبو بكر بن عمار، والوزير أبو الوليد بن زيدون، ومعهما الوزير ابن خلدون من أشـبـيليـة إلي منظرة لابن عـبـاد بموضع يقـال له «الفـونت» تحف بـه مروج مشـرقـة الأنوار، منقسمـة الأنجـاد والأغوار، متبسمـة عن ثغور النوار، في زمـان ربيع سقت الأرض السحب فـيـه بوسميها ووليها، وجلتها في زاهر ملبسها وحليها، ومجامر الزهر تعطر

أردية النسائم عند هباتها، وقد نووا الانفراد للهو والطرب، والتنزه في روضي النبات والأدب وبعثوا صاحباً لهم يسمي خليفة ليأتيهم بنبيذ يذهبون الهم بذهبه في لجين زجاجة ...

لم يرع ابن عمار لخالقه تلك النعمة التي أسبغها عليه، ولم يشكر لربه ما أفاء عليه من سلطان، فمضي يعب من ملذات الحياة، وينهل من مواردها، فلم يراعي حرمة ولم يخشى ملامة، حتي قال :

هصرت لي الآمال طيبة الجنى وسوغتني الأحوال مقبلة الدنى

كما ذكر لياليه وسهرها في الرياض فقال :

يـا ليلـة بتنـا بهـا فـي ظل أكناف النعيم

من فوق أكمام الريا ض وتحت أذيال النسيم

أكثر ابن عمار في التشبب بالغلمان، وذكر المقري كثيراً من تعلقه بالشباب ومجونه في التشبب بالذكور، كما قال عنه الحجازي : وإكثار ابن عمار في المعذرين وإحسانه منهم، يدلك علي أنه كما قيل عنه : كان مشغوفاً بالكأس والاستلقاء من غير نعاس. كما تكثر كتب التاريخ من الحديث عن كيفية تمتع ابن عمار بالملذات الدنيوية، وطموحاته العالية جداً، فإنها تكثر التعجب من المكانة التي ارتقي إليها ابن عمار؛ من «صعلوك إلي وزير» ومن تشبيبه قوله :

قـرأت كـتابـك مستشفعـاً بوجه أبي الحسن من رده

ومن قبل فض ختام الكتاب قرأت الشفاعة في وجهه

وجاءت الفرصة لابن عمار حين أغري مليكه بتجريد حملة للاستيلاء علي مدينة مرسية في حدود سنة ٤٧١هـ، ولكي ينجح في حملتهن عقد اتفاقاً مع الكونت رامون برنجار، كونت برشلونة لكي يعاونه بفرسانه علي فتح المدينة، ودفع له عشرة آلاف مثقال من الذهب، كما تحالف مع قائد حصن بلج، وهو عبد الرحمن بن رشيق، ونجح هذا التحالف عن طريق الخيانة، والإغراء بالمال، واستخدام القوة، أن يدخل مدينة مرسية، ويأسر أميرها ابن طاهر، وأصبح ابن عمار حاكم المدينة من قبل ابن عباد.

كانت الفرصة سانحة أمام ابن عمار ليحقق ما كان يظنه أقصي طموحاته، فبدأ يستقل بحكم المدينة النائية بعيداً عن سلطان مليكه، وعمد إلي حكم المدينة كأمير مستقل تماماً، وتجاهل أوامر ابن عباد، ورغباته، وأخذ يظهر أمام حكام المناطق المجاورة منفرداً برأيه، وتعالي وتكبر حتي علي ولي نعمته وأميره المعتمد بن عباد، بل وصل به الأمر إلي نظم القصائد في هجائه وهجاء زوجته الأميرة اعتماد الرميكية، وقال قصيدته اللامية الشهيرة في المعتمد والرميكية، ومنها :

ألا حي بالغرب حيا حلالا ... أناخوا جمالا وحازوا جمالا

وعرج «ببومين» أم القري ... ونم فعسى أن تراها خيالا

وسب الرميكية فقال :

تخيرتها من بنات الهجان ... رميكية ما تساوي عقالا

فجاءت بكل قصير العذار ... لئيم النجارين عما وخالا

وسخر من الملك الأشبيلي فقال :

أتذكـــر أيامنا بالصـــبـــا ... وأنـت إذا لحـت كنـت هـلالا
أعانق منك القضيب الرطيب ... وأرشف من فـيك مـاء زلالا
وأقنـع منـك بدون الحـــرام ... فنقـسم جـهـدك أن لا حـلالا
سأهتك عرضك شيئا فشيئا ... وأكـشف سـترك حـالا فـحـالا
فيا عامر الخيل ويا زيدها ... منعت القـري وأبحت العـيـالا

أنشد ابن عمار تلك الأبيات أمام رجاله وحشايته، جالساً في قصر الإمارة في مرسية، مرتدياً أفخم الثياب، متباهياً، فأستغل أحد حاضريه من اليهود حالته النفسية وطالبه بنسخة من القصيدة، وسرعان ما أرسلت إلي ابن عباد في أشبيلية.

كانت أخبار ابن عمار تدمي قلب ابن عباد، وغاص خنجر طعنة الخيانة بين حنايا صدره، وتألم تألماً حقيقياً حتي يقال إنه كان يهتف :

أيها الملعون، إنك لم تخن الأمير فحسب، إنك خنت الصديق والخل الوفي، وكظم غيظه علي ألم دفين لم ينفث عنه إلا في قصيدة هجاء ضد ابن عمار أوردها الفتح ابن خاقان في كتابه فلائد العقيان، ومطلعها :

كيف التفلت بالخديعة من يدي ... رجل الحقيقة من بني عمار

كانت الإهانة والخديعة قاسيتين علي الملك الأشبيلي، فدبر في هدوء مع ابن رشيق كيفية استرداد المدينة، وبالفعل ظل ابن رشيق يتربص بابن عمار، وانتهز فرصة خروجه من المدينة لتفقد بعض الحصون الخارجية،

فوثب عليه، وساعده بعض سكان المدينة، وتمكن من السيطرة علي حصنها، وأغلق أبوابها في وجه ابن عمار، الذي أوصدت الأبواب في وجهه، فاتهم أهلها بالخيانة، وردوا عليه أن ذلك جزاء من جنس عمله، ولم يجد الرجل أمامه فرصة إلا الإسراع بالفرار وهو يتوعد ويتهدد، ولم يرحب به أحد من ملوك الطوائف فأضطر إلي اللجوء إلي الملك القشتالي الفونسو السادس الذي رفض أن يقدم له أي عون، بل لم يرحب به كثيراً في بلاطه.

هام ابن عمار علي وجهه حتي لجأ إلي سر قسطة في شمال الأندلس وقدم نفسه للعمل في خدمة حاكمها المقتدر بن هود وابنه المؤتمن، وقبلا إعالته علي مضض ولكن لم يكن مرحباً به بين رجال البلاط في مدينة سرقسطة.

حاول ابن عمار أن يكسب ثقة حكام سرقسطة وعرض عليهم أن يعهدوا إليه بقيادة حملة لفتح حصن منيع قريب من أعمال دانية يسمي حصن شقورة، ويحكمه في ذلك الوقت ابن مبارك ؛ ربما رأي السرقسطيون في ذلك فرصة للخلص من ابن عمار، فإما أن ينتصر فيضيف إلي أعمالهم بلداً يودون الاستيلاء عليه، وإن سقط استراحوا منه، فأمدوه بالقليل من الرجال المسلمين والنصاري، ولم يهتم ابن عمار بالعدد لأنه كان ينوي استخدام الحيلة في الاستيلاء علي الحصن المذكور.

كان قائد الحصن رجلاً محنكاً لم يغتر بالكلمات المعسولة التي قدمها ابن عمار مبرراً بها زيارته للحصن في القليل من رجاله، وأدرك أن وراءه ما وراءه، وسرعان ما أدرك أن هناك خطة ما فأخذ حذره، وبالفعل ما

أن تحرك ابن عمار قبيل الفجر ليفتح أبواب الحصن لباقي رجاله، حتي وجد أن ابن عمار قبيل الفجر ليفتح أبواب الحصن لباقي رجاله، حتي وجد أن ابن مبارك في رجاله شاكين السلاح، وقبضوا علي ابن عمار وقاله له : لم أنس يا ابن عمار خيانتك لابن عباد، والذي يخون مرة، يمكن أن يكرر الأمر مرة أخري.

ما لبث خبر أسر ابن عمار أن انتشر في أرجاء الأندلس ووقف عليه ابن عباد، فبعث إلي ابن مبارك يطلب إليه أن يسلمه إياه، وبعث إليه مالا وخيلاً حتي قبل ابن مبارك أن يسلمه إلي رسله الذين جاءوا الي الحصن علي رأسهم الأمير الراضي بن المعتمد ابن عباد.

أدخل ابن عمار إلي مدينة قرطبة أولاً علي هيئة مزرية يصفها ابن بسام علي النحو التالي :

ثم صدر من شقورة وجاءوا به إلي قرطبة يوم الجمعة السادس من رجب ٤٧٧هـ، وقد برز الناس لدخول الراضي وابن عمار في ذلك الحفل، في قيوده، علي دابة هجينة، حاسرا، في ثوب خلق، بين عدلي تبن عظة لمن اعتبر مجاري الليالي والأيام، ولعبها بالأنام، فكم دخل قرطبة قبل ذلك في أبهة الرؤساء، ويسحب ذيل الكبرياء، فسبحان من يبسط للمحسن والمسيء عدله، ولا تدوم العزة إلا له.

حمل ابن عمار علي نفس الهيئة إلي أشبيلية، وأودع سجن قصرها، وكم أحضره ابن عباد في مجلسه، علي نفس هيئته ويمعن في إذلاله، وعتباه، وتأنيبه وابن عمار يمعن في استعطافه، واسترحامه ووجه من

سجنه إلي المعتمد قصائد في الاستعطاف تذيب الجماد. أو علي قول ابن الخطيب «تعالج بمراهمها جراح القلوب وتعفى علي هضمات الذنوب، لولا ما فرغ عنه من القدر المكتوب، والأجل المحسوب» وتجمع المصادر الأدبية والتاريخية أن قصائد ابن عمار في محنته كانت أجمل ما قيل في هذا المجال، بل هي من أروع قصائده علي الإطلاق، ومن أشهر تلك القصائد المؤثرة التي تهز أوتار القلوب والتي جاءت قافيتها علي حرف الحاء ومطلعها :

سجاياك إن عافيت أندي وأسمح ... وعذرك إن عاقبت أجلي وأوضح

وإن كان بين الخطتين مزية ... فأنت إلي الأدني من الله تجنح

حنانيك في أخذي برأيك لا تطع ... عداي ولو أثنوا عليك وأفصحوا

أقلنى بما بيني وبينك من رضي ... له نحو روح الله باب مفتح

وعفت علي آثار جرم سلكتها ... بهبة رحمي منك تمحو وتصفح

ولا تلتفت قول الوشاة وزوره ... كل إناء بالذي فيه يرشح

علي أن تضرع ابن عمار لم يؤثر في مليكه الصارم، ولم تجد الرحمة إلي قلبه سبيلا، ويقال أنه مما قضي علي عطف المعتمد، وحفزه علي التعجيل بالقضاء علي وزيره هو أن ابن عمار استعطف ابن عباد حتي رق قلبه، وكاد أن يعفو عنه ولمح له بذلك، فسعد ابن عمار بذلك سعادة طاغية، وسرعان ما أبلغ بذلك الأمير الرشيد من عباد، وذاعت تلك

الإشاعة بسرعة جداً ونقلها أبو بكر بن زيدون إلي ابن عباد بصورة أضرمت السخط في نفس المعتمد الذي نهض غاضباً، وأندفع إلي حائط بقصره فانتزع منه طبرزين حاد سبق أن أهداه له الملك الفونسو السادس، واندفع ابن عباد إلي سجن ابن عمار الذى فزع فزعاً شديداً عنه رؤيته، وارتمي علي قدميه يقبلها استعطافاً لكن كلما زاد في استعطافه ازداد حنق المعتمد الذي هوي بطبرزينه علي رأس ابن عمار، وظل يضربه بها ولم يتركه إلا جثة هامدة تضرجها الدماء، وكان مصرع ابن عمار علي هذا النحو المؤسي في أواخر سنة ٤٧٧ هـ وهكذا قتل ابن عباد بيده وزيره الشاعر المبرز، ورفيق صباه، بعد أن حلق عالياً حتي أحرقت الشمس جناحيه.

الفهرست